
هنري باربوس
الجحيم
ترجمة: جورج طرابيشي
رواية
دار الآداب

هنري باربُوس

الجحيـم

ترجمة جورج طرابيشي

رواية

دار الآداب ـ بيروت

الجحيم

هنري باربُوس / روائيٌ فرنسيٌّ

طبعة عام 2016
ISBN 978-9953-89-070-8

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

 /Dar.Al.Adaab  @DarAlAdab  daraladab.com

- ١ -

تركتني المضيفة، السيّدة لومرسيه، بمفردي في غرفتي، بعد أن ذكّرتني في بضع كلمات بكلّ المزايا المادّيّة والأخلاقيّة لنزل أسرة لومرسيه.

وقفت، منتصبًا، أمام المرآة، وسط هذه الغرفة التي سأقيم فيها بعض الوقت. نظرت إلى الغرفة ونظرت إلى نفسي.

كانت الغرفة رماديَّة، تفوح منها رائحة غبار. رأيت كرسيَّين، على أحدهما حقيبتي، وأريكتين مسندهما رقيق وقماشهما سميك، ومائدة عليها غطاء صوفيّ أخضر، وسجّادة شرقيَّة يسعى وشيها العربيّ، المتكرّر بلا انقطاع، إلى لفت الأنظار. لكن في هذه الفترة من المساء، كان لهذه السجّادة لون الأرض.

كان هذا كلّه غريبًا عليّ. ومع ذلك، كم كنت أعرف هذا كلّه: هذا السرير المصنوع من خشب البلاذر المقلّد، وطاولة الزينة هذه، الباردة؛ وهذا الترتيب المحتّم للأثاث، وهذا الفراغ بين هذه الجدران الأربعة.

كانت الغرفة بالية. ويبدو أنّ أعدادًا لامتناهية من الناس قد نزلت فيها. كانت السجّادة مستهلكة، من الباب إلى النافذة، حتى ليبيّن سداها. لقد وطأتها، يومًا بعد يوم، جموع غفيرة. كانت النقوش، التي بمتناول الأيدي، مشوَّهة، مجوَّفة، راجفة، وكان رخام المدفأة قد انصقلت زواياه. إنَّ الأشياء، عند احتكاك البشر بها، تمّحي، في بطء مؤئس.

سرعان ما أخذت الأشياء تدلّهمّ، ورويدًا رويدًا، غام السقف كالسماء عند العاصفة. واسودَّت أكثر الأماكن تعرُّضًا للّمس في المساحات المائلة إلى البياض والورق الورديّ: مصراع الباب، مفتاح قفل الخزانة المدهون، وإلى يمين النافذة، الجدار، حيث تُسحب حبال الستائر.

إنَّ إنسانيَّة كاملة قد مرَّت من هنا كالدخان. وليس من شيء أبيض غير النافذة.

... وأنا؟ إنَّني إنسان كالآخرين، كما أنَّ هذا المساء مساء كسائر الأماسي.

منذ هذا الصباح وأنا أسافر.. العجلة، المعاملات، الحقائب، القطار، أنفاس المدن الشتّى.

ثمة أريكة هنا. أتهالك عليها. كلّ شيء يصبح أكثر هدوءًا وعذوبة.

إنَّ قدومي النهائي من الريف إلى باريس لَمرحلةٌ كبيرة في حياتي. لقد وجدت وظيفة في مصرف. سوف تتغيَّر أيامي. وإنَّما بسبب هذا التغيّر أنتزع نفسي من أفكاري، هذا المساء، وأفكِّر بنفسي.

إنِّي في الثلاثين. سوف تكتمل في اليوم الأوّل من الشهر القادم. لقد فقدت أبي وأمي منذ ثماني عشرة أو عشرين سنة. لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد حتى إنَّه بات بلا معنى. لست متزوِّجًا. ليس لي أولاد

ولن يكون لي. ثمّة أحيان يسبّب لي فيها هذا اضطرابًا: حين أفكّر بأنّه ستنتهي معي ذرّيّة كانت منذ أن كانت الإنسانيّة.

هل أنا سعيد؟ أجل. إنّني لا أعيش في حِداد، ولا في حسرات، وليست بي رغبة معقّدة. إذن، أنا سعيد. إنّني لا أذكر أنّه كانت تنتابني، منذ أن كنت طفلًا، إشراقات من العواطف، إشفاقات صوفيّة، حب مرضيّ لحبس نفسي بمفردي مع ماضيّ. كنت أعزو إلى ذاتي أهمّيّة استثنائيّة. وكان التفكير يشطّ بي حتّى لأتصوّر نفسي أكثر أهمّيّة من أيّ إنسان آخر: لكن هذا كلّه قد غرق شيئًا فشيئًا في العدم الإيجابي للأيّام.

هأنذا الآن.

إنّني أميل من فوق أريكتي لأكون أقرب إلى المرآة، وأنظر إلى نفسي مليًّا.

إنّني أميل إلى القصر، وأبدو كتومًا (رغم أنّني حبور في بعض الساعات). هندامي لا مأخذ عليه البتّة. وليس، في شخصي الخارجي، شيء يستوجب إعادة النظر فيه، أو ملاحظته.

إنّني أتأمّل، عن كثب، عينيّ الخضراوين واللتين توصفان عادةً بأنّهما سوداوان، أتأمّلهما بزيغ لا يُفسَّر.

إنّني أؤمن إيمانًا مبهمًا بأشياء كثيرة. وقبل كلّ شيء، بوجود اللّـه، إن لم أقل بعقائد الدين. بيد أنّ في هذا الأخير فوائد للمتواضعين والنساء، ممن تأتي عقولهم في مرتبة أدنى من عقول الرجال.

أمّا المناقشات الفلسفيّة، فأعتقد أنّه لا جدوى منها البتّة. فأنت لا يمكنك أن تفحص شيئًا، ولا أن تتحقّق من شيء. الحقيقة، ماذا تعني هذه الكلمة؟

إنّي أملك حسن تمييز الخير من الشرّ. لن أرتكب فظاظات، ولو كنت واثقًا من عدم العقاب. كما أنّه لا يمكنني أن أقبل بأيّ مبالغة مهما كانت.

لو كان كلّ الناس مثلي، لسار كلّ شيء على ما يرام.

بات الوقت متأخّرًا. لن أفعل شيئًا آخر اليوم. ما أزال جالسًا هنا، في النهار الآفل، تجاه زاوية المرآة. إنّني ألمح، في هذا الجوّ الذي أخذ الظلام باجتياحه، بروز جبهتي، وبيضويّة وجهي، وتحت جفني الرافّ نظرتي التي أدخل بها إلى ذاتي وكأنّني داخل إلى قبر.

التعب، الطقس الكالح (أسمع مطرًا في المساء)، الظلّ الذي يزيد من وحشتي، ومن حجمي رغمًا عن كلّ جهودي، وشيء آخر لست أدري ما هو، هذا كلّه يحزنني. وأنا يسئمني أن أكون حزينًا. أهزّ نفسي. ماذا هناك إذن؟ لا شيء. ليس هناك سواي.

لست وحيدًا في الحياة وحدتي هذا المساء. لقد أخذ الحب في عينيَّ وجه صغيرتي جوزيت وحركاتها. منذ زمن بعيد ونحن معًا. منذ زمن بعيد، في البناء الخلفيّ لمحلّ الخياطة حيث تعمل في مدينة تور، أمسكت برأسها، إذ رأيتها تبتسم لي بإصرار غريب، وقبّلتها من فمها ــ وتبيّنت فجأة أنّني أحبّها.

أكاد لا أذكر الآن السعادة الغريبة التي كنّا نجدها في تعرّينا. صحيح أنَّ هناك لحظات أشتهيها فيها بجنون لا يقلّ عن جنون المرّة الأولى، وعلى الأخصّ حين لا تكون معي. أمّا حين تكون معي فثمّة لحظات يأخذني فيها القرف منها.

سوف نتلاقى من جديد هناك، في العطلة. نستطيع أن نعدّ الأيّام التي سنتقابل فيها قبل أن نموت.. لو كانت لنا الجرأة.

أن نموت: لا ريب في أنّ فكرة الموت هي أهمّ الأفكار جميعًا.

سأموت ذات يوم. أفكَّرتُ بهذا مرّة؟

إنَّني أحاول أن أتذكَّر. كلّا، لم أفكِّر به قطّ. لا أستطيع. إنَّ القدر لَرماديٌّ، ومع ذلك فأنت لا تستطيع أن تنظر إليه وجهًا لوجه كما لا تستطيع النظر إلى الشمس.

والمساء يأتي كما ستأتي جميع الأماسي، إلى أن يأتي أطولها جميعًا.

هأنذا قد انتصبت، فجأة، مترنِّحًا، وقلبي يخفق خفقانًا عظيمًا كخفقان الأجنحة..

ماذا إذن؟ انفجر، في الشارع، صوت بوق، لحن صيد.. يبدو، ظاهريًّا، إنَّه قائد كلاب صيد تابع لأسرة كبيرة، منتصب أمام مشرب إحدى الكباريهات، منتفخ الخدّين، مطبق الفم بشدّة، مستفرس النظرة، يخلب لبّ الحضور.. فهم صامتون.

لكن، ليس هذا كلّ شيء في ذلك البوق الذي يدوّي بين حجارة المدينة.. حين كنت صغيرًا، كنت أسمع، في الريف حيث ترعرعت، هذا النفير، من بعيد، على الدروب بين الغابات والقصر. إنَّه اللحن نفسه، إنَّه الشيء نفسه بالضبط. كيف يمكن لهذا أن يكون مشابهًا لذاك إلى هذا الحدّ اللّامتناهي؟

ورغمًا عنّي، امتدَّت يدي إلى قلبي بحركة بطيئة راجفة.

سابقًا.. اليوم.. حياتي.. قلبي.. أنا. إنَّني أفكِّر بهذا كلّه، على حين غرّة، دونما سبب، وكأنَّني جُننت.

.. منذ سنين، منذ البدء، ماذا فعلت بنفسي؟ لا شيء، وهأنذا في منحدر العمر. آه: يخيَّل إليّ، لأنَّ هذه اللّازمة ذكَّرتني بالأيّام الماضية، أنَّني قد انتهيت، أنَّني لم أعش، وتخامرني رغبة في نوع من الفردوس الضائع.

لكن، مهما توسّلت، مهما تمرّدت، فلن يكون لي شيء بعد الآن. لن أكون من اليوم فصاعدًا، لا سعيدًا ولا تعيسًا. لا أستطيع أن أبعث من جديد. سأشيخ بالهدوء نفسه الذي أنا فيه اليوم في هذه الغرفة، حيث خلّف العديد من الناس آثارهم، وحيث لم يخلّف أحد أثره.

هذه الغرفة، إنَّك لتجدها عند كلّ خطوة تخطوها. إنَّها غرفة الناس كافة. قد تحسبها مغلقة، كلَّا: إنَّها مفتوحة لرياح الفضاء الأربع. ضائعة وسط غرف مشابهة، ضياع النور في السماء، ضياع يوم بين الأيّام، ضياعي أنا في كلّ مكان.

أنا، أنا: لقد بتُّ لا أرى الآن إلَّا شحوب وجهي، المدفون في السماء بمحجريه الغائرين، وفمي المليء بصمت يخنقني ويلاشيني رويدًا رويدًا لكن بصورة لا تدع مجالًا للشكّ.

إنَّني أنهض مستندًا إلى مرفقي وكأنَّني أستند إلى قطعة من جناح. أودّ لو يحدث لي شيء لامتناهٍ.

لا أملك عبقريّة، ولا رسالة أؤدّيها، لا قلبًا كبيرًا أهبه. ليس عندي شيء ولا أستحقّ شيئًا.

لكنِّي أرغب، رغم كلّ شيء، في نوع من التعويض..

أمّا عن الحبّ، فإنَّني أحلم بمغامرة عاطفيّة، فريدة، لم يسمع لها مثيل. مع امرأة ضيّعت كلّ وقتي بعيدًا عنها حتى الآن، امرأة لا أرى ملامحها، لكنِّي أتخيَّل ظلّها، إلى جانب ظلّي، على الطريق.

أريد اللامتناهي، أريد الجديد: رحلة عجيبة، فيها ألقي بنفسي، فيها التكاثر. أسفار مترفة محمومة بين تهافت المتواضعين، وقفات هادئة في قاطرات تجري بكلّ قوّتها وكأنَّها الرعد، بين المناظر الطبيعيَّة المتناثرة، والمدن التي تتعاظم فجأة كالريح.

مراكب، صوارٍ، أوامر تصدرها ألسنة بربريّة، رسوٌّ في موانئ ذهبيَّة، ثم وجوه غريبة مثيرة للفضول لوّحتها الشمس، وأنصاب مذهلة الشبه، تعرفها من صورها، تبدو في كبرياء السفر وكأنَّها جاءت بالقرب منك.

ذهني فارغ. قلبي نازف. ليس لي شخص يحيط بي، ولم أجد شيئًا قطّ، حتى ولا صديقًا. إنَّني إنسان مسكين سقط ذات يوم على أرض غرفة في فندق يقدم إليها جميع الناس، ويغادرها جميع الناس، ومع ذلك فإنَّني أريد مجدًا: مجدًا ممتزجًا بي كجرح رائع مدهش أحسّ به ويتكلّم عنه الجميع. أريد جمهورًا أكون على رأسه، ويهتف لاسمي هتافًا أشبه بصيحة جديدة تحت أديم السماء.

لكنِّي أشعر بعظمتي تنهار من جديد. إنَّ مخيّلتي الصبيانيَّة تلعب بلاجدوى بهذه الصور المبالغ فيها. ليس هناك شيء لي: ليس هناك سواي، أنا الذي يعلو، وقد عراه المساء كصيحة.

لقد جعلت منّي هذه اللحظة شبه أعمى. إنَّني أحزر نفسي في المرآة أكثر ممّا أراها. إنَّني أرى ضعفي وأسري. أمدّ إلى الأمام، من جهة النافذة، يديّ المتوتّرة أصابعهما، يديّ الباديتين كأشياء ممزَّقة. ومن ركني في الظلّ، أرفع وجهي حتى السماء. أتهالك إلى الخلف، وأستند إلى السرير، هذا الشيء الكبير الذي له شكل حيّ مبهم، وكأنَّه ميّت. إلهي، قد هلكت. ارحمني: كنت أحسب نفسي حكيمًا راضيًا بمصيري. كنت أقول إنَّني عارٍ من غريزة السرقة. واأسفاه، واأسفاه، هذا ليس صحيحًا، ما دمت أريد أن آخذ كلّ ما هو ليس لي.

- ٢ -

انقطع صوت البوق منذ زمن طويل. عاد الهدوء إلى الشارع، إلى البيوت. سكون. أمررت يدي على جبيني. انتهت هذه النوبة من العاطفيّة. هذا أفضل. إنّي أستعيد توازني بجهد إراديّ.

أجلس إلى طاولتي، أُخرج من محفظتي، التي وُضعت عليها، أوراقًا يجب أن أقرأها، وأصنّفها.

شيء ما يحزنني. سوف أربح بعض المال. سوف أستطيع أن أرسل شيئًا منه إلى خالتي، التي أنشأتني، والتي لا تزال تنتظرني في الغرفة الواطئة حيث يكون صوت آلة خياطتها، بعد الظهر، رتيبًا مميتًا كصوت ساعة دقّاقة، وحيث يكون بقربها، مساء، مصباح لا أدري لِمَ يشبهها.

الأوراق. عناصر التقرير الذي سيكون بمثابة حكم على إمكانيّاتي، والذي سيقرّر نهائيًا قبولي في مصرف برتون.. السيد برتون، الذي يستطيع كلّ شيء من أجلي، الذي ليس عليه أن يقول إلّا كلمة واحدة، السيد برتون، إله حياتي الراهنة...

أستعدّ لإشعال المصباح. أحكّ عود ثقاب. إنّه لا يشتعل، الفوسفور ينقشر، فينكسر. أرمي به وأنتظر، وبي شيء من السأم..

آنئذ أسمع أغنية مهموسة قرب أذني.

يخيَّل إليَّ أنَّ أحدهم يغنّي لي، لي وحدي، مناجيًا، وهو منحن على كتفي.

آه: هلوسة.. إنَّ مخيّلتي لمريضة.. هذا عقابي على أنَّني فكَّرت كثيرًا منذ لحظات.

إنَّني منتصب، ويدي مشنَّجة على حافّة الطاولة، يخنقني شعور بالخارق. إنّي أتحفَّز، خافق الجفن، منتبهًا مرتابًا.

لا تزال الدندنة هنا. إنَّني لا أتخلَّص منها. رأسي يدور.. إنَّها قادمة من الغرفة الملاصقة.. لِمَ كانت لامتناهية الصفاء، قريبة إلى حدّ غريب، لِمَ تمسّ قلبي على هذا النحو؟ نظرت إلى الجدار الذي يفصلني عن الغرفة المجاورة، وخنقت صيحة دهشة.

ثمّة ضوء يلمع في الأعلى، قرب السقف، فوق الباب المقفل. إنَّ الأغنية تأتي من هذه النجمة.

الحاجز مثقوب، ومن هذا الثقب، يتسرَّب نور الغرفة المجاورة إلى عتمة غرفتي.

أصعد على السرير. أنتصب عليه، ويداي على الجدار، ويطاول وجهي الثقب. ألواح خشبيَّة مسوَّسة، وقرميدتان متباعدتان. وقد تساقط جصّ. تبرز لعيني فتحة، واسعة كاليد، لكنَّها لامرئيَّة من الأسفل، بسبب النقوش.

أنظر.. أرى.. تَهَبُ الغرفة المجاورة نفسها لي، عارية تمامًا.

إنّها تمتدّ أمامي، هذه الغرفة التي ليست لي.. كان الصوت الذي غنّى قد مضى. وقد خلّف هذا الرحيل الباب مفتوحًا، شبه مختلج بعد. ليس في الغرفة إلّا شمعة مضاءة ترتعد على المدفأة.

كانت الطاولة تبدو كجزيرة، من بعيد. بدا لي الأثاث المائل إلى الزرقة، وإلى الحمرة، كأعضاء مبهمة، غامضة الحياة، ملقاة هناك.

أتأمّل الخزانة، خطوطًا لامعة متداخلة ومنتصبة، أرجلها في الظلّ. السقف، انعكاس السقف على المرآة، والنافذة الشاحبة المتموضعة على السماء كوجه.

عدت إلى غرفتي ـ وكأنّني خرجت منها حقًّا ـ مندهشًا أوّلًا، وأفكاري كلّها مرتبكة، حتى إنّني نسيت من أنا.

أجلس على سريري، أفكّر بعجلة، مرتجفًا قليلًا، والمستقبل يثقل عليّ..

إنّني أسيطر على هذه الغرفة وأملكها.. نظرتي تدخل فيها. إنّي فيها حاضر. كلُّ من سيكون فيها، سيكون فيها معي، دون أن يعرف. سأراهم، سأسمعهم، سأشاهدهم ملء العين وكأنّ الباب مفتوح.

بعد لحظة، وقد أخذتني رعدة طويلة، تطاولت بوجهي حتى الثقب، ومن جديد نظرت.

كانت الشمعة مطفأة، لكن كان أحدهم هنا. إنّها الخادمة. لقد دخلتْ بلا ريب لترتيب الغرفة، ثم توقّفت.

إنّها بمفردها. قريبة منّي كلّ القرب. مع ذلك لا أرى جيّدًا الكائن الحيّ الذي يتحرّك، ربما لأنّني انبهرت برؤيته على هذا القَدْر من الواقعيّة: مئزر أزرق لازورديّ، لونه يكاد يكون ليليًا، يتهادى أمامها كأشعّة المساء. معصمان بيضاوان، ويدان أشدّ دكنة بسبب العمل. الوجه متردّد، مغرق،

لكنَّه مؤثّر. العين مخفيّة فيه، بيد أنَّها تشعّ. الوجنتان بارزتان لامعتان. الشعر المضفور على شكل قوس يتألّف فوق الرأس كالتاج.

منذ لحظات، على الدرج، لمحت هذه الفتاة التي كانت منحنية تمسح السلم، ووجهها الملتهب قريب من يديها الضخمتين. كنت قد وجدتها منفّرة، بسبب يديها السوداوين، بسبب الأشغال الوسخة التي تنحني عليها وتقرفص.. ولقد رأيتها أيضًا في ممشى. كانت تسير أمامي، شعرها مرخى، تاركة خلفها رائحة تفهة، رائحة شخصها الذي تحسّ أنَّه ثمل وملفوف في ثياب وسخة.

والآن، انظر إليها. إنَّ المساء يبعد القبح بهدوء، ويمحي البؤس والاشمئزاز. ويبدّل الغبار رغمًا عنّي، إلى ظلّ، كما تنقلب اللّعنة إلى بركة. لم يبقَ منها إلّا لون، ضباب، شكل، بل مجرّد رجفان قلبها وخفقانه. لم يبق منها سواها.

هذا، لأنَّها وحيدة. شيء غريب، إلهيٌّ نوعًا ما. إنَّها حقًّا وحيدة. إنَّها في تلك البراءة، تلك الطهارة الكاملة: الوحدة.

إنَّني أغتصب وحدتها، بناظريَّ، لكنَّها لا تعرف شيئًا عن هذا، فهي ليست مغتصبة.

إنَّها تسير نحو النافذة، رائقة العينين، مرخيّة اليدين، سماويّة المئزر. وجهها والجزء العلوي من شخصها مشرقان: يبدو أنَّها في السماء.

تجلس على الأريكة، الكبيرة، الواطئة، الحمراء الداكنة، التي تحتلّ صدر الغرفة قرب النافذة. مكنستها مسنودة بجانبها.

تُخرج رسالة من جيبها، تقرأها. هذه الرسالة هي، في غسق المساء، أكثر الأشياء الموجودة بياضًا. الورقة المزدوجة ترتجف بين الأصابع التي تمسك بها في حذر كيمامة في السماء.

لقد رفعت الرسالة المختلجة إلى فمها، وقبّلتها. ممّن هذه الرسالة؟ ليست من أسرتها. إنَّ الابنة لا تحتفظ، حين تكون امرأة، بورع بنويّ قويّ بما فيه الكفاية لتطبع قبلة على رسالة من أهلها. عشيق، خطيب، أجل.. لا أعرف اسم الحبيب الذي ربّما كان الكثيرون يعرفونه. لكنّي أشهد الحبّ كما لم يشهده أيُّ إنسان حيّ. إنّ لفي حركة تقبيل الورقة البسيطة هذه، الحركة المتلاشية في غرفة، هذه الحركة التي عرّاها الظلّ وسلخها، إنَّ لفيها شيئًا ما جليلًا رهيبًا.

لقد نهضت واقتربت من النافذة، والرسالة البيضاء مطويّة في يدها الرماديَّة.

ادلهمَّ المساء في كلّ مكان، وخيّل إليَّ أنَّني بتُّ لا أعرف لا عمرها، ولا اسمها، ولا المهنة التي تؤدِّيها هنا من قبيل الصدفة، ولا أيّ شيء عنها، لا شيء.. إنَّها تنظر إلى المدى الشاسع الشاحب الذي يمسّها. عيناها تلمعان. لكأنَّهما تبكيان، لكن لا، إنَّهما لا تطفحان إلَّا ألقًا. إنَّ العينين ليستا نورًا بحدّ ذاتهما. إنَّهما ليستا إلَّا النور كلّه. إلامَ ستصير إليه، هذه المرأة، لو تفتّحت أزهار الواقع على الأرض؟

لقد تنهّدت ومضت إلى الباب بخطًى بطيئة. وتطبق الباب كشيء سقط.

لقد ذهبت من دون أن تفعل شيئًا آخر سوى قراءة رسالتها وتقبيلها.

انكفأت إلى ركني، وحيدًا، أشدّ وحدة من ذي قبل. لقد بعثت بساطة هذا اللقاء في نفسي اضطرابًا إلهيًّا. بيد أنَّها لم تكن إلَّا مخلوقًا، مخلوقًا مثلي. هل شيءٌ إذن أعذب وأقوى من الاقتراب من مخلوق، مهما كان؟

هذه المرأة تدخل إلى حياتي الصميميَّة، تشاطرني قلبي. كيف، لماذا؟ لست أدري.. لكن يا للأهمّيَّة التي صارت لها.. ليس بحدّ ذاتها:

فأنا لا أعرفها ولا أهتمّ بمعرفتها. لكن لقيمة وجودها الذي تُكشف للحظة، لمثالها، لأثر حضورها الواقعيّ، لوقع خطاها الحقيقيّ.

يبدو أنَّ الحلم الفائق للطبيعة الذي حملته لتوّي قد استُجيب، وإنَّ ما كنت أسمِّيه باللّامتناهي قد تجلّى. أليس ما قدّمته لي هذه المرأة التي مرّت بعمق تحت عينيّ، وأتاحت لي رؤية قبلتها العارية، دون أن تعرف.. أليس ذلك هو نوع الجمال الذي يتربّع العرش، والذي يكلِّلك إنعاشه بالمجد؟

رنّ جرس العشاء في أرجاء الفندق.

إنّ هذا التذكير بالواقع اليوميّ وبالمشاغل المعتادة يغيّر مؤقّتًا مجرى أفكاري. إنَّني أستعد للنزول إلى المائدة. أرتدي صدريّة أنيقة وثوبًا داكنًا. وأشكّ لؤلؤة على ربطة عنقي. لكنِّي سرعان ما أتوقّف وأرهف سمعي، أَملًا أن أسمع من جديد، بجواري ـ من بعيد ـ، وقع خطى أو صوتًا إنسانيًا.

بينما كنت أقوم بالحركات اللّازمة، كنت مستمرًّا في الوقوع تحت سيطرة الحدث الكبير الذي طرأ: ذلك الظهور.

نزلت إلى حيث نزل الآخرون الذين يسكنون البيت معي. وجلست في غرفة الطعام، الكستنائيَّة الذهبيّة، المليئة بالأنوار، إلى مائدة مضيفنا. إنَّه البريق العام، اللغط، الاستعجال الكبير الفارغ في بداية وجبات الأكل. كثير من الأشخاص هنا، يحتلّون أماكنهم، برزانة اجتماعيَّة رفيعة التهذيب. ابتسامات في كلّ مكان، ضجيج الكراسي التي تحرّك، عبارات مشتّتة تخاطر بنفسها، أصوات تبحث عن نفسها وتصل ما انقطع، حوارات تشتجر.. ثم تبدأ موسيقى أدوات المائدة والصحاف منتظمة متعاظمة.

يتحدّث جاراي كلّ من جانبه. أسمع همسهما الذي يعزلني. أرفع عينيّ. تصطفّ أمامي جباه لامعة، عيون بارقة، ربطات عنق، صدارٍ، أيد مشغولة من الأمام، على المائدة الساطعة البياض. هذه الأشياء كلّها تجذب انتباهي وتردّه في آن واحد.

لست أدري ما يفكّر به هؤلاء الناس. لست أدري من هم. إنّهم يخفون أنفسهم بعضهم عن بعض ويتحفّظون. إنّني أصطدم بنورهم، بجباههم، وكأنّها أنصاب كيلومتريّة.

أساور، عقود، خواتم.. إنّ الحركات المتلألئة بالمجوهرات تدفعني بعيدًا، كما لو كانت نجومًا. فتاة صبيّة تنظر إليّ بعينيها الزرقاوين التائهتين. ماذا أستطيع بمواجهة هذا النوع من الياقوت اللّازوردي؟

إنّهم يتكلّمون، لكنّ هذا اللّغط يترك كلًّا لنفسه ويمضي، كالنور الذي أعماني.

بيد أنّ هؤلاء الناس قد بدوا، في بعض اللحظات، وكأنّهم وحيدون، لأنّ صدفة الحديث قادتهم إلى التفكير بأشياء عزيزة على قلوبهم. لقد اعترفت بهذه الحقيقة وشحبت لإحدى الذكريات.

لقد تكلّموا عن المال. ودار الحديث بشكل عام عن هذا الموضوع، واهتزّ الحضور لشعور بمثل أعلى. ترأرأ على أديم عيونهم حلم بالقبض واللمس، كما تصاعد شيء من العبادة المعبودة إلى عينيِّ الخادمة ما إن أحسّت بأنّها وحيدة: هادئة ومتحرّرة إلى حدٍّ لامتناه.

وتحدّثوا بظفر عن أبطال عسكريّين. وفكّر رجال: «وأنا» وأخذتهم الحمّى، فأظهروا ما فكّروا به، رغم تفاوت مركزهم الاجتماعي المضحك وعبوديّته. وبدا لي وجه فتاة صبيّة وكأنّه يسطع. لم تتمالك تنهدة وجدٍ تحت تأثير فكرة لا يمكن تخمينها، احمرّت. رأيت الموجة الدمويّة تنداح في وجهها. رأيت قلبها يشعّ.

تناقشوا في ظاهرات ما وراء الطبيعة السحريّة.

قالوا: «من يدري» ثم تكلّموا على الموت. أثناء كلامهم عليه: تبادل اثنان، رجل وامرأة، جالسان على طرفين متقابلين من المائدة، اثنان كانا لا يتخاطبان ويتجاهل أحدهما الآخر، تبادلا نظرة فاجأتهما. ومن رؤيتي هذه النظرة تنبجس منهما تحت صدمة فكرة الموت، فهمت أنَّ هذين المخلوقين متحابّان، كلٌّ منهما للآخر في أعماق ليالي الحياة.

.. كان الطعام قد انتهى. وكان الشباب قد انتقلوا إلى البهو.

روى محامٍ لجيرانه دعوى صدر الحكم فيها أثناء النهار. كانوا يدلون بآرائهم بتحفّظ، بل بتسارّ، بسبب الموضوع. كان الحديث يدور عن رجل ذبح فتاة صغيرة وهو يغتصبها ويغنّي بصوت عالٍ جدًّا كي لا تُسمع صرخات الضحيّة الصغيرة. وفي الجلسة، صرّح الوحش: «مع ذلك كانت صرخاتها ستُسمع، لشدّتها، لولا أنَّها كانت، لحسن الحظّ، صغيرة جدًّا».

سكتت الأفواه، الواحد تلو الآخر، وراحت جميع الوجوه تصغي، وإن لم يبدُ عليها أنَّها تصغي، وودَّ البعيدون لو يقتربون ويزحفون حتى المتحدّث. وانداح الصمت دوائر دوائر، حول هذه الصورة المترأرئة، حول هذا الاحتداد المخيف لغرائزنا الخجلة، كضجّة مروّعة في النفوس.

ثم سُمعت ضحكة امرأة، امرأة شريفة: ضحكة جافّة، راجفة، ربّما كانت تحسبها بريئة، لكنَّها كانت تدغدغها بأسرها بانبجاسها: قهقهة مؤلَّفة من صرخات عديمة الشكل وغريزيَّة تكاد تكون فعلًا جسديًا.. وسكنت وانكمشت على نفسها. ويتابع المتحدّث بصوت هادئ، واثق من وقعه، قذفَ هؤلاء الناس باعتراف الوحش: «كانت حياتها قاسية، وكانت تصرخ، تصرخ! واضطّررت إلى بقر بطنها بسكين مطبخ».

نهضت أمّ شابّة، كانت بنيَّتها بجانبها، نصف نهوض، لكنَّها لم تستطع الانصراف. عادت إلى الجلوس ومالت إلى الأمام لتخفي الطفلة. كانت بها رغبة في السماع وخجل منه.

لبثت امرأة أخرى ساكنة، منحنية الوجه. لكنَّها صرفت بأسنانها وكأنَّها تدافع عن نفسها دفاعًا مأساويًّا، ورأيت شبه ابتسامة مجنونة من العذاب ترتسم، ككتابة، على التكوين الدنيويّ لوجهها.

والرجال!.. كان أحدهم، وهو رجل دمث بسيط، يلهث بصوت مسموع. وكان آخر، وله ملامح البورجوازيّ الحياديَّة، يتكلّم، بجهد كبير، عن أشياء وأشياء، إلى جارته الشابّة. لكنَّه ينظر إليها نظرة تريد أن تغوص في جسدها، وإلى أبعد من ذلك أيضًا، نظرة أقوى منه، تشعره بالخجل من نفسه، وتطرف عيناه لإشراقتها، ويسحقه ثقلها.

وهذا الآخر، لقد رأيت نظرته الفجّة، ورأيت فمه يرتعد ويحاول أن ينفرج. فاجأت انفجار محرّكات الآلة البشريّة، وهجوم الأسنان المتشنّج نحو دم الجنس الآخر وجسده الغضّ.

وتهافت الجميع، ضد الفاجر، في جوقة من الشتائم الفاحشة.

.. هكذا، للحظة، لم يكذبوا. لقد اعترفوا تقريبًا، ربما دون علم منهم، وحتى دونما علم بما اعترفوا به. كانوا أنفسهم تقريبًا. انبجست الرغبة والشهوة، وانقضى انعكاسهما ــ ورأوا ما كان في الصمت تحبسه الشفاه.

إنَّما إلى هذا، إلى هذه الفكرة، إلى هذا الشبح الحيّ، أريد أن أنظر. إنَّني أنهض، يرفعني، يدفعني استعجالي رؤية صدق الرجال والنساء يتكشَّف لناظريَّ، جميلًا، رغم قبحه، كتحفة رائعة. ومن جديد عدت إلى غرفتي، مفتوح الذراعين، وتطلَّعت إلى الجدار في حركة تقبيل، ونظرت إلى الغرفة.

إنَّها راقدة هنا، تحت ناظريَّ. إنَّها، على فراغها، أكثر حياة من الناس الذين تصادفهم والذين تعيش حياتك مختلطًا بهم، الناس الذين لهم من لانهائيَّة عددهم ما يكفي لمحوهم، لنسيانهم، الذين لهم صوت ليكذبوا ووجه ليختبئوا.

- ٣ -

الليل، الليل الشامل. الظلّ السميك كالمخمل ينصبّ عليّ من جميع الجهات.

كلّ شيء، من حولي، قد انهار ظلمات. في قلب هذا السواد، استندت بمرفقي إلى طاولتي المستديرة، التي ينيرها المصباح. لقد جلست هنا لأعمل، لكن ليس عندي، في الحقيقة، ما أعمله، سوى أن أسترقّ السمع.

لقد نظرت إلى الغرفة، لتوّي. لا أحد فيها، لكن سيقدم أحدهم، دون ريب.

سيقدم أحدهم، ربما هذا المساء، غدًا، في يوم آخر. سيقدم أحدهم حتمًا، ثم سيخلف آخرون بعضهم بعضًا. إنّني أنتظر. ويخيَّل إليَّ أنّني ما عدت مخلوقًا إلّا لذلك.

انتظرت، طويلًا، دون أن أجرؤ على أن أستريح ثم بذلت جهدًا، في ساعة متأخّرة، بعد أن خيّم الصمت منذ زمن بعيد، فشلّني. تشبّثت

بالجدار من جديد. رفعت عينيَّ إلى هناك في صلاة. كانت الغرفة سوداء، مختلطة بكلّ شيء، مليئة باللّيل كلّه، بالمجهول كلّه، بالأشياء الممكنة كلّها. وسقطت من جديد في غرفتي.

رأيت الغرفة، في الغد، في بساطة نور النهار. رأيت الفجر يمتدّ إليها. وأخذت، رويدًا رويدًا، تبزغ من أنقاضها وترتفع.

إنَّها مرتَّبة ومؤثَّثة على طراز غرفتي ذاته: في الصدر، تجاهي، المدفأة تعلوها المرآة. إلى اليمين، السرير. إلى اليسار، من جانب النافذة، أريكة... إنَّ الغرفتين متشابهتان، لكن غرفتي قد انتهت والأخرى ستبدأ..

بعد الغداء الطفيف، عدت إلى النقطة المحدَّدة التي تجذبني، إلى الشق في الحاجز. لا شيء. عاودت النزول.

الجوّ ثقيل. لا تزال رائحة من المطبخ موجودة، حتى هنا. توقّفت في عظمة غرفتي الفارغة التي لا حدود لها.

فرجت، فتحت بابي. أبواب الغرف، في المماشي، مدهونة بلون داكن، وأرقامها محفورة على صفائح نحاسيَّة. كلّ شيء مغلق. خطوت بضع خطًى سمعتها وحيدة، سمعتها مدوّية، في المنزل الكبير كاللّاحراك.

الدرج طويل ضيّق، الجدار مغطًّى بسجّادة مقلَّدة مزركشة بصور أغصان خضراء داكنة يلمع فيها نحاس مصباحين غازيّيْن. أستند بمرفقي إلى الدرابزون. ينزل خادم (الخادم الذي يقوم بخدمة المائدة، والذي يرتدي الآن مئزرًا أزرق، ويصعب إلى حدّ ما تعرُّفه بشعره المشعّث) ينزل من الطابق العلويّ، وثبًا، وتحت ذراعه صحف. تصعد بنيّة السيّدة لومرسيه، يدها حذرة على الدرابزون، عنقها ممتدٌّ إلى الأمام كعنق طائر، وأشبّه خطاها الصغيرة بأجزاء من الثواني التي تهرب. يمرّ سيّد وسيّدة

أمامي، فيقطعان حديثهما كيلا أسمعهما، وكأنَّهما يرفضان التصدّق عليّ بما يفكّران به.

تتبخّر هذه الحوادث الطفيفة كمشاهد من هزليّة يسدل الستار عليها.

أسير عبر الأصيل الكريه. أشعر أنّي وحيد ضدّ الجميع، وأنا أتجوَّل داخل هذا المنزل وفي الوقت نفسه خارجه.

عند مروري، انطبق باب في الممشى، بسرعة، خانقًا ضحكة امرأة مفاجأة. الناس يهربون، يدافعون عن أنفسهم. صوت لا معنى له يرشح من الجدران المبهمة، أدهى من الصمت. تحت الأبواب يزحف شعاع من نور، مسحوقًا، قتيلًا، أدهى من الظلمة.

أنزِل الدرج. أدخل إلى البهو الذي يناديني منه لغطُ محادثة.

بعض الرجال يتفوّهون، متجمّعين، بعبارات لا أذكرها. إنَّهم يخرجون. أسمعهم، إذ بقيت وحيدًا، يتناقشون في الممشى. أخيرًا تتلاشى أصواتهم.

ثمّ ها هي ذي امرأة أنيقة تدلف، يرافقها حفيف حريريّ وعطر من الأزهار والبخّور. إنَّها تحتلّ مكانًا واسعًا بسبب عطرها وأناقتها.

تمدّ هذه السيّدة إلى الأمام قليلًا وجهًا جميلًا طويلًا مزدانًا بنظرة ذات عذوبة كبيرة. لكنّي لا أراها جيّدًا، لأنَّها لا تنظر إليّ.

تجلس، تتناول كتابًا، تقلبه، تعطي الصفحات وجهها انعكاسًا من البياض والتفكير.

أتفحَّص خلسة صدرها الذي يعلو وينخفض، ووجهها الساكن، والكتاب الحيّ المتّحد بها. لونها ساطع الضياء حتى ليبدو فمها شبه

أسود. جمالها يحزنني. أتأمّل هذه المجهولة، من قدميها إلى رأسها، بأسف عظيم. تدغدغني بحضورها. المرأة تدغدغ دومًا الرجل حين تقترب منه وتكون وحيدة. ورغم الكثير من أنواع الفراق، تظلُّ دومًا بينهما بداية فظيعة لسعادة.

لكنَّها تنصرف. انتهى أمرها. لم يحدث شيء، ومع ذلك انتهى الأمر. هذا كلّه بسيط، قويّ، حقيقيّ، أكثر مما ينبغي.

هذا اليأس العذب، الذي لم يقع لي «سابقًا»، يقلقني. لقد تبدّلت، منذ البارحة. الحياة الإنسانيَّة، الحقيقة الحيَّة، كنت أعرفها، كما نعرفها جميعًا. كنت أطبّقها منذ ولادتي. والآن أؤمن بها في شيء من الخوف، بعد أن تجلَّت لي بشكل إلهي.

في غرفتي، حيث عاودت الصعود، يتأبّد الأصيل، ومع ذلك يأتي المساء.

من نافذتي، أنظر إلى المساء الذي يصعد إلى السماء، صعودًا هادئًا وئيدًا حتى إنَّك لتراه ولا تراه. والجمهور الذي يتفتَّت على بلاط الشوارع.

المارّة يعودون إلى البيوت التي يفكّرون بها. أسمع، من خلال الجدران، البيت الذي أنا فيه يمتلئ، من بعيد، بضيوف خفاف، بجَلَبات واهنة.

بلغ أذنيَّ صوت من الطرف الآخر من الحاجز.. أنتصب مقابل الجدار وأنظر إلى الغرفة المجاورة، التي أضحت رماديَّة بأسرها. ثمّة امرأة هنا، غامضة الحضور.

اقتربتْ من النافذة، كما اقتربت أنا، لتوّي، من نافذتي، إنَّها بلا ريب الحركة الأبديَّة لمن يكونون وحيدين في غرفهم.

أراها أكثر فأكثر. كلّما اعتادت عيناي، تحدّدت. يخيَّل إليّ أنَّها، بدافع حب الخير، تأتي.

إنّها ترتدي، في مطلع الخريف هذا، زيًّا من تلك الأزياء الفاتحة اللّون التي تشرق بها النساء ما دامت هناك شمس. ويدثّرها إشعاع النافذة الذاوي بانعكاس شبه مطفأ. ثوبها بلون الغسق اللّامحدود، بلون الزمن كما في حكايا الجنّيات.

تأتي إليّ نفحة من العطر الذي تتضمّخ به، رائحة من البخّور والأزهار، وأتعرّفها من هذا العطر الذي يدلّ عليها كاسم حقيقيّ: إنَّها المرأة الصبيّة التي حطّت، لتوّها، بقربي، ثم طارت. أمَّا الآن، فهي هنا، خلف بابها المقفل، فريسة لنظراتي.

تحرّكت شفتاها. لست أدري هل تحدّث نفسها بصوت خافت، أم أنَّها تدندن.. إنَّها هنا، قرب بياض النافذة الحزين، قرب صورة النافذة في المرآة في هذه الغرفة اللّامحدودة التي يبهت لونها. إنَّها هنا، بعينيها الداكنتين وجسدها الداكن، بضياء وجهها الذي داعبته نظرات كثيرة منذ أن وُجدت.

عنقها الأبيض، الثمين إلى حدّ مخيف، ينثني إلى الأمام. وجهها الجانبيّ، القريب من النافذة، المستند إليها من الجبهة، يغرق في الظلّ المائل إلى الزرقة وكأنَّ أفكارها زرقاء. وتتماوج هالة ضئيلة على كتلة شعرها المظلمة، فيبدو معها أشقر.

فمها معتم وكأنَّه منفرج. يدها موضوعة على الزجاج السماويّ كطير. قميصها ذو لون شاحب، بيد أنَّه قاتم، أخضر أو أزرق.

أجهل كلّ شيء عنها، وهي بعيدة عنّي وكأنَّ عوالم أو قرونًا تفصل بيننا، كأنَّها ميّتة.

مع ذلك، لا شيء بيننا: إنِّي بالقرب منها، إنَّني معها. إنِّي أتفتَّح عليها مرتجفًا.

.. يداي تمتدّان لتعانقاها. إنَّني رجل كالآخرين، على استعداد حزين دومًا للانبهار بأول امرأة قادمة. إنَّها أنقى صورة للمرأة التي نحبّ: المرأة التي لا نعرفها بعد بأسرها، المرأة التي ستتكشّف، المرأة التي تحتوي على المعجزة الحيَّة الوحيدة الموجودة على الأرض.

تستدير وتنساب في الغرفة التي أعتمت، كغيمة، بأشكالها المستديرة المهدهدة. أسمع حفيف ثوبها العميق. أبحث عن وجهها وكأنَّه نجمة. لكنّي بتُّ لا أرى وجهها كما لا أرى أفكارها.

أبحث عن معنى حركاتها. لكنَّها تفلت منّي. إنِّي على غاية القرب منها، ولا أعرف ماذا تفعل. إنَّ المخلوقات التي تراها دون أن تشكّ هي في ذلك، يبدو عليها وكأنَّها لا تعرف ما تفعله.

تقفل بابها بالمفتاح، مما يزيد في ألوهيّتها قليلًا. تريد أن تكون وحيدة. لا ريب في أنَّها دخلت إلى هذه الغرفة لتتعرَّى.

لا أحاول أن أشرح لنفسي ظروف وجودها، كما لا أفكّر في محاسبة نفسي على الجريمة التي أرتكبها بامتلاكي هذه المرأة بالنظر. أعرف أنَّنا مجتمعان. وأتوسّل إليها، من كلّ قلبي، من كلّ روحي، من كلّ حياتي، أن تتبدّى لي.

يبدو أنَّها تستجمع نفسها، تتردّد، إنِّي لأتصوَّر، من النعمة الساذجة التي تنبع من شخصها بأجمعه، أنَّها تنتظر منذ زمن طويل أن تكون وحيدة لتتجرّد. أجل، إنَّها ما تزال تشعر أنَّ هواء الخارج يلفحها، إنَّ المارة يلامسونها، إنّ أوجه الرجال الممدودة تمسّها. وهي تنتظر، وقد التجأت بين هذه الجدران، أن ينأى هذا الاحتكاك، لتخلع ثوبها.

أستمتع بأن أقرأ فيها تفكيرها العذريّ الشهوانيّ. إنّي أحسّ أنّ جسدي يميل، رغم الجدار، نحو جسدها.

مضت نحو النافذة، رفعت ذراعيها، وأسدلت الستائر بإشراق. سقط الظلام الشامل بيننا.

إنّني أفقدها!.. تمشّى ألم حادّ في كياني، كأنَّ النور سُلخ منّي.. ولبثت هنا، فاغر الفم، أتمالك أنّة، أترصّد الظلّ الذي كان يختلط بأنفاسها..

تجسّست طريقها، تناولت أشياء. حزرت، لمحت عود ثقاب يشتعل على أطراف أصابعها. ببطء، انفجرت صورتها. رأيت بزوغ بياضات باهتة من يديها، من جبينها وعنقها، وتجلّى وجهها أمامي كجنّيّة.

لم أميّز رسم الملامح في هذا الوجه النسويّ خلال الثواني القليلة التي كشف لي فيها البصيص الهزيل عن وجودها. ركعتْ أمام المدفأة، والشعلة بين أصابعها. سمعت ورأيت طقطقة لامعة لخشب جافّ في الرطوبة السوداء الباردة. رمتْ بالعود دون أن تشعل المصباح، ولم يضيء في الغرفة إلّا ذلك البصيص القادم من الأسفل.

احمرّ الموقد، بينما كانت تمرّ وتعاود المرور أمامه، في حفيف نسيميّ، وكأنّها تمرّ أمام شمس آفلة. كنت أرى الظلّ الجانبيّ لقامتها الطويلة الممشوقة، وذراعيها المبهمتين ويديها الذهبيتين الورديّتين، تتحرّك. كان خيالها يزحف أمامها، يتناوأ إلى الجدار، ويحلّق فوقها على السقف الملتهب.

كانت محاصرة ببريق الشعلة الذي كان يتدفّق نحوها كاللهيب. لكنّها كانت تتوارى في ظلمتها. كانت ما تزال مستترة، ما تزال متدثّرة ورماديّة. كان ثوبها يسقط بحزن حولها.

جلستْ على الأريكة تجاهي. حوّمت نظرها بهدوء في الغرفة.

وفي لحظة ما، حطّت على نظرتي. ونظر أحدنا إلى الآخر، دون أن تعرف.

ثمّ انفرج فمها، في نوع من نظرة أحدّ، وتقدمة أحرّ.. فمها الذي كان يفكّر بشيء ما أو إنسان ما! وابتسمت.

إنَّ الفم على الوجه العادي شيء ما عارٍ. الفم الأحمر من الدم، الذي ينزف أبدًا، شبيه بالقلب: إنّه لجرح، وإنَّه لجرح تقريبًا أن ترى فم امرأة.

وبدأت أرتجف أمام هذه المرأة التي كانت تتفرّج وتنزف بابتسامة. كانت الأريكة تغوص بدفء تحت عناق كشحيها الثقيلين. وكانت ركبتاها الناعمتان قد تقاربتا، وكان وسط جسمها كلّه على شكل قلب.

.. قدّمت رجليها للنار، وهي نصف ممدّدة على الأريكة، رافعة تنّورتها قليلًا بيديها الاثنتين، وكشفت بهذه الحركة عن ساقيها اللّتين تنفخان جوربيها الأسودين.

وصاح جسدي، وكأنَّه وُسم بالحديد المحمّى، لمرأى الخط الشهوانيّ الذي كان يختفي، متعاظمًا، في الظلّ، ويضيع في الأعماق العجيبة.

قلّصت أصابعي، ممزّق النظرة، لوجودها هنا مبذولة، فاغرة، مفتوحة ـ جبهتها غارقة في الليل، بينما كان النور الدامي الذي يزحف على الأرض يصعد بيأس إليها، فيها، كأنَّه جهد إنسانيّ!

سقط ستار تنّورتها من جديد. عادت المرأة إلى ما كانته. كلّا، إنَّها امرأة أخرى.

ولأنّني لمحت شيئًا من جسدها المحرّم، هأنذا أترصّد هذا الجسد، في الظلال الممتزجة لغرفتينا. كانت قد رفعت ثوبها، وقامت

بتلك الحركة، الكبيرة البسيطة التي يعبدها الرجال عبادتهم الدين، والتي يرتجونها، ولو ضدّ كلّ أمل، ولو ضدّ كلّ عقل، الحركة الباهرة وأحيانًا المبهورة!

إنّها تمشي، من جديد، وحفيف تنّورتها حفيف أجنحة في أحشائي.

نظرتي تدفع وجهها الصبيانيّ، حيث تستقرّ، تستتر بسمرتها. نظرتي تدفع وتنسى غصبًا عنها روحها وفكرها، فتجرّدها من شكلها وتريد دمها، كالنار التي تحاصرها ولا تتخلّى عنها. لكنّ نظراتي لا تستطيع إلّا أن تسقط عند قدميها وإلّا أن تلامس بوهن ثوبها، كألسنة لهيب الموقد، الألسنة السحريّة الضارعة، الألسنة المسلوخة، الألسنة المتمزّقة، التي تتدفّق نحو السماء!

أخيرًا أظهرت نفسها بعمق.

صلّبت ساقيها عاليًا جدًّا، لتخلع حذاءها، فاتحة لي لجّة جسمها.

كانت تريني قدمها الناعمة، المحبوسة في الحذاء اللامع، وركبتها النحيفة، في الجورب الحريريّ الكابيّ اللون وربطة ساقها المنفتحة على رحب، كإناء رقيق، على ضمور كعبيها. وربّما القليل من اللّحم الصافي، فوق المأبض في المكان الذي ينتهي فيه الجورب في كأس أبيض غائم: فأنا لم أميّز خط الجلد في الظلمات التائهة والبريق المختلج للمحرقة التي تهاجمه. أهو نسيج الثياب التحتيّة الرقيق، أهو اللحم؟ أهو لا شيء، أم هو كلّ شيء؟ كانت نظراتي تتخاطف هذا العرْي من الظلّ ومن لسان اللّهب. كنت أعذّب عينيّ بهذا اللّايقين، وجبهتي إلى الجدار، وصدري إلى الجدار، وراحتاي مستندتان إلى الجدار، بقوّة، محاولًا، بالحيلة أو بالقوة، أن أرى على نحو أفضل، أن أرى أكثر.

كنت أغرق في ليل كيانها الكبير، تحت جناح ثوبها المرفوع، العذب، الدافئ، الرهيب. كان السروال المخرّم ينفتح على شقّ واسع

معتّم، مليء بالظلّ، وكانت نظراتي تثب إلى هناك وقد جُنّ جنونها. وكان لها ما تريده تقريبًا، في هذا الظلّ العاري، في قلبه، في قلب اللباس الرقيق، الخفيف كالبخار والعابق بها، الذي لا يعدو أن يكون أكثر من غيمة من البخور حول وسط جسدها ـ في هذا الظلّ الذي هو في الحقيقة، ثمرة.

دام الأمر هكذا، هنيهة. تمدّدتُ على الجدار أمام هذه المرأة التي خافت لتوّها ـ إنّني لأذكر حركة ـ من انعكاسها، والتي اتّخذت الآن، في طهارة وحدتها التامّة، وضع فتاة تحتكُّ بنظرات الرجل المجذوب أمامها. كانت تبذل نفسها وتتجوّف، نقيّة.

انطفأ لهيب المدفأة، وبتّ لا أراها تقريبًا، حين بدأت تتعرّى: إنّما في الظلمة سيحدث هذا العيد اللّامحدود المكوّن منها ومنّي.

رأيت الشكل العالي، الطويل، العديم الشفقة، في جمالها شبه المطفأ، يتحرّك بهدوء، تحفّه أصوات ناعمة، مدغدغة ودافئة. لمحت ذراعيها تتطاولان بوقار، وعلى بصيص ضوء لذيذ لحركة جعلتهما مستديرتين لدنتين، عرفت أنّهما عاريتان.

كان ما سقط على السرير، في شكل مزقة حريريّة رقيقة، بخفّة وبطء، هو القميص الذي كان يطوّق عنقها بوداعة، ويشدّ على صدرها.. وانفرجت التنّورة الغائمة، وانسابت عند قدميها، فأضاءتها بأسرها، شديدة الشحوب، وسط الأعماق. وخيّل إليّ أَنّني أراها تتحرّر من هذا الثوب الذابل الذي لم يكن شيئًا بدونها، وميّزت شكل ساقيها الاثنتين.

لعلّني توهّمت ذلك، لأنَّ عينيَّ باتتا لا تخدمانني تقريبًا، ليس بسبب نقص الضوء فحسب، بل لأنَّ جهد قلبي القاتم، وخفقات حياتي، وظلمات دمي كلّها قد أعمتني.. لم تكن عيناي هما اللّتان تطاردان الشكل المدهش، بل كان ظلّي بالأحرى الذي يقترن بظلّها.

كانت تحتلّني بأكملي صيحة: بطنها!

بطنها! ما يهمّني من صدرها، من ساقيها! ـ كان اهتمامي بهما قليلًا جدًّا لا يتجاوز اهتمامي بفكرها ووجهها اللذين هجرتهما. إنّما هي بطنها التي أريد وأحاول أن أبلغها وكأنّها شاطئ السلام.

كانت نظراتي، التي كانت يداي المتشنّجتان تحملانها بقوّتهما، نظراتي الثقيلة كاللحم، بحاجة إلى بطنها. إنَّ نظرة الذكر تتطاول وتزحف دومًا، رغم القوانين والأثواب، نحو فرج النساء كحنش نحو جحره.

لم تعد، في نظري، إلّا فرجها. لم تعد إلّا الجرح الغامض الذي ينفتح كفمّ، وينزف كقلب، ويرنّ كقيثارة. كان يعبق منها عطر يملأني، وليس العطر الصناعيّ الذي ضمّخت به ثيابها، العطر الذي تلبسه، إنّما الرائحة العميقة الفائحة منها، الوحشيّة، الشاسعة، الشبيهة برائحة البحر ـ رائحة وحدتها، حرارتها، حبّها، وسرّ أحشائها.

كنت أهرع، وعيناي محتقنتان حمراوان كفمّين شاحبين، نحو هذه الرؤيا الرهيبة الجاذبيّة. كنت أستفرس في ظفري. وكان فمها قبلة طويلة مبذولة، وأطبقت فمي في قبلة طويلة مجدبة.

عندئذٍ لبثْتُ ساكنة ـ غير مفهومة، ممحوّة..

أردت في الواقع، وفي انتفاضة عنيفة، أن ألمسها.. أن أهدم هذا الجدار، أو أن أخرج من غرفتي، وأقتحم الباب، وأنقضّ عليها..

لا، لا، لا! وأعادني إلى صوابي حالًا إلهام.. إذ لن يكاد يتاح لي الوقت للمسها. سرعان ما سيُقبض عليّ ـ فتدنّس سمعتي، ثم السجن، الحطّة، البؤس الأسود، كلّ شيء. وتملّكني خوف رهيب، لشعوري بأنّ هذا كلّه وشيك الوقوع، وسمّرتني حيث أنا رجفة.

لكن سرعان ما بزغت فكرة أخرى، وحرث جسدي حلم: ربما استسلمت، بعد انقضاء لحظة الذعر الأولى: ربما سرتْ إليها العدوى، والتهبت كشيء لدى احتكاكها بي، في ضياع من عرفان الجميل..

لا، ولا! لأنَّها ستكون آنذاك فتاة رخيصة، وكثيرات هنَّ أمثالها. من السهل أن تكون بين يديك امرأة فتفعل بها ما تشاء: إنَّه تدنيس له تَعْرِفته. بل هناك بيوت تستطيع، بدفع الثمن، أن ترى، من خلال أبواب، فعل الحب فيها. لو كانت امرأة رخيصة، لما عادت نفسها ـ هي الوحيدة وحدة ملائكيَّة.

يجب أن أضع هذا في رأسي وفي جسمي: إذا كنت أتلقّاها على هذا النحو الكامل، فهذا لأنَّها مفصولة عنّي ولأنَّ بيننا تمزّقًا. إنّ الوحدة تجعلها تشعُّ، لكنَّها تحميها بظفر. إنَّ تجلِّيها عائد إلى حقيقتها العذراء، إلى العزلة الشاملة التي هي ملكة عليها، إلى اليقين من هذه العزلة التي تعيش فيها. أجل، إنَّها تتراءى، لكن من بعيد، من خلال فضيلتها، ولا تهب نفسها: إنَّها لكالآية الفنِّيَّة، فهي أبدًا بعيدة، متمرّدة على الزمن، في عزلة العدم والصمت، كتمثال أو لحن.

ويمنعني من الاقتراب كلّ ما يجذبني. يجب أن أكون تعيسًا، يجب أن أكون معتديًا وضحيّة في آن واحد.. ليس لي من سبيل إلّا أن أرغب، وأتجاوز نفسي من شدّة الرغبة، والحلم والأمل، إلّا أن أرغب وأمتلك رغبتي.

ولهنيهة، أشحت برأسي، لشدّة ما كان الصراع الذي أتخبّط فيه قويًّا قاسيًا، وفي الثقب الذي كان يتجوّف إلى ما لا نهاية تحت ناظريّ، فاتتني الأصوات الناعمة التي كانت تصدرها.. هل أصابني الجنون؟ كلّا، إنَّما الحقيقة هي المجنونة.

ومن كل جسمي، من كل خلجات فكري، أخذت أتغلّب على هزيمتي الجسديّة، وسكت جسدي وما عاد يحلم، ومن فوق أنقاضي الباهظة، رحت أنظر.

لكأنَّها أشفقت عليّ، فارتدت ثيابها، وتستَّرت بكاملها.

لقد أشعلت، الآن، المصباح. ارتدت ثوبًا. إنَّها تحجب عنِّي كل الأسرار الفاتنة التي تحجبها عن الجميع. لقد عادت إلى حداد حيائها.

إنَّها ما تزال تمنّ عليّ ببعض الحركات المبعثرة. ها هي ذي تقيس خصرها. تضع شيئًا من الحمرة على طرف أذنها، ثم تمسحه. تبتسم لنفسها في المرآة، بطريقتين مختلفتين، ثم تأخذ وضع المستاء، للحظة، إنَّها تخترع ألف حركة صغيرة لامجدية ومجدية. تكشف عن حركات لعوب، عليها، مثل حركات الحياء، مسحة من الجمال الرصين لكونها قد نفذت في الوحدة.

.. ثم، في لحظة أصبحت فيها جاهزة مدهشة التحجّب، ورنت إلى نفسها بنظرة خاطفة رائعة أخيرة، تصالبت نظرتانا.

إنَّها مستندة بإحدى يديها إلى الطاولة التي يلمع عليها مصباح لا عاكس له يحجز نوره.. وجهها ويداها تتألَّق وإشعاع المصباح الحرّ يغرق ذقنها، ودائرة وجهها، وما تحت عينيها، بهالة أشدّ ضياء.

بتّ لا أتعرَّفها، وهي تبرز من الظلّ بهذا القناع من الشمس. لكنِّي لم أر قط سرًّا من مثل هذا القرب.. إنَّني قابع هنا، مغمور بنورها، مختلجٌ بها، مضطّرب لحضورها العاري، وكأنَّني في جهل حتى الآن من أنَّها امرأة.

وكما فعلت لتوّها، ابتسمت قبل أن تنفصل عيناها عنِّي، وشعرت بالقيمة الفائقة لهذه الابتسامة وبغنى هذا الوجه..

ذهبت.. إنَّني أعجب بها، أبجّلها، أعبدها. أشعر نحوها بنوع من الحبّ لن يشوّهه شيء واقعيّ، وليس له من سبب لييأس أو ينتهي. كلّا، في الحقيقة لم أكن أعرف أنَّها امرأة.

لم تحضر للعشاء. وفي اليوم التالي غادرت المنزل.

رأيتها من جديد لحظة رحيلها. كنت واقفًا في أسفل الدرج، في عتمة الدهليز، بينما كانوا يهرعون حولها. كانت تنزل. وكانت يدها البالغة النعومة، البيضاء القفّاز، تثب على الدرابزون الأسود اللّامع، مثل فراشة. وكانت قدمها تتحرَّك إلى الأمام، صغيرة لامعة. وبدت لي أقلّ طولًا من البارحة، لكنَّها كانت تشبه بالإجمال ما كانت عليه يوم لمحتها للمرّة الأولى. كان فمها صغيرًا جدًّا حتّى لكأنَّها تصغره. وكانت مرتدية ثوبًا هفهافًا، رماديًّا لؤلؤيًّا.. كانت تمرّ، تمضي، تتبخّر، متعطّرة..

لقد لامستني. كان يمكنها أن تراني، في تلك اللحظة، لكنَّها بالطبع لم ترني، مع أنَّنا ابتسمنا ـ كلانا، في عتمة غرفتينا، ابتسامة واحدة! كانت قد صارت من جديد النور المقفل، العديم الشفقة، الذي يكون عليه الأشخاص الذين تلتقي بهم بين الآخرين. لم يكن بيننا جدار. كان بيننا المكان اللّامتناهي والزمان السرمديّ. كانت هناك قوى العالم كافّة.

على هذا النحو لمحتها بنظرتي الخاطفة الأخيرة، دون أن أفهم جيّدًا، لأنَّك لا تفهم أبدًا رحيلًا بكامله. لن أراهن ثانية أبدًا. الكثير من المفاتن ستذبل وتتبدّد. الكثير من الجمال، من الوهن العذب، الكثير من السعادة قد ضاع. كانت تهرب ببطء، نحو الحياة المتقلّبة، ثم نحو الموت الأكيد. إنَّها ماضية نحو يومها الأخير، مهما تكن أيامها.

هذا كلّ ما أستطيع أن أقوله عنها.

.. هذا الصباح، بينما كان النهار ينبسط حولي، مانحًا كلّ التفاصيل دقّة قاحلة، خفق قلبي وأنَّ. المدى، في كلّ مكان، فارغ. حين ينتهي حقًّا شيء ما، ألا يبدو أنّ كلّ شيء قد انتهى؟

لست أعرف اسمها.. ستمضي في قدرها مضيًّ في قدري. إذا كانت حياتانا قد ارتبطتا، فلن تتعرّف إحداهما الأخرى تقريبًا. يا للّيل، الآن! لكنّي لن أنسى أبدًا المساء الذي لا مثيل له الذي كنّا فيه معًا.

- ٤ -

أفكِّر، هذا الصباح، برؤية أمس الأول البالغة العظمة. لكنّي بتُّ أراها بانفعال أقلّ. لقد ابتعدت قليلًا من قلبي بمرور يوم واحد. هل ستموت دون أن أفعل شيئًا من أجلها؟

تأخذني رغبة: أن أكتب ذلك، أن أثبّت بطريقة نهائيّة جميع تفاصيل ما أحسست به، حتى لا يبدِّدها كرّ الأيام، كالغبار.

لكن سرعان ما ينسيني بياض الورق ما أريد قوله، ويأتيني انبهار عذب تمتزج به كل دقّة ذكرياتي.

أكتب، أكتب كلّ شيء، بفضل انتباه متوتّر مركّز بلا انقطاع، رغم التعب المتعاظم وراء عينيَّ. تتمشّى فيّ الحمّى. أظنّ أنَّني أعبِّر بدقّة عن واقع الأشياء. ثم أعيد قراءة ما كتبته، فإذا به كلمات ترقد أمامي.

شدّة الضيق، البساطة المأساويّة، الانسجام الكثيف والممزّق، أين هذا كلّه؟ هذه الكتابة لا تنبض حياة. إنَّها شبكة من الكلمات على الواقع. الجمل هنا، سوداء منتظمة، عبر الورق، كالسلاسل.

ما العمل كي تتجلّى الحقيقة من هذه الإشارات الميّتة؟ حاولت أن أتملّص من الصعوبة. بحثت عن التفاصيل النموذجيّة، الموحية. ولمّا تذكّرت انطباعًا شعرت به، حين لمحتها أولًا في بصيص النافذة، أردت أن ألحّ عليه. «كانت عليها ألوان من أزرق، وأخضر، وأصفر». لم يكن الأمر هكذا بالمرّة. هذه الخربشة الصبيانيّة، ليست هي الحقيقة. إنّني ألغيها.. المهم أن أصف جسمها. وقفت على ذلك دقيق جهدي، وعقدت مقارنات مع تمثال قديم؛ وحين أعدت قراءة ما كتبته، حذفت بجرّة قلم، بغضب، هذا التصحيح.

أجرّب كلمات فجّة، أعظم طاقة، على ما يخيّل إليّ، وشيئًا فشيئًا أنساب وراء اختراع التفاصيل للوصول إلى حرقة الذكرى: «كانت تتّخذ أوضاعًا داعرة..»

لا! لا! هذا ليس صحيحًا!

هذا كلّه مجرّد كلمات جامدة تستمرّ بها عظمة ما كان، دون أن تتأثّر بها. إنّها أصوات لامجدية باطلة. إنّها كنباح كلب، كهسيس الأغصان في مهب الرياح.

فتحت يدي، تركت ريشتي تتدحرج، مرهقًا بالعجز، بالهزيمة، بالجنون الكئيب.

كيف يمكن للإنسان ألّا يستطيع قول ما رآه؟ كيف يمكن للحقيقة أن تهرب أمامنا وكأنّها ليست بحقيقة؟ أو لا نستطيع أن نكون صادقين، رغم صدقنا؟ أنّك لا تُحضر إلى الوجود شيئًا، حين تناديه باسمه. الكلمات، الكلمات، إنّك لا تدري ما هي، وإن عرفتها منذ طفولتك.

ضاعت رجفتي، كآبتي، ضيقي. محكوم عليّ بأن أنسى. سيمرّون أمامي دون أن ينظروا إليّ أو دون أن يروني. لن يهتمّوا بما أستطيع أن أنطوي عليه. لا أستطيع أن أكون على الأرض إلّا مؤمنًا.

لبثت عدّة أيام دون أن أرى شيئًا. كانت هذه الأيام قارّيّة. كانت السماء، في البداية، رماديَّة ممطرة. أمّا الآن، فأيلول يلتهب في نهايته. الجمعة.. عجبًا، ها قد مضى أسبوع على وجودي في هذا المنزل!..

غرقت، بعد غداء ثقيل، نصف حالم، وأنا جالس على كرسيٍّ، غرقت في جوّ من حكايا الجنّيّات.

.. مطلّ غابة. دوائر من شمس، في قلب الدغل، على سجّادة من الزمرّد الداكن بعيدًا، في أقصى السهل، تلّ، وفوق أغصان الأشجار الملتفّة، الصفراء والخضراء ـ السوداء، جزء من جدار وبرج صغير، مخطّطان بالمربّعات، كخطوط السجّاد.. وكان يتقدّم خادم، لباسه كلباس الطير. طنين ذباب. إنَّه الصوت البعيد لصيد الملك. ستُحدث أشياء فائقة العذوبة.

في اليوم التالي، كان بعد الظهر مشمسًا متلطّيًا من جديد. تذكّرت أوقات بعد الظهر المشابهة، منذ العديد من السنين، وخيِّل إليَّ أنَّني أعيش في ذلك العصر الآفل، كأنَّ الحرارة المتوهِّجة تمحو الزمن، تخنق في بوتقتها كل شيء.

كانت الغرفة المجاورة شبه سوداء.. وكانت المصاريع مغلقة. كنت أرى، من خلال الستائر المزدوجة المصنوعة من قماش رقيق، النافذة المقطّعة بقضبان تقدح شررًا، مثل مشواة كانون نار.

كانت تتصاعد ضحكات متبدِّدة بلاجدوى في سكون البيت القارّيّ، في الوسن الرحب الحبيس. كانت أصوات تضيع، ضياعها بالأمس، ضياعها أبدًا.

من هذا اللغط البعيد ينبجس بشيء من التصنّع وقعُ أقدام. إنَّهم قادمون نحوي. أتطاول نحو هذا الصوت المتعاظم. ينفتح الباب، باهرًا، مدفوعًا، على ما يبدو، بالنور عينه، ويظهر خيالان ضئيلان، يضنيهما الوهج.

كانا يبدوان مطاردين. تردّدا عند العتبة، صغيرين، متأطّرين، ودلفا.

سمعت الباب يطبق. كانت الغرفة حيّة.

تفرّست في القادمين. ميّزتهما شيئًا فشيئًا من خلال الهالات الحمر والخضر الداكنة التي ملأت عينيَّ ببريقها الذي أحدثه دخولهما. بنيَّة وغلام فتيّ، في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة.

جلسا على الأريكة، وراحا يتبادلان النظرات دون أن يتفوّها بشيء، بوجهيهما شبه المتماثلين.

ارتفع صوت أحدهما وهمس:

ـ أنت ترين أنَّه لا يوجد أحد.

وأشارت يد إلى السرير الخالي من الشراشف، والمشاجب العارية من الملابس، والطاولة القاحلة: التخريب المدروس للغرف غير المسكونة.

ثم أخذت هذه اليد، تحت نظري، ترتجف كورق الشجر. كنت أسمع خفقات قلبي. وتعالى خرير الصوتين: نحن بمفردنا.. لم يرونا.

إنَّهما يريدان، مثل جميع الكائنات، مثلي أنا، مثلنا نحن، ما لا يملكانه، إنَّهما يتسوَّلان. لكن إنَّما نفسهما يسألان الإحسان، ومن حضورهما، من شخصيهما يطلبان النجدة.

أمَّا هو، الذي بلغ مدارك الرجال من الآن، فيمدّ ذراعيه الغريزيّتين الخرقاوين، إليها، إلى هذا الرفيق الأنثوي الذي أفقره، شدّه، جذبه إليه، دون أن يجرؤ على النظر إليها.

أمَّا هي التي أضحت امرأة من الآن، فقد ألقت إلى الخلف، على المسند، بوجهها اللامع العينين، الممتلئ، الورديّ، الذي صبغه وأدفأه قلبها. جلد عنقها، الأطلس المشدود، يختلج. بين وجهها وصدرها، نقطة

نبضها الثمينة الرقيقة. إنَّها لتبدو، وهي نصف مغلقة، منتبهة، ملتذّة قليلًا بما ينبع منها من لذّة، كوردة سكرى بأنفاسها. إنَّني لأرى حتى ركبتيها ساقيها الناحلتين، بجوربيهما الأصفرين، تحت الثوب الذي يغلِّف جسدها فيبدو هذا الجسد كباقة.

وأمَّا أنا، فلم أكن أستطيع أن أفصل عينيَّ عن حركاتهما، وكنت أنهل من هذا المشهد، ووجهي ملتصق بمجموعهما كمصَّاص دماء.

تمتم، بعد صمت طويل:

ـ أتريدين أن نتخاطب بضمير الجمع؟

ـ لماذا؟

كان يبدو مستغرقًا في جهد من الانتباه. وأخيرًا قال:

ـ لنعاود.

وردَّد:

ـ هل تريدين[1].

وارتعدت ارتعادًا ظاهرًا للعيان عند احتكاكها بهذا الشكل الجديد من عبارته، وكأنَّها ترتعد للقبلة الأولى في حياتها.

وغامرت:

ـ لكأنَّه شيء يلبسنا ونخلعه..

وازدادت جرأته الآن:

ـ أتريدين أن أقبِّلك على فمك؟

لم تستطع، لحرجها، أن تبتسم ابتسامة كاملة.

وقال:

(١) العبارة بضمير الجمع، الذي يستعمل في الفرنسية للتفخيم (المترجم).

ـ أريد.

تعانقت أذرعهما، أكتافهما، ومدّا شفاههما متناديين بصوت عذب، وكأنَّ فميهما عصفوران.

ـ جان..

ـ هيلين..

كان هذا أوّل شيء يكتشفانه. أن تقبّل من يقبّلك، أليست هذه أنعم مداعبة حنون وأوثق رباط ممكن: ثم إنَّ هذا محرّم أعظم التحريم!..

خُيِّل إليَّ للمرّة الثانية أن اتّحادهما ليس له عمر. كانا يشبهان جميع العشّاق، بينما كانت أيديهما متماسكة، ووجهاهما متعانقين، يرتعدان وينبهران، في ظلّ القبلة.

بيد أنَّهما توقّفا، تراجعا عن المداعبة التي لا يعرفان بعد كيف يمارسانها.

تكلّما، بفميهما اللذين ما زالا على براءتهما. عمّ؟ عن الماضي، عن ذلك الماضي القريب غاية القرب، القصير غاية القصر.

كانا يخرجان من فردوس الطفولة والجهل. تكلّما على بيت وحديقة عاشا فيهما كلاهما.

كان ذلك البيت يشغل اهتمامهما. كان محاطًا بحائط بستان، بحيث لا يُرى منه إلَّا أعلى سطحه، ولا يُرى ما يحدث فيه.

تمتما:

ـ الغرف، حين كنّا صغارًا وكانت كبيرة..

ـ كان المشي فيها أقل تعبًا من أيّ مكان آخر.

من يسمعهما، يحسب أنَّه كان بين تلك الجدران شيء أمين ولا مرئيّ، منتشر في كلّ مكان. شيء ما كالإله الرحمن في الأيّام الماضية..

ودندندت بلحن سمعته من هناك، وقالت إنّ تذكّر الموسيقى أسهل من تذكّر الأشخاص.

كانا قد سقطا من جديد في الماضي بسبب خفّة وزنهما الطبيعيَّة. كانا يتقوقعان في الذكرى، مرتجفين. في ذلك اليوم، عشيَّة السفر، تجوَّلتُ بمفردي، وفي يدي مصباح، في الشقّة التي كانت على وشك اليقظة لتنظر إليّ وأنا أمرّ..

لا يفكِّر الإنسان، في الحديقة العاقلة والمعتنى بها، إلّا بالأزهار، ولا يفكِّر كثيرًا بأشياء أخرى سواها. إنَّه ينظر ويرى الغدير، والممرّ الظليل، وشجرة الكرز التي أزهرت كثيرًا في الشتاء، حين كانت أرض البستان بيضاء.

لقد كانا، بالأمس، في هذا البستان، كأخ وأخت. أمّا الآن، فيبدو أنّ الحياة قد أصبحت فجأة جدّيَّة، فباتا لا يعرفان كيف يلعبان. كنت أراهما يريدان قتل الماضي. حين تكون هرمًا تتركه يموت، أمّا حين تكون شابًّا وقويًّا، فتقتله..

انتصبت، وقالت:

ـ لا أريد بعد الآن أن أتذكَّر.

وقال:

ـ لا أريد بعد الآن أن يشبه أحدنا الآخر. لا أريد بعد الآن أن نكون أخوين.

وشيئًا فشيئًا، انفتحت عيونهما. وهمس راجفًا:

ـ ألَّا نتلامس إلَّا بالأيدي!

ـ أن نكون أخوين، هذا لا شيء.

لقد جاءت الساعة، ساعة القرارات العذبة المقلقة والثمار المحرّمة. لم يكن أيٌّ منهما، في السابق، ملك نفسه. لقد جاءت الساعة التي يهتمّان فيها باستعادة نفسيهما كاملتين ليصنعا من ذاتيهما ما يشاءان.

ولقد سبق وتملّكهما شيء من الخجل والوعي لنفسيهما.

منذ عدّة أيّام، عند المساء، شعرا بلذّة كبيرة في أن يعصيا أهلهما ويخرجا من البستان رغم تحريم ذلك عليهما.

ـ جاءت جدّتي، من أعلى الدرج، الرماديّ كلّه، تنادينا لندخل..

«لكن مضينا كلانا. اخترقنا السياج من المكان الذي يغرّد فيه عادة طير، حيث توجد ثلمة. لا ريح، ولا ضوء تقريبًا. كانت غصون الأشجار ساكنة، رغم حساسيّتها. وكان الغبار، على الأرض، ميّتًا. وغلّفنا الظلّ بغسقه، بعذوبة كبيرة، حتى كدنا نكلّمه. كنّا خائفين ونحن نرى الليل يرخي سدوله. كانت الأشياء قد باتت بلا لون، ولم يبق إلّا القليل من الضياء في الظلام. كانت الأزهار، والطريق، وحتى السنابل بلون اللجين.. وكانت المرّة التي قرّبت فيها من فمك أكثر ما قرّبت».

قالت، وروحها محلّقة في تدفُّق من الجمال:

ـ اللّيل، اللّيل يداعب المداعبات..

ـ تناولتُ يدكِ، وفهمت أنَّك تعيشين بكاملك.

«في السابق، كنت أقول «ابنة عمي هيلين»، لكنّي لم أكن أعرف ما أعرِّف بكلامي على هذا النحو. أمّا الآن، فحين أقول: هي، فهذا يعني كل شيء..».

ومن جديد، اتّحدت شفاههما. كان فماهما وعيونهما فمي آدم وحوّاء وعيونهما. وتذكَّرت مثال الأجداد اللّامتناهي الذي يتدفَّق منه التاريخ المقدّس والتاريخ البشريّ وكأنَّه نبع. كانا يطوفان في ضياء الفردوس النافذ، دون أن يعرفا شيئًا. لقد كانا وكأنّهما غير كائنين، وحين علما بالسرّ على أثر انتصار الفضول الذي حرَّمه اللّـه بنفسه واكتشفا

الانفصال المدغدغ، وأدركا إرادة الجسد الكبيرة. أدلهمّت السماء، وسقط عليهما يقين مستقبل من الألم، وطردتهما ملائكة كالنسور، وتدحرجا على الأرض، بين ليلة وضحاها، لكنّهما كانا قد اكتشفا الحبّ، ووجدا بدل الغنى الإلهي فقرهما بأن يكون أحدهما للآخر.

أخذ الطفلان الصغيران مكانهما في المأساة الأزليَّة. إنَّهما يتكلّمان، ويعيدان للمخاطبة كلّ أهمّيَّتها المكتسبة:

ـ أريد أن أحبّك أكثر.. أريد على الأخصّ أن أحبّك حبًّا أقوى، لكن لست أدري كيف.. أريد أن أؤلمك لكن لا أعرف كيف!

لقد باتا يقولان شيئًا، وكأنَّه لم تعد بينهما كلمات. إنَّهما على شفة نفسيهما، وإنَّني لألمح أيديهما ترتجف فيما بينهما.

إنَّهما يخضعان لإيحاء أيديهما هذا. يتجسَّسان طريقهما إلى السعادة الغريبة المأساويَّة، إلى الغلطة السعيدة التي ترتكب في الوقت نفسه، إلى العناق الذي يجعل من كائنين اثنين يعاودان الحياة، متَّحدين اتّحادًا صميميًّا، ككائن واحد لا شكل له.

لم أكن أراهما بوضوح.. خُيّل إليَّ أنَّه وضع يديه عليها، بينما كانت تنتظر، تنتظر، متألّقة العينين. خُيّل إليَّ أنَّه نصف عار، في الظلّ المحرق الذي يحتضنهما، وأنَّ عريه قد بزغ من بين الملابس المبعثرة، المتنافرة.. زهرة غريبة، عميقة، متّحدة بأحشائه، وجسده كلّه، وقلبه، هي بينهما سرّ حيّ، كمعجزة، كطفل..

.. لا ريب في أنَّه رفع ثوبها، لأنَّني التقطت هذه العبارة التي فاه بها بصوت خافت، مضطّرب، مخنوق، مذبوح، في الصمت الرهيب:

ـ هذا فمك الحقيقي.

وكنت أنا أختلج فوقهما، بينما كان حبٌ للحقيقة فظيع، حبّ عظيم، يمزّق جسمي على الجدار.. ولكأنَّ هذا اللّهاث كان يحرقهما، يذعرهما، فخافا، ونهضا. لقد انتهى الأمر. كانت المغامرة المؤلمة التي بدأت تحت نظري، صدفة، تستمرُّ في مكان آخر، وتنتهي في مكان آخر.

ما كادا ينهضان حتى انفتح الباب. الجدّة العجوزة هنا، تنحني. إنَّها قادمة من عالم رماديّ، من عالم الأشباح، قادمة من الماضي. إنَّها تبحث عنهما وكأنَّهما تاها. تناديهما بصوت خافت.. وبصدفة عجيبة تنسجم مع حضورهما، وضعت في لهجتها عذوبة لامتناهية من الحزن

ـ يا للمعجزة!

ـ أنتما هنا، يا ولديّ.

وقالت بضحكة صغيرة صافية، دونما فكرة مسبقة:

ـ ماذا تفعلان هنا إذن؟.. تعالا، إنَّهم يبحثون عنكما.

إنَّها عجوز، ذاوية. لكنَّها ملائكيَّة، بثوبها الذي يغطّيها حتى عنقها. لقد أصبحتْ من الآن فصاعدًا إلى جانبهما، هما اللذان يستعدّان للحياة اللّامحدودة، مثل طفلة: ساكنة، لامجدية..

يرميان بنفسيهما بين ذراعيها، يرفعان جبينهما إلى فمها المقدّس المهجور. يبدو أنَّهما يودّعانها وداعًا أبديًّا.

انصرفتْ. بعد هنيهة، انصرفا بدورهما، بعجلة كما قدِما: توحّد بينهما رابطة الشرّ اللّامرئيَّة الرائعة. توحّد بينهما إلى حدّ باتا معه لا يتماسكان باليد كما دخلا. لكنَّهما، عند العتبة، نظر كلّ منهما إلى الآخر.

وبينما كانت الغرفة كمعبد، كنت أفكّر بنظرتهما، بأوّل نظرة حبّ لهما رأيتها.

لم يستطع إنسان، قبلي، أن يرى نظرة أولى. كنت إلى جانبهما، لكن بعيدًا عنهما. كنت أفهم وأقرأ، دون أن أغرق في دوّامة العمل، ودون أن أتيه في الإحساس. ولهذا شاهدت تلك النظرة. أمّا هما فلا يعرفان متى بدأت، لا يعرفان ما معنى النظرة الأولى. وفيما بعد سينسيانها. إنَّ تقدّم قلبيهما العاجل سيهدم هذه التباشير. إنَّ الإنسان لا يعود يعرف نظرته الأولى كما يستطيع معرفة نظرته الأخيرة.

سأتذكَّر يوم لا يعودان، هما، يذكران.

أنا لا أذكر نظرتي الأولى، هبتي الأولى للحبّ. لكن ذلك حدث. لقد اندثرت من ذاكرتي هذه السذاجة الإلهيَّة. ومع ذلك، يا إلهي، أيّ شيء تبقَّى عندي يعادلها! إنَّ الكائن الصغير الذي كنته قد مات كلّه تحت نظري. لقد بقيت بعده على قيد الحياة، لكنَّ النسيان عذَّبني، غلبني، ودمّرني حزن الحياة، ولا أعرف تقريبًا ما كان يعرفه. إنَّني لا أذكر أيّ شيء كان، من قبيل الصدفة، لكنَّ الأجمل والأعذب غارق في العدم.

حسنًا، إنَّ هذا النشيد العظيم الحنان الذي استمعت إليه، المليء باللّامتناهي والطافح بالبسمات الجديدة، هذا الغناء الثمين، إنَّني آخذه، إنَّه لي، إنَّني أحتفظ به، إنَّه يختلج فوق قلبي. لقد سرقت، لكنِّي أنقذت شيئًا من الحقيقة.

- ٥ -

بقيت الغرفة خاوية، طوال يوم. وأشرقت، مرّتين، بأمل كبير، آل إلى خيبة.

كان الانتظار قد أصبح عادتي، مهنتي. أجّلت مواعيد، أخّرت معاملات، كسبت وقتًا، مجازفًا بوظيفتي. نظّمت حياتي وكأنّي على عتبة حبّ جديد. بتُّ لا أترك الغرفة إلّا لأنزل إلى مائدة المضيف، حيث لم أعد أجد تسلية في أيِّ شيء.

في اليوم التالي، رأيت أنَّ الغرفة قد أعدّت لاستقبال نزيل جديد. كانت تنتظر. حلمت ألف حلم عمّا سيكون هذا الضيف، بينما كانت الغرفة تحتفظ بسرّها كشخص يفكّر.

جاء الغسق، ثمّ المساء، الذي زاد في حجمها دون أن يغيّرها، وكان اليأس قد أخذ يدبّ إلى نفسي، حين دار الباب في الظلّ، ولمحت، على العتبة، شبح رجل.

كان لا يكاد يتميّز من المساء.

ملابس سود أو مائلة إلى السواد. أكمام حليبيَّة الشحوب تتدلّى منها يدان رماديّتان معروقتان. قبّة أنصع بياضًا من سائر ملابسه. وجهه المدوّر الأشهب محفور بثقوب المحجرين والفم المعتمة. تحت ذقنه، حفيرة من الظلّ. ذهب الجبين مبهم البريق. الوجنة محفوفة بخطٍّ داكن. لكأنَّه هيكل عظميّ. مَنْ هو هذا المخلوق الذي تدلّ سيماؤه على هذه البساطة الفظيعة؟..

اقترب، دبّت الحياة فيه. رأيت أنَّه جميل.

كان له وجه فاتن وجدّي، محاط بلحية سوداء ناعمة، لامع العينين، شامخ الجبين. وكان في حركاته أناقة مترفِّعة توجّهها وتخفِّف من ثقلها.

كان قد تقدَّم خطوتين. ثم استدار نحو الباب الذي ظلّ منفرجًا. ارتجف ظل هذا الباب، ارتسم عليه خيال وجه، ثم تجسّد. انقبضت يد صغيرة في قفَّاز أسود على المصراع، وأطلَّت امرأة على الغرفة، في وجهها استفهام.

لا بدّ أنَّها كانت على بعد عدّة خطوات وراءه في الشارع، ولم يرغبا في الدخول معًا إلى الغرفة التي التجأ إليها كلاهما للإفلات من مطاردة ما.

دفعتِ الباب. استندتْ بكلّ جسمها إلى المصراع الذي أعادت غلقه، لتسدّه أكثر أيضًا بحياتها. وببطء أدارت رأسها نحوه، وقد شلّها الذعر لحظة، على ما بدا لي، من ألّا يكون «هو».. وتفرَّس كلّ منهما في وجه الآخر. وكانت بينهما صيحة مهووسة مكتومة، شبه خرساء، انتقلت من أحدهما إلى الآخر، وكأنَّه انفتح بها جرحهما المشترك.

ـ أنت!

ـ أنت!

كانت خائرة القوى تقريبًا. وتهالكت على صدره، وقد ألقت بها عليه عاصفة.

كان لها من القوّة ما يكفي لتأتي وتسقط بين ذراعيه. ورأيت يديْ الرجل الكبيرتين الشاحبتين، مبسوطتين، متشنّجتين، مستندتين إلى ظهر المرأة. واستولى عليهما نوع من اختلاج يائس، ولكأنَّ في الغرفة ملاكًا عريض الجناحين يتخبّط ويسعى عبثًا إلى الهرب إلى ما لا نهاية. وكان يخيَّل إليَّ أنَّ الغرفة صغيرة على هذا الزوج، رغم أنَّها مليئة بالمساء.

يا له من دخول، يا له من دخول!

يا لهجوم اللعنة!

لقد حسبت، حين فرضت فكرة الزنى نفسها أمام عينيّ، حين ظهرت المرأة على العتبة، وقد بدا عليها أنَّها طريدة تسعى إليه، حسبت أنَّني سأشهد فرحًا ورعًا لا يخلو من جمال في امتلائه، فرحًا وحشيًّا وحيوانيًّا، مهمًّا كالطبيعة. لكنّ هذه المقابلة كانت تشبه على العكس، وداعًا ممزَّقًا.

ـ أسنخاف إذن دومًا؟..

قالت هذا، ولمّا تكد تهدأ بعد، وهي تنظر إليه قلقة، وكأنَّه سيجيب حقًّا.

ارتعدت، منكمشة في الظلمات، وهي تشدّ وتضغط بيدها ضغطًا محمومًا على يد الرجل، وقامتها منتصبة، وذراعاها متخشّبتان. كنت أرى صدرها يعلو ويهبط كالبحر. كانا يتماسكان، يتلامسان. لكن كانت بقيَّة من الذعر تمنع المداعبات بينهما.

ـ دومًا خوف.. دومًا خوف.. دومًا.. بعيدًا عن الشارع، بعيدًا عن الشمس، بعيدًا عن كلِّ شيء.. أنا التي أردت من كلِّ قلبي مصيرًا من نور وضياء ساطع!

قالت ذلك، وهي تنظر إلى السماء. وكان جانب وجهها يكتسي بلون لازورديّ، بينما كانت هذه الكلمات تتطاير.

إنَّهما خائفان. الخوف يكوِّنهما، يطبعهما. أعينهما، أحشاؤهما، قلباهما، خائفة، حبّهما، على الأخص، خائف.

.. انسابت ابتسامة متجهّمة على وجه الرجل. وحدّق إلى صديقته وتمتم:

ـ أنتِ تفكّرين به..

كانت قبضتاها الآن على خدّيها، وهي مستندة إلى ركبتيها، ووجهها ممدود إلى الأمل، ولم تجب.

أجل، كانت تنظر إلى بعيد، نحو من ليس هنا، وهي على أحرّ من الجمر، منكمشة، صغيرة كطفلة.

كانت تحني كتفيها أمام هذه الصورة، وكأنَّها تتوسّل إليها بإشاحتها عينيها، وتتلقّى منها انعكاسًا إليها. من ليس هنا، من تخدعه ومن هو موجود. المهان، الجريح، المسيطر. من هو في كلّ مكان إلّا حيث هما، من يحتلّ لانهائيّة الخروج ومن تطأطىء رقبتهما له. من يطاردهما كفريسة.

كان الليل يرخي سدوله، وكأنَّ العار والذعر ما يزال يخيِّم على هذا الرجل وهذه المرأة اللذين جاءا يخفيان عناقهما القلبي في هذه الغرفة كما لو في قبر تحيا فيه الآخرة.

قال لها: ـ أحبّك!

سمعت بوضوح هذه العبارة الكبيرة: أحبّك! لقد ارتعدت طوال حياتي وأنا أتلقّف الكلمة العميقة التي خرجت من هذين الكائنين اللذين كادا أن يمتزجا من الآن. أحبّك! الكلمة التي تقدّم القلب والجسد، صيحة الخليقة والخلق الكبيرة المفتوحة: أحبّك، إنَّني أرى الحبّ وجهًا لوجه.

ثمَّ خُيِّل إليَّ أنَّ الصدق يتبخّر في الكلمات المستعجلة، المتنافرة، التي أخذ يلفظها وهو يقترب وينساب فوقها. لكأنَّه يريد أن يتخلَّص من الجمل الضروريَّة، ويستعجل غريزيًّا، ما استطاع، أن يصل إلى المداعبات:

ـ لقد خُلق أحدنا للآخر، أترين.. يوجد بين روحينا إخاء لا بدّ، حتمًا، أن ينتصر. لن يمكنهم منع شفاهنا من الاتّحاد في اللحظة التي تتقارب فيها، كما لم يستطيعوا منعنا من أن نتعارف ونكون ملكًا لبعضنا بعضًا. ما تهمُّنا المواضعات الأخلاقيَّة، والفوارق الاجتماعيَّة.. إنَّ حبّنا مخلوق من اللّانهاية والأبديَّة.

قالت، يهدهدها صوته: أجل.

لكنّي سمعت، أنا من كان يصغي إليهما بعمق، أنَّه يكذب أوَ أنَّه يضيع بين الكلمات.. كان الحبّ يصبح صنمًا، شيئًا. كان يجدِّف، ويذكر عبثًا اللّانهاية والأبديَّة اللتين يجلّهما بطرف شفتيه وبصلاته اليوميَّة التي اهترأت اهتراء.

تركا الكلام المبتذل وشأنه.. هزّت المرأة برأسها، بعد أن مكثت مُطرقة لمدَّة وجيزة، وفاهت بكلمة التبرير، والتمجيد. وأكثر من ذلك: كلمة الحقيقة:

ـ كنت تعيسة جدًّا..

بدأت:

ـ كم مضى على ذلك من زمن طويل..

كان ترديدها هذه القصّة لنفسها، بصوت خافت ومتلاحق كأنَّها في كرسيّ الاعتراف، رائعتها الفنّيَّة، قصيدتها، صلاتها.. وكان واضحًا أنَّها تتوصّل إلى ذلك، بكلّ عفويّة، ودون تمهيد، لشدّة ما كان ذلك يسيطر عليها في اللّحظات التي يكونان فيها بمفردهما.

.. كانت بسيطة الثياب. فقد خلعت قفّازها الأسود، وسترتها، وقبّعتها. وكانت ترتدي تنّورة داكنة، وقميصًا أحمر تتألّق عليه سلسلة ذهبيّة.

كانت امرأة في الثلاثين، ذات تقاطيع متناسقة، وشعر من حرير معتنى به. وكان يُخيّل إليّ أنّني كنت أعرفها أو أنّني لن أعرفها.

أخذت تتكلّم عن نفسها بصوت عال، وتحيي ماضيًا لامتناهي الثقل.

ـ أيّ حياة أعيشها! أيّ رتابة! أيّ فراغ! المدينة الصغيرة، البيت، الصالون، والأثاث المصفوف هنا وهناك، دون أن يغيّر مكانه وكأنّه حجارة قبر.. ذات يوم، حاولت أن أغيّر من وضع الطاولة التي تتوسّط الغرفة. فلم أفلح.

شحب وجهها، ازداد ضياؤه.

كان يصغي إليها. تطوف على وجهه ذي التقاطيع الدقيقة، ابتسامة صبر واستسلام، سرعان ما تحوّلت إلى ابتسامة سأم متألّم قليلًا. آه! كان حقًّا جميلًا، وإن كان باعثًا على بعض الخيبة، بعينيه الواسعتين اللّتين توحيان بأنّهما معبودتان، وشاربه المتهدّل، وسيمائه العذبة البعيدة. كان يبدو كأنّه واحد من تلك الكائنات الوديعة، التي تبالغ في التفكير، وتقترف الشرّ. كان يبدو متعاليًا على كلّ شيء وقادرًا على كلّ شيء.. غائبًا قليلًا عمّا كانت تقوله، لكنّه متوتّر بالرغبة فيها، فكان كمن ينتظر.

.. وعلى حين غرّة، تمزّقت الأحجبة أمام عينيّ، وبدت الحقيقة عارية أمامي: رأيت أنّ بين هذين الكائنين فرقًا لا حدود له، بل اختلافًا لامتناهيًا، تروّع رؤيته، من شدّة عمقه، لكنّه مقبض إلى حدّ أدمى قلبي.

لم تكن تدفعه إلّا رغبته فيها. أمّا هي فلم تكن تدفعها إلّا حاجتها للانفلات من حياتها. لم تكن أمانيهما واحدة. كان يبدو عليهما أنّهما متّحدان، لكنّهما لم يكونا كذلك.

كانا يتكلّمان اللّغة نفسها. وحتى عندما كانا يقولان الأشياء نفسها، كانا لا يتفاهمان تقريبًا. وبدا لي اتّحادهما، من اللّحظات الأولى هذه، أكثر تفكُّكًا مما لو كانا لا يعرف أحدهما الآخر.

أمَّا هو، فكان لا يقول ما يفكِّر به. كان هذا محسوسًا من جرْس صوته، من سحر لهجته، من انتقائه الموسيقي للكلمات. كان يهدف أن ينال إعجابها، وكان يكذب. كان تفوُّقه عليها ظاهرًا، لكنَّها كانت تسيطر عليه بنوع من الصدق العبقري، وفي حين أنَّه كان سيِّد كلماته، كانت تهب نفسها في كلماتها.

.. كانت تصف جوّ حياتها السابقة.

ــ من نافذة غرفتي ونافذة الطعام، كنت أرى الساحة، تتوسّطها العين، بظلّها القابع عند قدميها. كنت أشاهد النهار يدور هناك، في تلك الساحة الصغيرة، البيضاء المستديرة، وكأنَّها مزولة.

«.. كان الساعي يجتازها بانتظام دون تفكير. وكان، أمام باب الترسانة، جنديّ لا يفعل شيئًا.. وكانت تقفر من كلّ إنسان حين كانت الساعة تدقّ الثانية عشرة ظهرًا كناقوس حداد. إنَّني لأذكر على الأخص ناقوس الظهر: منتصف النهار، منتصف الملل.

«لم يكن يحدث لي شيء، لم يكن يحدث لي شيء، لم يكن لي شيء. كان المستقبل قد مات بالنسبة لي ولو كانت أيامي ستستمرّ على ذاك المنوال، لما حال شيء بيني وبين الموت. لا شيء. آه! لا شيء، الملل هو الموت. كانت حياتي ميّتة، بيد أنَّه كان عليّ أن أعيشها. كانت انتحارًا. البعض يضع حدًّا لأيامه بمسدس أو بسمّ، أمّا أنا فكنت أنتحر بالدقائق والساعات».

ــ إيميه!

قالها الرجل.

ـ آنذاك، لكثرة ما رأيت الأيام تولد صباحًا، وتُجهض مساء، خفت من الموت، وكان هذا الخوف هواي الأوّل.. وغالبًا ما كنت أرتعدُّ أملًا بسبب هذا الهوى، أثناء قيامي بزيارات، أو ليلًا، أو أثناء عودتي إلى البيت، بعد سير طويل، بحذاء حائط دير الراهبات!..

«ولكن من كان سينتشلني من تلك الحال؟ من سينقذني من ذلك الغرق اللّامنظور، الذي لا أتبيّنه أنا نفسي إلّا من حين لآخر؟ كانت الحال حولي أشبه بمؤامرة محبوكة من الحسد، من الخبث، من اللّاشعور.. كان كلّ ما أراه، كل ما أسمعه، يحاول أن يلقي بي على الطريق المستقيم، على طريقي المستقيم البائس.

«.. كانت السيّدة مارتيه، كما تعلم، وهي صديقتي الوحيدة المقرّبة إليّ بعض الشيء، والتي تكبرني بعامين فقط، كانت تقول لي إنّه يجب على الإنسان أن يقنع بما لديه. وكنت أجيبها: «إذن، كلّ شيء انتهى، إذا قنع الإنسان بما لديه، ولا يعود للموت من دخل. ألا ترين إذن أنَّ هذه الكلمة تنهي الحياة؟.. أتؤمنين فعلًا بما تقولين؟». فكانت تجيب أن نعم. آه! يا لها من امرأة قذرة!

«لكن لم يكن يكفيني أن أكون خائفة، كنت بحاجة لكراهية هذا السأم. كيف تملّكتني هذه الكراهية؟ لست أدري.

«بتُّ لا أتعرّف نفسي، لم أعد نفسي، لشدّة حاجتي إلى شيء آخر. بل لقد صرت أجهل اسمي.

«وكان يوم، على ما أذكر، حلمت فيه بتلذّذ (رغم أنّي لست بشرّيرة) أنّ زوجي قد مات، زوجي المسكين الذي لم يفعل لي شيئًا، وأنّني أصبحت حرّة، حرّة، وكبيرة كبر العالم!

«لم يكن من الممكن أن تدوم هذه الحال. لم أكن أستطيع أن أكره لمدّة طويلة، وإلى هذا الحدّ، الرتابة، الحطام، والعادة. أوّاه! إنّها من بين جميع الظلال أكثرها حقيقيّة، والليل ليس بليل إن قورن بها.

«الدين؟ ليس بالدين تملأ فراغ أيّامك، بل بحياتك الخاصّة. أن ينبغي عليّ ألا أناضل ضدّ معتقدات، ضدّ أفكار، بل ضدّ نفسي.

«عندئذ، وجدته، ذلك الدواء!».

كان صوتها أشبه بصياح، أبحّ، مذهل:

ـ الشرّ، الشرّ! الجريمة ضدّ السأم، الخيانة لتحطيم العادة. الشرّ لأكون جديدة، لأكون امرأة أخرى، لأكره الحياة أكثر مما تكرهني، الشّر كي لا أموت!

«التقيت بك. كنت تكتب أشعارًا وتؤلّف كتبًا. كنت مختلفًا عن الآخرين، وكان لك صوت راجف موحٍ بالجمال، وكنت على الأخصّ ههنا، في وجودي، تجاهي. لم يكن عليّ إلّا أن أمدّ ذراعي. آنئذٍ، أحببتك بكلّ قواي، ويمكن أن نسمّي هذا حبًّا يا صغيري المسكين!».

كانت تتكلّم الآن بصوت خافت، سريع، مهموم ومتأجّج، وكانت تلعب بيد رفيقها وكأنّها تلعب بشيء صغير.

ـ وأنت أيضًا، أحببتني طبعًا.. وحين دلفنا ذات مساء إلى الفندق ـ للمرّة الأولى ـ خيّل إليّ أنّ الباب انفتح من تلقاء نفسه، وحمدت نفسي على أنّني تمرّدت ومزّقت قدري كما لو أنّني أمزّق ثوبًا.

«ومذّ ذاك! الكذب ـ الذي قد تتألّم منه أحيانًا لكنّك تكفّ عن بغضه حين تفكّر ـ المجازف، الأخطار التي تهب الساعات طعمها، التعقيدات التي تغني الحياة. هذه الغرف، هذه المخابىء، هذه السجون السوداء، التي سمحت للشمس التي كانت لي بالتحليق!

وهتفت: «آه!».

خُيِّل إليَّ أنّها تنهّدت، وكأنّه لم يعد أمامها، بعد أن تنهَّدت، شيء بمثل هذا الجمال.

استجمعت نفسها، وقالت:

ــ هذا ما نحن عليه.. أوّاه لعلّني اعتقدت أيضًا، في حينه، بأنّني وقعت صريعة الحبّ من النظرة الأولى، يشدّني انجذاب فائق الطبيعة محتّم، بسبب شعرك. لكنّي، في الحقيقة، جئت إليك ــ أرى ذلك الآن جيِّدًا ــ مطبقة القبضتين، مغمضة العينين.

وأضافت:

ــ الكذب كثير حول الحبّ. إنّه ليس تقريبًا ما يقال عنه.

«لعلّ هناك جاذبيّات عظيمة بين الرجال والنساء. أنا لا أقول إنَّ مثل هذا الحبّ لا يمكن أن يوجد بين كائنين. لكنَّنا لسنا بهذين الكائنين. نحن لم نفكّر قطّ إلّا بنفسينا. أعلم جيِّدًا أنَّني أحببت نفسي معك. وكذلك أنت. إنَّ عندك ميلًا ليس عندي، ما دمت لا أحسّ بلذّة. وكما ترى، نحن نعقد مساومة، فأحدنا يمنح الآخر أحلامًا، والثاني متعة. هذا كلّه ليس من الحبّ في شيء».

بدرت منه حركة، حركة شكّ أو احتجاج. كان لا يريد أن يتكلّم. ومع ذلك، لفظ بوهن:

ــ هكذا الحال دومًا. لا يستطيع الإنسان أن يخرج من ذاته، حتى في أنقى حبّ في العالم.

فقالت منتفضة انتفاضة احتجاج ورع، فاجأتني حدّته:

ــ أوّاه! ليس هذا على كلّ حال شيئًا واحدًا. لا تقل هذا. لا تقل هذا!

خُيِّل إليَّ أنَّ لهجتها كان يسودها الأسى، وأنَّ في نظرتها حلمًا بحلم جديد.

وبدّدت هذا بهزّها رأسها.

ـ لكم كنت سعيدة! كنت أجد نفسي وقد عاد إليَّ الشباب والجدّة. إنَّني بتُّ لا أجرؤ على إظهار طرف قدمي خارج ثوبي: كنت أشعر حتى بالحياء من وجهي، من يدي، من اسمي..

آنذاك، استأنف الرجل الاعتراف من النقطة التي قطعته فيها وتكلَّم على أيّام اتّحادهما الأولى. كان يريد أن يداعبها بكلمات، أن يأخذها شيئًا فشيئًا بالجمل، أن يطوّقها بقوّة الذكريات. ـ في أوّل مرّة كنّا فيها وحيدين..

فنظرت إليه. قال:

ـ كان ذلك في الشارع ذات مساء. أخذت ذراعك. رحت تتَّكئين أكثر فأكثر عليّ. أحسست شيئًا فشيئًا بكلّ ثقل جسمك، وشعرت بجسدك المتعاظم. كان العالم يتكاثر، لكنَّ وحدتنا كانت تبدو وكأنَّها تنتشر. كان كلّ شيء حولنا ينقلب إلى صحراء بسيطة، بسيطة.. كان يُخيَّل إليّ أنّنا أخذنا كلانا نسير فوق البحر.

قالت:

ـ آه! ما كان أطيبك! لم يكن لك، في مسائنا الأوّل، ذاك الوجه نفسه الذي صار لك فيما بعد، حتى في أروع اللحظات.

ـ كنّا نتحدَّث عن أشياء وأشياء. وبينما كنت أضمّكِ إليّ، بشدّة، كالأزهار، كنتِ تحدّثينني عن الناس الذين نعرفهم، وتكلّمينني عن شمس النهار ورطوبة المساء. لكنَّك كنت تقولين لي في الحقيقة إنَّك قادمة إليّ.. كنت أحسّ بكلمات الاعتراف من خلال كلماتك، وإذا كنتِ لا تقولينها لي، فقد كنتِ تهبينني إيَّاها.

«آه! ما أكبر أشياء البداية! ليس من صَغار البتّة في البدايات..

«ذات مرّة التقينا في البستان، وبينما كنت أقودك في نهاية الأصيل، عبر الضواحي.. كان الطريق هادئًا وصامتًا جدًّا حتّى لكان يبدو أنَّ خطانا تزعج الطبيعة كلّها. كان الحنان الساكن يبطئ سيرنا. وانحنيت وقبّلتك.

قالت:

ـ هنا.

ووضعت أصبعها على عنقها. وأضاءت هذه الحركة عنقها كما لو أنّها شعاع.

ـ شيئًا فشيئًا، أصبحت القبلة أكثر عمقًا. دارت حول شفتيك، توقّفت عليهما: في المرّة الأولى أخطأت، وفي الثانية تظاهرت بالخطأ.. وأحسست شيئًا فشيئًا تحت فمي.

وتكلَّم بصوت خافت جدًّا:

ـ بفمك ينفرج، ينفتح..

فحنت رأسها، ورأيت فمها برعمًا من الورد والندى. وتنهّدت، راجعة، إلى شاغلها الحزين العذب:

ـ كان هذا كلّه جميلًا للغاية، وسط المراقبة التي كانت تحبسني!..

لكم كانت بحاجة، عن وعي أو لا، لإثارة الذكرى! كان ذكر المآسي والأخطار القديمة يبسط حركاتها، يعيد بناء حبّها. وإنّما لهذا السبب تكلّمت عن كلّ ما فيها.

وكان هو يدفعها نحو الجنون العذب. كانت الحماسة الأولى تولد من جديد، وراحت الآن كلماتها تسعى وراء أكثر الذكريات توتّرًا قبل أن تتحوّل إلى أشياء.

ـ كان شيئًا محزنًا حين رأيتك، غداة اليوم الذي امتلكتك فيه، في بيتِك، في حفلة استقبال، مستعصية المنال، وسط الناس. كنت ربّة بيت مثاليّة، لطيفة مع كلّ إنسان، خجولة بعض الشيء، توزّعين على كلّ واحد عبارات مبتذلة، وتعيرين عبثًا الجميع ـ أنا كغيري ـ جمال وجهك.

«كنت ترتدين ذلك الثوب الأخضر، الزاهي اللّون، الذي كانوا يمازحونك حوله.. وكنت أذكر، حين كنت تمرّين ولا أجرؤ على متابعتك بنظري، كم كنّا مجنونين في فوراتنا الأولى! كنت أقول في نفسي: «لقد كان عنقي مطوّقًا بطوق ساقيها العاريتين الضخم. ولقد ضممت بين ذراعيَّ جسمها اللدن المتخشِّب. ولقد داعبتها حتى دمي جلدها». كان ذلك ظَفَرًا كبيرًا، لكنّه لم يكن ظَفرًا هادئًا، لأنّني كنت في تلك اللحظة أشتهيكِ ولا أستطيع الحصول عليك. لقد تعانقنا، وسوف نتعانق بلا ريب، لكنّنا لم نكن متعانقيْن آنذاك. ولقد كنت فقيرًا في تلك اللّحظة، رغم أنَّ كنزك كلّه كان لي. ثم، حين لا يكون لنا الشيء، من يدري أنّه سيكون لنا من جديد!

فتنهّدت، يغمرها جمال متعاظم من ذكرياتها، من أفكارها، من روحها كلّها:

ـ آه! كلّا، ليس الحبّ البتّة ما يقال عنه! لقد أضحيت، في الأيّام الأولى، لا أجرؤ على النوم خشية أن ألفظ اسمك في الحلم، وكنت أنهض غالبًا مستندة إلى مرفقي، بعد أن انفض عنّي غزو جنون النعاس، وأجلس، مفتوحة العينين، أسهر ببطولة على قلبي.

«كنت أخاف أن يُكتشف أمري. كنت أخاف أن تُكتشف الطهارة التي كنت غارقة فيها.. أجل، الطهارة. حين يستيقظ المرء من الحياة،

في منتصف الحياة، وحين يرى ألقًا جديدًا للنهار، وحين يعيد خلق كلّ شيء، فإنّني أسمّي ذلك طهارة».

هل تذكرين السباق الجنوني في العربة، في باريس ـ يوم ظنّ أنّه عرفنا من بعيد، فهرع إلى عربة أخرى انطلقت في مطاردة عربتنا؟

فانتفضت انتفاضة انفعال ووجد. وتمتمت:

ـ أوّاه أجل، كانت لحظة عظيمة!

كان يتكلّم بصوت راجف، بصوت ممتزج بدقات قلبه، وكان قلبه يقول:

ـ كنتِ راكعة على المقعد، تنظرين من النافذة الخلفيَّة، بينما كنت أداعب جسمكِ، ويداي فيكِ، وكنت تصيحين بي:

«إنَّه يقترب! يبتعد!.. لقد ضاع.. آه!».

وبحركة واحدة، متواقتة، التقت شفاههما.

قالت، وكأنَّها تلهث:

ـ إنَّها المرّة الوحيدة التي عرفت فيها اللّذة.

فقال:

ـ سيكون الخوف شريكنا الدائم.

كانت كلماتهما تتقارب، تتعانق، وقد تحوَّلت إلى قُبل، تهمسها كلّ خلايا جسديهما. كان ظمِئًا إليها، يجذبها، وفمه يناديها بكلّ قواه. كانت أيديهما هامدة وقد تجمّعت حياتهما كلّها على شفاههما. وكان كلّ شيء يمّحي أمام هذه الشهوة التي بعثتها روح الشرّ.

أجل، كان عليهما إحياء ماضيهما ليتحابّا. كان عليهما، باستمرار، أن يجمعاه جزءًا جزءًا لمنع حبّهما من التلاشي في العادة ـ وكأنَّهما يرزحان تحت وطأة الشيخوخة ودمغة الموت، في الظلمة والغبار، بتواطؤ حقيقي.

كانا يلتصقان. بقع وجهيهما الشاحبة تتلاحم. ولم أكن أميّز أحدهما من الآخر، لكن كان يُخيَّل إليَّ أنَّني أتبيّنهما أكثر فأكثر، إذ كنت أدرك الدافع الكبير العميق لتزاوجهما.

كانا يتدثّران بالليل، يهويان، يهويان في الظلمة، تلك اللّجّة التي أراداها. كانا يغوصان في هذه الدياجير التي طالما بحثا عنها واسترحماها، على الأرض.

تمتم:

ـ سأحبّك أبدًا.

لكنَّنا كنّا نشعر، أنا وهي، أنَّه يكذب كما كان يفعل لتوّه. ما كنّا لنخدع بذلك. لكن سيّان، سيّان!

وهمست، وشفتاها على شفتيه، وكان همسها دغدغة حادّة بين الدغدغات:

ـ سيكون هنا، بعد لحظة.

ما أقلَّ اندماجهما! وما أقلَّ ما بينهما من شيء مشترك حقيقي سوى ذعرهما، ولكم أفهم أن يزيدا بيأس في سعيره.. لكن كان مجهودهما اللّامحدود للاتصال من خلال شيء ما على وشك التحقّق.

كانت المرأة، عند اقتراب الاحتفال الغامض، قد بدأت تكتسي بأهمّيَّة رائعة. وكان وجهها الذي يبتسم ويبكي ظلالًا يمتلئ بالخضوع والسيطرة.

لم تعد هناك كلمات، بعد أن أدّت دورها في بعث الماضي.. إنَّه العناق والجسد، إنَّه احتفال الصمت والشوق الكبير الذي يبدأ. تنهّدات، حركات خرقاء، حفيف ثياب إنساني.

إنَّها منتصبة الآن، نصف عارية، وقد ابيضّ لونها.. أهي التي تتعرّى، أهو الذي يجرِّدها من ملابسها؟.. إنَّني أرى فخذيها العريضتين،

بطنها اللجينيَّة في الغرفة كالقمر في الليل.. ثمّة خطّ أسود كبير يسدّ هذه البطن: ذراع الرجل. إنّها تضمّها، تعانقها، متشبّثة بالأريكة. وكان فمه قرب فمها، يتقاربان من أجل قبلة وحشيّة الحنان. إنّني أرى الجسم الداكن راكعًا أمام الجسم الشاحب ـ وكانت تنحدر من عينيها نظرات والهة إليه..

ثم تمتمت، بصوت مشعّ:

ـ خذني.. خذني مرّة أخرى بعد أن أخذتني مرارًا. إنّ جسمي لي وإنّني لأهبك إيّاه. كلّا؟ إنَّه ليس لي. لهذا أحمله إليك بهذا الفرح!

لقد مدَّدها، الآن، على ركبتيه.. أعتقد أنَّها عارية. إنّني لا أميّز بوضوح الخطوط والأشكال. لكنَّ رأسها انقلب إلى الوراء في النور الذي تعكسه النافذة، وإنّني لأرى هذا الوجه المسائي الذي تلمع فيه العينان، ويلمع فيه الفمّ أيضًا كالعينين، هذا الوجع المرصَّع بنجوم الحب!

ضمّها إليه، هو الرجل العاري في الظلّ. إنَّ بينهما نوعًا من الصراع، حتّى في ذروة رضاهما المتبادل. وخيّم انفعال فائق، قدسيّ ووحشيّ، ورغم أنّني لم أره، عرفت اللحظة التي ولج فيها جسده في جسد المرأة.

كان سكوني الطويل يهرس عضلات صلبي وكتفيّ، لكنّي كنت ألتصق بالجدار، مثبّتًا عينيّ بالثقب. كنت أصلب نفسي لأتمتّع بالمشهد القاسي الجليل. كنت أقبّلها، هذه الرؤية، بوجهي كلّه، وبجسمي كلّه أعانقها. وكان الجدار وكأنّه يعيد إليّ خفقات قلبي.

كان الكائنان المتعانقان يرتعدان كشجرتين متلاصقتين. كانت اللّذة التائهة، وراء القوانين، وراء كلّ شيء، تعد رائعتها الفنّيَّة من العذوبة. كانت حركة محمومة، ثائرة، محتومة..

كان يرفع رأسه، من فوق التحام جسديهما، ويلقي به إلى الوراء، وكان هناك من النور ما يكفي فقط لأرى هذا الوجه، والفم المنفعر على أنين متقطّع مغنٍ، منتظر اللّذّة.

وجاءت، طافحة، مذهلة. وشعرتُ بها تجيء كما يجيء الحدث.

عددت حتى الأربعة. لم تغادر عيناي، خلال هذه الهنيهة من الزمن، وجه الرجل الذي كان ههنا، يضرب الهواء بيديه، ويسيل لعاب أحشائه. إنَّه مكشّر، باسم، متجهّم دمًا، شبيه بشهيد إلهي، بملاك ممرّغ ومحلّق في آن واحد. إنَّه يطلق صيحات قصيرة متفاجئة، وكأنَّه مبهور بشيء ما عظيم غير منتظر، وكأنَّه لم يخطر له أن سيكون الأمر بمثل هذا الجمال، وكأنَّه مندهش من معجزة الفرح التي يحتوي عليها جسمه.

إنَّهما يتواصلان في هذه اللحظة. لعلّها لا تشعر بلذّة، لكن من الممكن القول، بل من الواضح، من المحسوس أنَّها تتمتّع بمتعته، وأنَّه تكمن ههنا معجزة أنثويَّة لا توصف.

ـ أأنت سعيد؟

تملّكني شعور فائق بأنَّها إنَّما تخاطبني أنا.. كنت على صواب تقريبًا. فما دمت قريبًا من فمها العاري، فإنَّما أنا الذي تكلّمه.

وهمس، وعيناه إلى السماء، وجسده ما يزال يغلّه إليها:

ـ أقسم بأنَّ هذا كلّ شيء في العالم!

ثمّ، على حين غرّة، وكأنَّها أحسّت بأنَّ لحظة السعادة قد انتهت وباتت لا تعيش إلّا بالذكرى، وبأنَّ الوجد الذي جمعهما لهنيهة سيتبخّر، وأنَّ وهمها سيتلاشى ويهجرها، قالت بصوت يكاد يئنّ:

ـ ليبارك اللّـه القليل من اللّذّة التي لنا!

يا للصيحة المسكينة، الإشارة الأولى سقطة شاهقة، الصلاة المجدِّفة التي تظلّ مع ذلك، بمعجزة إلهيَّة، صلاة!

وردَّد الرجل آليًا:

ـ كلّ شيء في العالم!..

تراخى الاتّحاد الجسديّ. كان الرجل قد روى ظمأه. رأيت بعينيَّ أن أسفًا، أنَّ وخز ضمير قد راح شيئًا فشيئًا يضنيه، يقصيه عن ثقل المرأة التي لم تكن تفهم في جسدها هذا الابتعاد: فهي لم تكن مثله قد تحرَّرت من اللّذة واستنفدتها دفعة واحدة.

لكنَّها، كانت تشعر أنَّه لم يسع، أنَّه لم ينظر إلى أبعد من ذلك، وأنَّه أدرك غاية حلمه... ولقد فكّرت، بلا ريب، بأنَّ حلمها أيضًا سينتهي ذات يوم وبأنَّ المصير الجديد لا يختلف عن السابق.

وفي هذه اللّحظة التي كان يخيَّل إليَّ فيها أنَّني أتابع، بعنادي شبه الخلّاق في الرؤية، تدفّق الكآبة من جديد إلى وجهها، في الجوّ الذي ما يزال مليئًا بكلمات: «هذا كلّ شيء في العالم»، سمعته يئنّ:

ـ آه! هذا لا شيء، هذا لا شيء!

لقد ومضت في خاطرهما، وهما الغريبان عن بعضهما بعضًا، الفكرة نفسها.

وبينما كانت ما تزال منبطحة عليه بكامل ثقلها، رأيت نظرته تلتفت، بالتواء من عنقه، نحو الساعة، نحو الباب، نحو الرحيل. ثم بينما كان فم عشيقته قريبًا من فمه، أشاح بوجهه عنه بهدوء (كنت الوحيد الذي رأى ذلك) في تشنُّج بسيط من الاستياء، بل من القرف تقريبًا: فقد لامسته أنفاس أفسدت رائحتها جميعُ القبل التي كانت حبيسة منذ لحظات في هذا الفمّ وكأنَّها حبيسة في تابوت.

وفي هذه اللّحظة فقط لفظت، بفمها المسكين، الجواب على ما كان قاله قبل الامتلاك:

ـ كلّا، لن تحبّني أبدًا، سوف تهجرني، لكنّي، رغم هذا، لا آسف على شيء ولن آسف على شيء.. وحين سأعود من جديد إلى الحزن الكبير الذي لن يتركني هذه المرّة أبدًا، فسوف أقول في نفسي: «كان لي عشيق!» وسوف أخرج من عدمي لأكون سعيدة لهنيهة من الزمن.

إنّه ما عاد يريد، ما عاد يستطيع تقريبًا أن يجيب، وتلعثم:

ـ لمَ ترتابين فيَّ؟...

لكنّهما يوجّهان نظرهما إلى النافذة. إنّهما خائفان، يشعران بالبرد. إنّهما ينظران، من هناك، من تجويف بين منزلين، إلى بقايا مبهمة من غسق يهرب كبارجة مظفّرة.

يُخيَّل إليَّ أنَّ النافذة تدخل إلى المسرح، إلى جانبهما. إنّهما يتأمّلانها، شاحبة، لامحدودة، مبدِّدة كلّ شيء حولها. ولبثا مسحوقين بعد التوتّر الجسديّ المقبض وقصر مدّة اللّذة الدنس، وكأنّهما يريان شبحًا، أمام اللّازورد الصافي والنور الذي ينزف. ثمّ حطّ نظر كلّ منهما على الآخر.

قالت:

ـ انظر، ها نحن هنا، نتبادل النظر وكأنّنا كلبان مسكينان.

عناق الأيدي يتراخى، المداعبات تتباعد وتنهار، الجسد يتهاوى، يبتعد أحدهما عن الآخر. تلقي بها الحركة على حافّة الأريكة.

إنّه ممدَّد على كرسيّ، حزين الوجه، منفرج الساقين، مدعوك البنطلون، يلهث ببطء، مدنّسًا بالمتعة الميّتة الباردة.

فمه منفرج، وجهه ينقبض، محجراه وفكّه تتّضح خطوطها. لكأنَّه قد نحف في بضع لحظات، ولكأنَّني أرى فيه الهيكل العظميّ الأزليّ، يفوح منه جهد مؤلم ثقيل الوطأة، يلوح عليه وكأنَّه يصيح، وكأنَّه أبكم، وسط غبار المساء.

أخيرًا.. كلاهما متشابهان وسط الأشياء، سواء ببؤسهما أم بوجههما الإنسانيّ!

بتّ لا أراهما في الليل. لقد غرقا فيه أخيرًا. بل إنَّني لأدهش من أنَّني كنت أراهما حتى الآن. لا بدّ أنّ فورة جسميهما وروحيهما الصاخبة قد سلّطت على اتّحادهما شيئًا من النور.

أين اللّه إذن، أين اللّـه إذن، لمَ لا يتدخّل في الأزمة الفظيعة المتكرِّرة؟ لمَ لا يمنع بمعجزة المعجزة الرهيبة التي يصبح بها ما هو معبود مكروهًا بسرعة أو ببطء؟ لِمَ لا يحفظ الرجل من الموت الهادئ لكلّ أحلامه، وكذلك من كآبة هذه اللّذّة التي تبزغ من جسده وتهوي عليه بعد ذلك كبصقة.

إنَّني مذعور على الأخص من تراجع الجسد الذي لا يقاوَم، ربَّما لأنَّني رجل كهذا الرجل، كسائر الرجال، ربّما لأنَّ ما هو حيوانيّ وعنيف يأسر كلّ اهتمامي في هذه اللّحظة.

«هذا كلّ شيء! هذا لا شيء!». إنَّ صدى هاتين الصيحتين يدوّي في سمعي. هاتان الصيحتان اللّتان لم تزعقا، بل اللتان لُفظتا بصوت خافت، يكاد لا يُسمع، من سيتكلّم على عظمتهما والبعد الذي يفصل بينهما؟

من سيتكلّم على ذلك، وعلى الأخصّ من سيعرف ذلك؟ لا بدّ للمرء أن يكون مثلي واقفًا فوق البشريّة، لا بدّ له أن يكون بين الكائنات ومنفصلًا عنها في آن واحد، ليرى الابتسامة تنقلب إلى احتضار، والفرح

يصبح شبعًا، والعناق ينحلّ. ذلك أنّ المرء لا يرى هذا، ولا يعرف عنه شيئًا، حين يكون في غمرة الحياة. بل إنَّه ينتقل معصوب العينين من طرف إلى أقصى الطرف الآخر. لقد نسي الذي صاح هاتين الصيحتين اللتين سمعتهما: «كلّ شيء! لا شيء!» الصيحة الأولى حين جرفته الثانية.

من سيقول ذلك! أودّ لو يقال ذلك. ماذا تهمّ الكلمات، والمواضعات، وعادة الموهبة والعبقريَّة القديمة قدم الدهر في الوقوف على عتبة هذه الأوصاف، وكأنَّها محرَّمة عليها! يجب أن يقال ذلك في قصيدة، في آية فنِّيَّة، أن يقال بكلّ عمقه، بكلّ مداه، ولو لمجرّد إظهار القوّة الخلّاقة لآمالنا، لأمانينا التي تغيِّر العالم، وتقلب الحقيقة، في اللّحظة التي تشعّ فيها.

أيّ صدفة أغنى من هذه نتصَّدق بها على هذين العشيقين، حين سيموت فرحهما، من جديد، في أعماقهما! ذلك أنَّ هذا الفصل ليس الأخير في قصَّتهما المزدوجة. إنَّهما سيعاودان ثانية، كجميع الذين يعيشون. سيحاول كلاهما، من جديد، ما استطاع، أن يدافع عن نفسه ضدّ هزائم الحياة، أن يهيم، ألّا يموت: سيبحثان، من جديد، من خلال جسميهما المتلاحمين، عن عزاء، عن خلاص.. سيستولي عليهما من جديد التوتُّر العظيم المميت، قوّة الخطيئة المتشبّثة بالجسد كمزقة من الجسد. وستخيف انطلاقة حلمهما وعبقرية رغبتهما الانفصال من جديد، وتلقي حوله الشكّ، وتسمو بالدناءة، وتعطّر القذارة، وتطهّر أكثر أجزاء جسمهما لعنة وظلمة، هذه الأجزاء التي تؤدّي أيضًا الوظائف المظلمة الملعونة، وتصبّ عليها لهنيهة كلّ عزاء العالم.

ثمّ حين يتبيّنان أنّهما قد قيّدا بلاجدوى اللّامتناهي بالرغبة، فسيعاقبان من جديد، دومًا من جديد، على عظمتهما.

آه! لست بآسف على أنَّني انتهكت السرّ البسيط الرهيب. ربما سيكون مجدي الوحيد أنّي قد عانقت وطوّقت هذا المشهد بكلّ مداه، وفهمت منه أنّ الحقيقة الحيَّة أعظم حزنًا وسموًّا مما كان بمقدرتي، حتى الآن، أن أظنّ.

-٦-

سكن كلّ شيء. رحلا. اختبأ في مكان آخر. إنَّ الزوج آتٍ، على ما خُيِّل إليَّ. لم أفهم تمامًا. هل أعلم حقّ العلم ما قالاه!

الغرفة وحيدة.. أطوف في غرفتي. ثم أتناول العشاء كما لو أنَّني في حلم، وأخرج، تجذبني الإنسانيَّة.

البيوت، في الخارج، شاهقة، مغلقة. المارّة يبتعدون عنّي. أرى في كلّ مكان جدرانًا.. أوجهًا.

أمامي مقهى. النور العنيف الذي يخيّم عليه يحثّني على الدخول إليه. إنَّ هذا النور الاصطناعي يعجبني. يطمئنني، لكنَّه في الوقت نفسه يشعرني بالغربة. أجلس، مغمضًا عينيّ نصف إغماضة.

أناس هادئون بسيطون، بلا همّ، غير مثقلين، مثلي، بعبء عليهم أن ينجزوه، متجمّعون هنا وهناك.

تجلس، أمام كأس طافحة، فتاة مصبوغة الوجه، وحيدة، تنظر إلى هذه الناحية وتلك. تحتضن على ركبتيها كلبة صغيرة يعلو رأسها فوق

الطاولة الرخاميَّة، وتستجدي، عابثة، لسيِّدتها أنظار المارّة بعد استجدائها ابتساماتهم.

هذه المرأة تنظر إليّ باهتمام. إنَّها ترى أنَّني لا أنتظر أحدًا، إنَّني لا أنتظر شيئًا.

إشارة، كلمة واحدة، وستأتي باسمة بكلّ جسمها، هي التي تنتظر الجميع.. لكن لا، ليس هذا ما أرغب فيه. إنَّني أبسط من هذا. لست بحاجة إلى امرأة. وإذا كنت أضطرب لتماسّ المتحابّين، فليس هذا بسبب غريزة، بل بسبب فكرة عظيمة..

تقترب منّي. إنَّها لا تدري من أنا. أشيح بوجهي. ماذا تهمّني النشوة السريعة الفظَّة، المهزلة الجنسيَّة! إنَّ لي كوّة أنظر منها إلى الإنسانيَّة، إلى الرجال والنساء، فأعرف ما يفعلون.

إنَّ رائحة القهوة والتبغ، الممتزجة بالدفء، تشكِّل جوًّا يبعث على الخمول. الأصوات ـ صدمة فنجان، فتح باب المدخل وغلقه، هتاف لاعب ـ تذوب. على الأوجه يحطّ انعكاس مخضرّ اللون. لا بدّ أنَّ وجهي أعظم إثارة من وجوه الآخرين: لا بدّ أنَّه يبدو وكأنَّه تجتاحه كبريائي من أنَّني رأيت، وحاجتي لأن أرى المزيد.

.. منذ لحظات، كان يدعوها «إيميه». لست أدري أهذا اسمها أم هو اعتراف[1]. لا أعرف الأسماء، لا أعرف التفاصيل، لا أعرف شيئًا من هذا. الإنسانيَّة تريني أحشاءها. إنَّ لي معرفة أوّليّة بعمق الحياة، لكنِّي أشعر أنَّني تائه على سطح العالم. لقد كان عليّ أن أبذل مجهودًا، لتوّي، كي أتغلغل بين المارّة، وأجلس في هذا المحل العام، وأطلب ما أريد.

---

(١) إيميه: بالفرنسيَّة تعني «حبيبة».

.. حسبت أنّني عرفت وجه أحد النزلاء في فندقي، وهو يمرّ في الشارع، منعكسًا على طول مرآة المقهى. ألقيت بنفسي إلى الوراء. لست في حالة تسمح لي بالحديث عن أشياء وأشياء. سأعود، فيما بعد، إلى هذه العادة الكئيبة. أحني رأسي نحو الطاولة، أستند إليها بمرفقي، ويداي في شعري، كي لا يعرفني الناس الذين يعرفونني، فيما لو مرَّ أحد منهم.

هأنذا أسير في الشوارع. تمرّ امرأة. أتبعها، بحركة آليَّة.. ترتدي ثوبًا أزرق فضفاضًا، وقبّعة سوداء عريضة. إنَّها متميِّزة الأناقة حتّى لتبدو خرقاء قليلًا في الشارع. ترفع ثوبها بعدم حذاقة، فيبين حذاؤها الصغير المشدود حول ساقها النحيلة بجوربها الأسود الشفّاف.. أصادف امرأة أخرى.. أتفرَّس فيها متأجِّجًا. يخترق الشارع، من بعيد، شكل امرأة رماديّ، يخفق قلبي وكأنَّه يستيقظ..

فضول؟ كلّا، رغبة. من لحظة، لم تكن بي رغبة، أمّا الآن، فهي تدوِّخني.. أتوقّف.. إنّني رجل كالآخرين. لي شهيَّتي، ورغباتي الصمّ. وفي الشارع الرمادي الذي أمضي فيه لست أدري أين، أريد الاقتراب من جسم امرأة..

هذا الشكل النحيف الذي يلامس الجدران، غير بعيد عنّي، إنّني لأتخيَّل عريه الصافي.. إنَّ لها قدمين دقيقتين تكادان لا تُلمحان. تسبل على كتفيها منديلًا. إنَّها ممسكة برزمة. إنَّها منحنية إلى الأمام، لشدّة عجلتها، وكأنَّها تريد، بطريقة صبيانيَّة، أن تتجاوز نفسها. تحت هذا الظلّ المسكين جسم من نور، يضيء أمام عينيّ في الضباب المعتم الذي تتخفّى فيه.. إنّني لأفكّر بجمالها المتألّق المستتر، بإشعاع شعرها المخفيّ والمصغَّر تحت قبّعتها الرقيقة، بالابتسامة الكبيرة التي تخفيها تحت وجهها المتناهي الجدّ.

ألبث مسمّرًا خلال ثانية من الزمن، بلا حراك في عرض الشارع. شبح المرأة قد أصبح بعيدًا. لو التقيت بعينها، لكان ذلك ألمًا حقيقيًا. إنّني أشعر على تقاطيعي بتشنّج يشوّهني، يغيّرني.

في أعلى الشارع، داخل حافلة، تجلس فتاة صبيّة. ثوبها المرفوع قليلًا يتكوّر.. أستطيع، من تحته، أن أغوص فيها بأكملها. لكنّ ازدحامًا من العربات يفصل بيننا. الحافلة تمضي، تتبدّد مثل كابوس.

الشارع، في هذا الاتّجاه وذاك، مليء بالأثواب، التي تتمايل، تهب نفسها، خفيفة للغاية، بأطرافها نصف الطائرة: الأثواب التي تتناوب، والتي مع ذلك لا تتناوب!

أرى نفسي أتقدّم، شاحبًا بعض الشيء، متعب العينين، في أعماق مرآة طويلة ورقيقة. ليست امرأة ما أريد، بل هنّ جميعًا، وإنّني لأبحث عنهنّ، حولي، واحدة إثر واحدة. إنّهنّ يقدمن، يمضين، بعد أن يبدو عليهنّ أنّهن اقتربن منّي.

أرخيت العنان لنفسي، مقهورًا. تبعت امرأة كانت تترصّدني من زاويتها. ثم سرنا جنبًا إلى جنب. وتبادلنا بضع عبارات. وأخذتني إلى بيتها. على سطح الدرج، حين فتحت الباب، انتفضت باختلاجة عنيفة، اختلاجة مثل أعلى. ثم كابدت من الفصل الرتيب المبتذل. لقد تمّ ذلك بسرعة كقطّة.

إنّني من جديد على الرصيف. لم يسكن روعي، كما كنت قد أملت. كان اضطراب عظيم يضلّل خطاي. لكأنّني بتّ لا أرى الأشياء كما هي. إنّني أرى أبعد مما ينبغي، وأرى من الأشياء أكثر مما ينبغي.

ما هناك إذن؟ أجلس على مقعد، سئمًا، مرهقًا بكلّ وزني. يعاود هطول المطر. يحثّ المارة خطاهم، يتضاءل عددهم، ثم ها هي المظلّات

تسيل، والميازيب تطفح، والأراضي والأرصفة لامعة سوداء، وشبه السكون مخيّم، وكل حداد المطر.. إنَّ دائي هو أنَّني حلمت حلمًا أرحب وأقوى مما أستطيع احتماله.

يا ويل من يفكّرون بما لا يملكون. إنَّهم على حقّ، لكنَّهم على حقّ أكثر مما ينبغي، وهم بهذا خارجون عن الطبيعة. البسطاء، الضعفاء، المتواضعون يمرّون لامبالين بإزاء ما هو ليس لهم. إنَّهم يلامسون كلّ شيء، جميعهم، جميعهنّ، دونما قلق (ومع ذلك حتى هذه النفوس الصغيرة ترغب في أشياء صغيرة، دقيقة فدقيقة!). لكن الآخرين، لكنّي أنا!

أن نريد أخذ ما لا نملكه، أن نسرق! لقد كفاني أن أرى بعض الكائنات تتخبّط من أعماق حقيقتها، كي تتغلغل فيّ القناعة بأنّ الإنسان يمضي ويدور في هذا الاتّجاه، قناعتي اليقينيّة بدوران الأرض في اتّجاهها.

واأسفاه، واأسفاه، إنَّني لم أدرك هذه الحقيقة المخيفة فحسب بل علقت أيضًا في سنان دواليبها، لقد أخذتني عدواها. إنَّ رغبتي، أنا، تتفاقم وتمتدّ. أودّ لو أحيا كل الحيوات، لو أثقل على جميع القلوب، ويخيَّل إليّ أنّ ما هو ليس لي ينسحب منّي، وأنَّني وحيد، أنَّني مهجور.

إنَّني، وأنا جاثم على هذا المقعد، وسط الشارع الكبير المقفر الهائج بالمطر، يصفعني الوابل، منكمشًا على نفسي لأوفّر لها حماية أكثر، إنَّني يائس لأنَّني أحبّ كل شيء كما لو أنَّني طيّب القلب أكثر مما ينبغي.

آه! إنَّني لألمح كيف سأعاقب على أنَّني دخلت صميم أسرار البشر. سوف أعاقب من حيث أخطأت. سأكابد من الشقاء اللّامتناهي الذي أقرأه في الآخرين. سأعاقب في كلّ سرّ يخرس، في كلّ امرأة تمرّ.

ليس اللّامتناهي ما نحسب أنَّه اللّامتناهي. إنَّنا ننزله عن طواعية في الروح الشعريَّة لبطل أسطوري أو لبطل آية أدبيَّة. إنَّنا نجمّل به، وكأنَّه زيّ مسرحيّ، حياةً استثنائيَّة كانت كثيرة الضوضاء كحياة هاملت الرومانتيكيَّة.. إنَّ اللّامتناهي يعيش بهدوء في هذا الرجل الذي كانت مرآة الواجهة ترجع إليّ منذ لحظة انعكاسه المتردِّد، يعيش في داخلي، كما يراني الناس بوجهي المبتذل واسمي العادي، أنا الذي أريد كل ما لا أملكه.. ذلك أنَّه ليس هناك من سبب لوضع حدّ لهذا. وهكذا أمضي خطوة خطوة في إثر اللّامتناهي، وهذا الهيمان الذي لن ينتهي عند أفق يشبه كواكب السماء. إنَّني أرفع عينين تائهين، نحوها. إنَّني أتألّم. لو اقترفت غلطة، لافتدتني هذه المصيبة الكبيرة التي يبكي فيها المستحيل. لكنِّي لا أؤمن بالفداء، ذلك الخليط الأخلاقيّ والدينيّ. إنَّني أتألّم، ولا ريب في أنَّه تبدو عليّ سيماء شهيد.

يجب أن أعود لأنجز هذه الشهادة بكلّ طولها، بكلّ طولها المسكين. يجب أن أتابع التأمُّل. إنَّني أضيّع وقتي في امتداد العالم كلّه. إنَّني أرجع إلى الغرفة التي تنفتح ككائن.

قضيت يومين فارغين، أنظر دون أن أرى.

كنت قد عاودت بعجلة القيام ببعض الخطوات، ونجحت، ليس بدون مشقّة، في اكتساب بضعة أيّام جديدة من الراحة، في نسيان نفسي لبعض الوقت أيضًا.

لبثت بين هذه الجدران، محموم الهدوء، عاطلًا عن كلّ عمل كسجين. كنت أسير في غرفتي الجزء الأكبر من النهار، مجذوبًا بفتحة الجدار، وقد بتّ لا أجرؤ على الابتعاد عنها.

كانت الساعات الطوال تمضي. وعند المساء، أجد نفسي محطّمًا بأملي الذي لا يكلّ.

استيقظت فجأة في ليل اليوم التالي، ووجدت نفسي، مرتجفًا، خارج ملجأ سريري الضيّق. كانت غرفتي باردة كالشوارع. انتصبت على طول الجدار الذي تكشف، عند ملامسة يديّ المترنّحتين، ميتًا جليديًّا.

نظرت. كان انعكاس القمر يدلف إلى الغرفة المجاورة، التي لم تغلق مصاريعها كمصاريع غرفتي. ولبثت واقفًا في المكان نفسه، والنعاس لا يزال يثقل جفوني، مسحورًا بهذا الجوّ المائل إلى الزرقة، لا أدرك إدراكًا واضحًا إلّا البرد الذي يسود.. لا شيء.. لقد شعرت بنفسي وحيدًا كشخص صلّى.

ثم انفجرت عاصفة كانت تلوح نذرها منذ الأصيل. راحت قطرات تتساقط، وهبّات من الريح تغور، مفاجئة، طويلة، في الفضاء. وكان هزيم الرعد يهزّ السماء.

اشتدّ المطر، دقيقة فدقيقة، هبّت الريح بعذوبة أكبر واستمرار. واختفى القمر خلف السحب. وخيّمت، حواليَّ، العتمة الشاملة.

ارتجفت ستارة المدفأة، ثم سكتت. ودون أن أعرف لمَ استيقظت ولمَ أتيت، لبثتُ بحضور هذا الظلّ اللّامتناهي للّيل كلّه، بحضور العالم الذي كان أمامي مثل جدار.

آنذاك، في المدى الأسود، انساب صوت خفيف..

لا ريب في أنّه هزيم بعيد للعاصفة. كلّا.. إنّه همس قريب جدًّا. همس، أو وقع خطى.

أحدهم.. أحدهم هنا.. أخيرًا! إنّها لم تخطئ، تلك الغريزة التي انتزعتني من عناق فراشي.

وبذلت عيناي مجهودًا يائسًا. لكنّ الظلمة كانت غير قابلة للنفاذ. وكانت النافذة قد استحال لونها شبه لازورديّ في الدياجير الكثيفة، ولم أكن أعرف أهي فعلًا هكذا، أم أنّني أنا الذي يتخيّلها.

سمعت الصوت من جديد، وقد طال بعض الشيء..

خطًى ـ أجل خطًى.. كان يسير ـ نفحة، تغيير أماكن أشياء، أصوات خفيَّة لا يمكن تحديدها، يقطعها الصمت، تبدو لي بلا سبب.

وبعد لحظة، تملَّكني الشكّ.. تساءلت: أليست هي هلوسة وطنينًا، خَلَقها خفقان قلبي؟

لكنَّ جرْس صوت إنسانيّ وصل إلى سمْعي بشكل إلهيّ.

ما كان أشدّ خفوته، ولكم كان على الأخصّ رتيبًا، هذا الصوت! كان يبدو وكأنَّه يرتّل صلاة أو قصيدة. وكتمت أنفاسي كي لا يتلاشى هذا الاقتراب الحيّ..

.. وازدوج.. كانا صوتين يتجاوبان. كانا يطفحان بحزن لا يُسبر غوره ككلّ الأصوات المتناهية الخفوت، بحزن موسيقيّ..

لا ريب في أنّ أمامي من جديد عاشقين، التجأ لبضع لحظات إلى الغرفة اللّامسكونة. كان مخلوقان هنا، منجذب أحدهما بالآخر، في الوحدة الكثيفة، في اللّجّة التي لا لون لها. وكنت أشعر بهما، وأنا عاجز عن تميّزهما، ينفعلان انفعال قلبي في صدري.

بحثت عن العاشقيْن الضائعيْن. كان انتباهي كلّه يتجسّس طريقه نحو هذين الجسمين. بلاجدوى. كان اللّيل يدلف إلى عينيَّ ويعميني. وكلّما نظرت، آلمتني العتمة أكثر. بيد أنّني حسبت، في إحدى اللحظات، أنّني ألمح شكلًا يرتسم، قاتمًا جدًّا، على النافذة القاتمة.. توقّف.. كلّا.. الليل. الدياجير الساكنة كصنم.. من هما، هذا الحيّان، ماذا يفعلان؟ أين هما، أين هما؟

وعلى حين غرّة، سمعت من سديم الدياجير كلمة واضحة، لها شكل إنسانيّ، كلمة: «أيضًا!».

«أيضًا!»: هذه الكلمة صادرة عن جسديهما. لقد أظهرتهما لي أخيرًا. خُيِّل إليّ أنَّ وجهيهما، خارج الضباب، يتعرَّيان.

ثم انبجست، من قلب الهمسات السريعة، بنوع من الصراع، عبارة أخرى، أُلقي بها بصوت مكتوم سعيد:

ـ لو كانوا يعرفون! لو كانوا يعرفون!

ورُدّدت هذه الكلمات بقوّة مقموعة، ازدادت خفوتًا شيئًا فشيئًا، حتى الصمت.

ثم برزا، بصوت عالٍ، في ضحكة مقهقهة. وامتدّ صوت قبلة، وغطّى كلّ شيء. من قلب هذه الظلال المتراكمة، بزغت هذه القبلة كرؤيا.

لمع البرق، فحوّل، خلال جزء من ثانية، الغرفة إلى ملجأ شاحب. ثم خيَّم الليل الأسود من جديد.

كان البصيص الكهربائي قد رفع جفنيّ اللذين كنت أغمضهما نصف إغماضة غريزيًّا، ما دامت عيناي لامجديّتين. كانت نظراتي قد غزت الغرفة، لكنّي لم أر من شيء حيّ.. ترى هل جثم إذن الضيفان اللذان تضمّهما في ركن ما واختفيا، حتّى في أعماق الدياجير؟

لم يكن يبدو عليهما أنّهما لمحا البرق العريض. وبنفس الانتظام الموئس، كانت الكلمات نفسها تهاجمني، لكن أشدّ ثقلًا، أكثر ندرة، أكثر تيهًا:

ـ لو كانوا يعرفون! لو كانوا يعرفون!

وكنت أسمع هذه الصيحة، منحنيًا عليهما بانتباه قدسيّ، وكأنّني أنحني على محتضرين.

لِمَ هذا الخوف الأبديّ الذي يهزّهما وبتوتّر في فمهما؟ أيّ حاجة حائرة تدفعهما لأن يكونا وحيدين مختفيين ـ ليطلقا صيحة الظفر

المسكينة هذه التي تشبه صيحة استغاثة، أيّ منكر يقترفانه، أي رذيلة يخفيها عناقهما؟

وتلقّيت ضربة حادّة في قلبي. إنَّ الصوتين متشابهان أكثر مما ينبغي. إنَّني أفهم: إنَّهما امرأتان، عشيقتان تأتيان ليلًا لتجتمعا اجتماعًا غريبًا!

آه! إنَّني أسمع.. لم أستند قطّ إلى الليل بهذا القدر، وحقًّا إنَّها المرّة الأولى في حياتي التي أسأل فيها، ويداي مضمومتان وعيناي غائرتان، العشيقين الأسودين اللذين سقطا ههنا، في سرير الظلّ.

أشعر أنَّ نشوة إلهيّة قد تملّكتهما:

ـ اللّـه يرانا! اللّـه يرانا!

تمتم أحد الفمين.

هما أيضًا بحاجة إلى أن يراهما اللّٰه ليشعّ جمالهما، إنَّهما تستغيثان به، كالحزانى!

.. أشكّ الآن في أنَّهما امرأتان. خُيّل إليَّ أنَّني ميَّزت خشونة صوت ذكر. إنَّني أسمع، أقارن، أجمع نتف الأصوات هذه، وأنا لا أزال أحاول في مجهود فائق أن أتخلّص من الظلام..

ثم ميَّزت بوضوح الرجاء الحارّ الذي أخذ يتفتّح، خافتًا، وكلماته متراكمة بعضها على بعض، يسحقها فمان، مبلَّلان، مغرقان بدم القبل:

ـ هل تريدين، هل تريدين؟

ويأخذ السؤال أهمّيَّة كبرى راجفة، سؤال مخلوق واهب نفسه، منفرج، أو متخشّب.

ثمَّ يتصاعد صوت قويّ كرفيف جناح:

ـ أجل.

تمتم الجسم الآخر:

ـ آه!

أيّ وسيلة غامضة مرتبكة يحاولانها ليتعارفا ويناما معًا؟ ما شكل هذين العاشقين؟

ما شكلهما؟ أيّ أهمّيّة لشكل الحبّ! إنّني أتحرّر من هذا القلق، ويُخيَّل إليّ أنّني أشهد دفعة واحدة كلّ مأساة الحبّ.

إنَّهما متحابّان. وما سوى ذلك ليس بشيء. سواء أكانا منحرفين أو طبيعيّين، سواء أكانا ملعونين أو مباركين، فإنّهما يتحابّان ويمتلك أحدهما الآخر بأعظم حبّ وأروع امتلاك ممكن على هذه الأرض.

إنَّهما يتخفّيان من الجمع بعد أن تناديا. إنّهما يتقلّبان في الدياجير وكأنّهما يتقلّبان على شراشف أو أكفان. إنّهما يحبسان نفسهما. إنّهما يبغضان النهار ويهربان منه وكأنّه عقوبة استقامة وسلام. لقد صاحا، وبكيا، وضحكا: «لو كانوا يعرفون!». إنّهما يتفاخران بوحدتهما ويجلدان نفسهما بها، ويتعلّلان بها. إنّهما مرميّان خارج القانون، خارج الطبيعة، خارج الحياة العاديّة المصنوعة من التضحية والعدم. إنّهما يحاولان أن يتّصلا، فتصطدم جبهتاهما المرمريّتان. كلٌّ منهما مشغول بجسمه، كلٌّ منهما يشعر بأنّه يعانق جسمًا بلا تفكير. أوّاه! أيّ أهمّيّة لجنس أيديهما التي تتجسّس طريقها إلى اللّذّة النائمة، لجنس فميهما اللذين يتلاصقان، وقلبيهما المقيّدين بالعمى والصمم.

جميع عشّاق العالم متشابهون: فالصدفة هي التي تجمع بينهم. يرى أحدهما الآخر، فيقعان أسيري تقاطيع وجهيهما، ويكلّل أحدهما

الآخر بإشراق الحبّ الساطع الشبيه بالجنون، ويؤكّدان واقعيَّة الأوهام، ويحوّلان برهة من الزمن الكذب إلى حقيقة.

وفي تلك اللّحظة، سمعت بضع كلمات ممزَّقة من مناجاتهما:

ـ أنت لي، أنت لي. إنَّني أملكك، إنَّني آخذك..

ـ أجل، إنَّني لك!..

هوذا الحبّ بأكمله، هوذا الحب بقربي يداعب وجهي، بذهابه وإيابه وكأنَّه بخّور، برائحة الحياة وحرارتها، ويتمّ عمله، عمل الجنون والعقم.

الحوار يبدأ من جديد، أعذب، وأهدأ، ويتناهى إلى أذنيّ وكأنَّه موجَّه لي.

تمرّ أولًا جملة راجفة، وكأنَّها في حلم:

ـ إنَّني أعبد ليالينا، لا أحبّ نهاراتنا.

ويتابعان الكلام، فتتالى الأسباب ببطء ولااكتراث كحبّات السبحة، في هدهدة مرتوية، وتختلط الكلمات أحيانًا فاقدة أشكالها، والفمان قريبان أحدهما من الآخر مثل شفتين:

ـ في النهار، أحسّ بالتبدّد، بالضياع. إنَّما في اللّيل فقط، نستقطب أنفسنا حقًّا.

فقال الصوت الآخر:

ـ آه! أودّ لو نتحاب في النهار.

ـ ربّما أمكننا ذلك.. فيما بعد، آه! فيما بعد.

الكلمات ترنّ في صدى طويل بعيد. ثم يقول الصوت:

ـ عمّا قريب..

فقال الآخر، برعدة من الأمل:

ـ يا إلهي!

كنت قد سمعت شكوى مماثلة. إنَّها الشكوى نفسها، وكأنَّ مواضيع الشكوى قليلة جدًّا على الأرض. فقد أنّت المرأة الزانية: «أنا التي رغبت كلّ الرغبة في مصير من نور!».

ثمّ تكلّما، بجمل لم أسمع مطالعها جيّدًا، ولم أستطع وصلها فيما بينها، عن قباب ملتفّة الأغصان مشمسة، عن حدائق مروجها سوداء، مماشيها الطويلة ذهبيّة، وعن أحواض كبيرة محدّبة تسطع وتقدح شررًا عند الظهر حتى ليستحيل النظر إليها كما يستحيل النظر إلى الشمس.

غارقان في الظلّ، ظلّان هما، يتوقّدان نورًا. إنّهما يفكّران بالنهار، يتملّكانه، لينبع منهما هيكل من لازورد وصيف.

وكلّما طال بهما الحديث عن الشمس، خفت صوتهما وانطفأ.

وبعد صمت ازداد جلالًا وحنانًا، سمعت:

ـ لو تعلمين كم يزيدك الحبّ فتنة، وابتسامتك إشراقًا!

وامّحى كلّ شيء، ولم تعد هناك إلّا هذه الابتسامة.

ثم تغيّر أنشودةُ حلمهما صورها دون أن تغيّر ضياءها. يتذكّران أبهاء، مرايا، مصابيح متلألئة.. يتذكّران أعيادًا ليليّة على الماء الرقراق المليء بزوارق وكرات ملوّنة حمراء، زرقاء، خضراء ـ شبيهة بمظلّات النساء تحت لظى الشمس في حديقة.

من جديد، يخيّم الصمت، ثم يتابع أحدهما، بلهجة رجاء، مشيرًا إلى الامتلاك اللّامحدودة، إلى الحاجة اللّامحدودة في تحقيق الحلم، إلى حدّ الجنون تقريبًا:

ـ إن بي حمّى. يخيَّل إليَّ أنَّ على يدي شمسًا.

وبعد لحظة، وبتسرّع:

ـ أتبكين! وجنتكِ مبلّلة كفمك.

فشكا أحد المتضرّعيْن:

ـ لن نحصل على ذلك أبدًا، لن نحصل على هذا النور إلّا في الأحلام التي نراها ليلًا حين نكون معًا.

فصاح الآخر:

ـ سنحصل عليه! ذات يوم، سينتهي كلّ ما هو حزين.

وأضاف بعظمة:

ـ إنّه لنا تقريبًا. أنت ترين ذلك جيّدًا!

ـ آه! كانوا يعرفون! قالا ذلك بنوع من الحسرة، لأنّهم لا يعرفون. «الجميع ستأخذهم الغيرة منّا. العشّاق أنفسهم، وحتى السعداء».

ثم قالا من جديد إنَّ اللّـه يراهما. وحلم تمثالا الدياجير هذان، المنحوتان في الدياجير، بأنَّ اللّـه يكتشف أمرهما ويمسّهما كإشراقة. وازدادت حياة روحيهما المتعانقتين عمقًا وعظمة. والتقت هذه الكلمة: «دومًا!».

كان هذان الكائنان، المسحوقان، المتلاشيان إلى لا شيء، اللذان أشعر بهما يزحفان تحت الشراشف جنبًا إلى جنب كالديدان، يقولان: دومًا! كانا يلفظان الكلمة الفائقة الإنسانيّة، الفائقة الطبيعة، الفائقة العادة.

جميع القلوب تشبه هذين القلبين بخلقها. إنَّ الفكر المليء بالمجهول، والدم الليليّ، والشّهوة الشبيهة باللّيل، تطلق صيحات

ظفرها. إنّ العشّاق، حين يتعانقون، يناضل كلٌّ منهم من أجل نفسه، ويقولون: «أحبّك، وينتظرون، ويبكون، ويتألّمون، ويقولون: «نحن سعداء» ثم يتراخون وقد دبّ فيهم الفتور ويقولون: «دومًا!». ولكأنّهم قد سرقوا، من الأعماق السحيقة التي هووا فيها، نار السماء كما فعل بروميثيوس.

وكنت أمضي وراءهما، أتتبّع كلّ حركة من حركاتهما.. لكم أودّ أن أراهما في هذه اللّحظة! إنّني أريد ذلك بالقوّة نفسها التي أريد بها الحياة: أن أكتشف هذه الحركات، هذا التمرّد، هذا الفردوس، هذين الوجهين اللذين يعبق منهما كلّ شيء. لكنّي لم أكن أستطيع المضيّ حتى الحقيقة. كنت لا أكاد أرى النافذة، من بعيد، مبهمة كدرب مجرّة، في لا حدود الغرفة السوداء. بتُّ لا أسمع كلمات بل همسًا لا أدري معه هل هي كلماتهما الراضية التي تتصاعد وقد تلاقت مرّة أخرى، أم هي شكواهما التي تنتزع نفسها من جرح فميهما.

ثمّ انقطع حتى الهمس.

لعلّهما يحاولان النوم بعيدًا عن بعضهما بعضًا، وإن كانا ما يزالان متعانقين. ولعلّهما انصرفا لينبهرا في مكان آخر بكنزهما الوحيد.

عادت العاصفة، التي خُيّل إليَّ أنّها قد خرست، من جديد، واستمرّت.

ناضلت طويلًا ضدّ الظلّ، لكنّه أكبر منّي، إنّه يكفيني. أتهالك على سريري، وألبث في السواد والصمت. أستند إلى مرفقيّ، وأتلو الصلوات. وتمتمت: «من الأعماق»[1].

من الأعماق.. لِمَ تتصاعد صيحة الأمل الرهيب هذه، صيحة البؤس والعذاب والرهبة هذه، من أحشائي إلى شفتيْ هذه اللّيلة؟..

---

١ ـ اسم صلاة مشهورة (المترجم).

إنَّه اعتراف المخلوقات. ومهما كانت الكلمات التي لفظها هذان المخلوقان اللذان استشففت قدرهما، فقد كانا يصيحان بذلك في الحقيقة ـ وبعد تلك الأيام والليالي التي أمضيتها أسترق فيها السمع، كان هذا ما أسمعه.

هذا النداء من خارج الهوّة إلى النور، هذا الجهد للحقيقة المتوارية، نحو الحقيقة المتوارية، من كلّ مكان يرتفع، من كلّ مكان يهوي، وأنا، المسحور بالإنسانيَّة، كلّي صدى مردِّد له.

أنا لا أعرف من أنا، أين أمضي، ماذا أفعل، لكنِّي أنا أيضًا صحت من أعماق هوّتي، نحو بصيص من نور.

- ٧ -

الغرفة تسودها فوضى الصباح الخضلة. إيميه فيها مع زوجها. إنَّهما قادمان من السفر.

لم أسمعهما يدخلان. كنت منهكًا تعبًا، بلا ريب.

قبّعته على رأسه. جلس على كرسيّ، قرب السرير الذي بقي على ترتيبه، وإن كنت أميِّز فيه، أنا، تجويفًا مطوَّلًا خلَّفه جسم أو عاشقان.

إنَّها ترتدي ثيابها. رأيتها تختفي خلف باب غرفة الحمام. أنظر إلى الزوج، الذي تبدو لي تقاطيعه عظيمة التناسق، بل نبيلة بعض الشيء.

خطّ الجبين مرسوم بوضوح. الفم والشارب فقط سوقيّان قليلًا. إنَّه يبدو أكثر صحّة وقوّة من العشيق، اليد التي تلعب بعصا ناعمة، والشخصيّة بمجموعها فيها شيء من أناقة متينة. هذا هو الرجل الذي تخونه وتبغضه. هذا هو الرأس، وهذه هي السيماء، وهذا هو التعبير، التي فقدت جمالها وتشوّهت في نظرها، والتي تختلط بتعاستها.

فجأة، صارت هنا. جاءت إليّ بملء ناظريَّ. يتوقّف قلبي، ثم يقبضني، ويشدّني إليها.

إنَّها نصف عارية: قميص بنفسجيّ، قصير وخفيف، متوتّر ومتحدّب بثدييها، ينطبق بعذوبة، مع حركة مشيها، على استدارة بطنها.

إنَّها راجعة من غرفة الحمَّام، تجرّ أذيالها وقد استولى عليها التعب من آلاف الأشياء التافهة التي شرعت بها، وفي يدها فرشاة أسنان، وفمها نديّ قرمزيّ، وشعرها مبدّد. ساقها رفيعة جميلة، وقدمها الصغيرة شديدة الانعطاف على كعب الحذاء العالي المدبّب.

الغرفة الغارقة في سديم شامل، مليئة بمزيج من الروائح: صابون، مسحوق أرز، عطر نفّاذ لماء الكولونيا، في ثقل الصباح الحبيس.

توارت. ثمّ رجعت، فاترة راغبة. وأخذت تمسح قطرات الماء عن وجهها المتورّد، وكلّها طراوة.

أمَّا هو، فيتكلّم وكأنَّه يلقي خطابًا، ويشرح مسألة. لقد مدَّد ساقيه بعض الشيء. تارة ينظر إليها وطورًا لا ينظر إليها.

ـ أتعرفين. إنَّ آل برنار لم يقبلوا، بخصوص قضيَّة المحطّة..

إنَّه يتابعها هذه المرّة بعينيه أثناء كلامه، ثم ينظر إلى مكان آخر، ويترك ناظريه ينسابان على السجّادة، ويحدث بلسانه صوتًا خائبًا، وهو مستغرق في فكرته، بينما هي تذهب وتجيء، مظهرة تكوّر ردفيها، وصلبها العصبيّ، وبطنها الشاحبة، والظلّ الكثيف لما تحت بطنها.

صدغاي ينبضان. جسدي كلّه يتّجه إلى هذه المرأة شبه العارية والفاتنة في الصباح وفي الثوب الشفّاف الذي يحبس رائحتها العذبة.. وأنا لا أزال أسمع رنين جملة الزوج المبتذلة، الجملة الغريبة عنها، الجملة المدنّسة في هذه الغرفة التي حملت إليها عريها.

ارتدت مشدّها، وحمّالاتها، وسروالها، وتنّورتها. ولبث الرجل على لامبالاته الحيوانيَّة. واستغرق من جديد في تأمُّلاته.

.. وقفت أمام مرآة المدفأة، مع علب وأدوات. إنّ مرآة غرفة الحمّام لم تبدُ لها بلا ريب كافية لما تريد فعله.

بينما هي تسرّح شعرها، كانت تتكلّم لنفسها، مثرثرة، مرحة، منتعشة، لأنَّ النهار ما يزال في عنفوانه.

.. وتضاعف من جهدها وتزيد فيه. وتستغرق وقتًا طويلًا في إصلاح شأنها، لكنّ هذه الساعات ساعات هامّة وغير ضائعة. على كلّ حال، إنَّها تسرع.

تذهب الآن لتفتح دولابًا، وتُخرج منه ثوبًا هفهافًا خفيفًا، وتُمسك به بين ذراعيها، من الأمام، وكأنَّها تمسك بأفراخ طير في عشّها.

تضمّ هذا الثوب. ثم تخطر لها فجأة فكرة، وتتوقّف ذراعاها. وتقول:

ــ لا، لا، لا، نهائيًا.

وتخلع ثوبها وتذهب للبحث عن غيره: تنّورة داكنة وقميص.

تتناول قبّعة، وتشعّث رباطها قليلًا، وترفع ورود هذه القبّعة الزخرفيَّة إلى قرب وجهها، أمام المرآة، وتدندن، راضية بلا ريب..

.. إنَّه لا ينظر إليها، وحين ينظر إليها، لا يراها!

آه! إنَّ هذا لأخّاذ. إنَّها مأساة، مأساة قاتمة، لكنَّها مقلقة في الوقت نفسه. هذا الرجل غير سعيد، ومع ذلك أحسده على سعادته. قولوا لي بما يمكن أن أجيب على هذا، سوى أنَّ السعادة فينا، في كلّ واحد منّا، وإنَّها الرغبة في ما لا نملك!

هذان الإنسانان هما معًا، لكنَّهما غائبان، في الحقيقة، أحدهما عن الآخر. لقد افترقا، دون أن يفترقا. إنَّ نوعًا من دسائس العدم يحلّق فوقهما. إنَّهما لن يتقاربا ثانية أبدًا، لأنَّ الحبّ المنتهي يحتلّ بينهما مكانه كلّه. هذا

الصمت، هذا التجاهل المتبادل، هما أفظع ما على الأرض. الامتناع عن التحابّ أسوأ من التباغض، ذلك أنَّ الموت، مهما قيل، أسوأ من الألم.

إنَّني أشفق على من يمضون زوجًا زوجًا، مقيَّدين بأغلال اللّامبالاة. إنَّني أشفق على القلب المسكين الذي ينال ما يناله لمثل هذه المدّة الوجيزة من الزمن. إنَّني أشفق على البشر الذين لهم قلب كي يمتنعوا عن التحابّ.

ولهنيهة من الزمن، أمام هذا المشهد البسيط جدًّا، الممزَّق للغاية، قاسيت بعض الشيء من الاستشهاد العظيم، اللّامحدود، للذين يتألّمون تألُّمًا أكبر.

أتمَّت ارتداء ثيابها. لبست سترة من لون تنّورتها، تنفتح على رحب على قميصها الداخليّ بأعلاه الشفّاف الورديّ عند مبدأ جسمها وكأنّه الشفق، وغادرتنا.

يستعدّ للذهاب، بدوره. الباب ينفتح من جديد. أهي التي عادت؟.. كلّا، إنَّها الخادمة. وتهمّ بالانسحاب.

ـ جئت أرتِّب الغرفة، لكنّني أزعج السيِّد!

ـ تستطيعين أن تبقي.

تُمسك بأشياء، تغلق جوارير.. رفع رأسه، وراح يتابعها بطرف عينه.

ينهض، يقترب، مرتبكًا، كأنَّه مسحور.. وطء أقدام، صيحة تختنق في ضحكة كبيرة. تترك فرشاتها والثوب الذي تمسك به.. يمسك بها من الخلف، وتقبض يداه من خلال القميص على ثديَيّ الفتاة.

ـ آه! كلا، حقًّا ماذا يحدث لك؟

ولا يجيب هو، بوجهه المقنّع بالدم، وعينه الشاخصة، العمياء. وتفلت منه شبه صيحة غير ملفوظة: الكلمة الخرساء التي ليس فيها إلّا البطن التي

تفكّر. وبين شفتيه الملتهبتين، المنفرجتين قليلًا عن أسنانه، لهاث آلة.. لقد تشبّث بهذا الجسد، وبطنه على هذه الردف، أشبه بقرد، أشبه بأسد.

تضحك، بوجهها العريض المائل إلى الحمرة. شعرها نصف المنحلّ يتهدّل على جبينها، وثدياها الناهدان يغوصان تحت الأصابع المتشنّجة التي تطبق عليهما.

يحاول أن يشدّ تنّورتها، أن يرفعها. تشدّ على ساقيها وتثبّت يديها على فخذيها لتمسك بالثوب. ولا تنجح في ذلك إلّا نصف نجاح. أرى جوربيها اللذين ينثنيان تحت ساقها المدوّرة الربلة، وطرف من قميصها، ونعليها. إنّهما تطآن على ثوب إيميه الذي أرخته الفتاة من يديها فتهاوى برقّة.

ثم تجد أنَّ الأمر قد طال بما فيه الكفاية:

ـ آه! كلّا، كفى، يا صغيري، أفٍّ.. إذن!

ولمّا لم يقل شيئًا، مقرّبًا فكّه من الرقبة، كشدق الشهوة، غضبت:

ـ آه! كلّا! كفى! أف، أقول لك!

وتركها أخيرًا، ومضى ضاحكًا ضحكة ملعونة بالعار والمجون، متعثّر الخطى تقريبًا، تحت ضغط اندفاعة داخليّة قويّة.

مضى بين النساء اللائي يمررن، عيناه رازحتان تحت وطأة كابوس يرفع الأثواب على الرؤوس.

النسغ يغلي فيه ويريد الخروج. إذا لم يتدفّق منه ما يسير عليه، فإنّه سيصعد إلى رأسه كلبن أم. إنّه ههنا، أبو البشر الغامض هذا، يتجسّس طريقه، وذراعاه إلى الأمام للعناق، يتآكله جرح ينتهي به مترنّحًا إلى فراش، قويًا بكلّ ثقله.

لكنّها ليست الغريزة الهائلة فحسب، طالما أنّه تبخترت أمامه قبل قليل المرأة الشهيّة (والنور الذي كان يتلاعب بين أقنعتها الهفهافة كان يبرز جسمها كلّه ويحيطه بهالة مشعّة)، ولم يشتهها.

ربّما كانت سترفض أن تهبه نفسها، ربّما كان قام بينهما اتفاق ما.. لكنّي رأيت بوضوح أنَّ عينيه بالذات لا ترغبان فيها: هاتين العينين اللتين توقّدتا ما إن ظهرت تلك الفتاة، فينوس تلك الدنيئة بشعرها الوسخ وأظافرها الموحلة، واللتين جاعتا إليها.

لأنَّه لا يعرفها، لأنَّها غير التي يعرفها. أن يكون لنا ما ليس لنا.. هكذا، ومهما أمكن لهذا أن يبدو غريبًا، فإنَّها فكرة، فكرة سامية أزليَّة تلك التي تقود الغريزة. إنَّها الفكرة التي تجعل الرجل يتوتّر هكذا، أمام المرأة المجهولة، فيترصّدها كحيوان، مشحوذ الانتباه، بنظرات كمخالب، يدفعه تصوّر مأساويّ كما لو أنَّه بحاجة لأن يغتال ليعيش.

إنَّني أفهم، أنا من أُعطي له أن يسيطر على هذه الأزمات البشريَّة ـ الجامحة العنان حتى أنَّ اللّـه ليبدو إلى جانبها غير مجدٍ ـ أنَّني أفهم أنَّ الكثير من الأشياء، التي نعيّن لها مواضعها خارجًا عنّا، هي فينا، وأنَّ هذا هو السرّ.. ألا كيف تتساقط الأقنعة، كيف تتجلّى البديهيّات، كيف تنجلي البساطة!

جذبني الغداء على مائدة الضيوف في البداية بجاذب سحريّ؛ تفرّست في جميع الوجوه محاولًا أن أفاجئ الكائنين اللذين يتبادلان الحبّ ليلًا.

لكنّي، رغم إطالتي في استجواب الأوجه زوجًا زوجًا ورغم سعيي إلى رؤية علامة شبه، لم أستدلّ على شيء. ولم أعرفهما أكثر مما عرفتهما حين كانا غارقين في الليل الأسود.

.. هناك خمس صبايا أو نساء في ربيع العمر. إنَّها واحدة منهنّ، على الأقلّ، التي تحتفظ بالذكرى الحيَّة المحرقة حبيسة في جسمها. لكنَّ إرادة أقوى منّي تخفي وجهها. لست أدري، وإنَّني لمرهق بالعدم الذي أرى.

لقد انصرفن واحدة فواحدة. لست أدري.. آه! يداي تتشنّجان في لاتناهي الشكّ، وتطبقان على الفراغ بين سلامياتهما. وجهي هنا، محدّد، تجاه كلّ ما هو ممكن، تجاه كلّ ما هو غير محدّد، تجاه كلّ شيء.

هذه السيّدة! إنّني أتعرّف فيها إيميه. إنّها تتكلّم مع صاحبة النزل ـ من جانب النافذة. لم ألمحها في البداية، بسبب الضيوف الجالسين بيننا.

إنّها تأكل عنبًا، برقّة كبيرة، وبحركات مدروسة قليلًا.

أستدير نحوها. إنّها تدعى السيّدة مونجورون أو مونجورو. هذا الإسم يبدو لي غريبًا. لِمَ تُدعى هكذا؟ يخيَّل إليَّ أنَّ هذا الإسم لا يناسبها أو أنَّه غير مجدٍ. إنّ طابع الكلمات والإشارات الاصطناعي يذهلني.

الطعام على وشك الانتهاء. انصرف الجميع تقريبًا. فناجين القهوة والكؤوس الصغيرة اللزجة بالشراب المخمّر متناثرة على المائدة التي يسطع عليها شعاع من شمس فيترأرأ الغطاء وتقدح الأدوات الزجاجيَّة شررًا. لطخة قهوة مسفوحة، تجفّ فوّاحة.

أزجّ بنفسي في الحديث بين السيّدة لومرسيه وبينها. تنظر إليّ. إنّني لا أكاد أتعرّف نظرتها التي رأيتها بكاملها.

يأتي الخادم ليهمس ببضع كلمات إلى السيّدة لومرسيه. تنهض هذه، وتعتذر، تغادر الغرفة. إنّني بجانب إيميه، بعد أن اقتربت منذ لحظة. ليس في غرفة الطعام إلّا شخصان أو ثلاثة، يتناقشون في كيفيّة قضاء بعد الظهر.

لا أدري ماذا أقول لها، هذه السيّدة. الحديث بيني وبينها يذوي، ينقطع. لا بدّ أنّها تفترض أنّها لا تثير اهتمامي ـ هذه المرأة التي أرى قلبها وأعرف قدرها كما يمكن لله أن يعرفه.

تمدّ يدها نحو صحيفة ملقاة على المائدة، وتستغرق لحظة في القراءة، ثم تطوي الجريدة، وتنهض بدورها، وتنصرف.

أستند بمرفقي، وأنا مشمئزّ من ابتذال الحياة، يثقل عليّ الوقت والنعاس، على المائدة اللّامتناهية، على المائدة التي تضيئها الشمس، على المائدة المتلاشية، وأبذل جهدًا كي لا أرخي ذراعيّ وأخفض ذقني وأغمض عينيّ.

وألبث وحدي تقريبًا في هذه القاعة المشتّتة، التي حاصرها، بتكتّم، الخدم الذين يستعجلون رفع المائدة وترتيبها لطعام المساء، لا أدري أَأنا في غاية السعادة أم في غاية الشقاء، لا أدري ما الواقعي وما الخارق!

ثم أفهم ذلك، بتؤدة، بثقل.. أرمي بالنظرات حولي، أتأمّل كلّ شيء بسيط هادئ، ثم أغمض عينيّ وأقول في نفسي، وكأنّني مختار يدرك رويدًا رويدًا الإيحاء الذي يوحى به إليه:

«لكن هذا هو اللّامتناهي. هذا صحيح، إنّني لا أستطيع بعد الآن أن أشكّ في ذلك». ويفرض هذا التأكيد نفسه: لا وجود لأشياء غريبة: إنّ الخارق غير موجود، أو هو بالأحرى في كلّ مكان. إنّه في الواقع، في البساطة، في السلام. إنّه هنا، بين هذه الجدران التي تنتظر بكلّ ثقلها الواقعي والخارق: إنّهما لشيء واحد.

لا يمكن بعد الآن أن يوجد سرّ في الحياة، كما لا يمكن أن يوجد في السماء فضاء غير هذا الفضاء.

إنّني، أنا الشبيه بالآخرين، مجبول باللّامتناهي. لكن، كيف يتمثّل أمامي هذا كلّه مضمحلًّا متداخلًا! وإنّني أحلم بنفسي، أنا الذي لا أستطيع أن أعرف نفسي جيّدًا، ولا أن أتخلّص من نفسي. أحلم بنفسي، أنا الشبيه بظلّ ثقيل بين قلبي والشمس.

- ٨ -

كان الجوّ نفسه يحيط بهما، الظلّ نفسه يدنّسهما كما في المرّة الأولى التي رأيتهما معًا. كانت ايميه وعشيقها جالسين، غير بعيد عنّي، جنبًا إلى جنب.

كانا يتحدّثان منذ بعض الوقت بلا ريب، حين انحنيت حتى قاربتهما.

كانت خلفه على الأريكة، يحجبها ظلّ المساء وظلّ الرجل. أمّا هو فكان منحنيًا إلى الأمام، في الفراغ، شاحبًا غير متحدّد، ويداه على ركبتيه.

كان الليل لا يزال متدثّرًا بعذوبة المساء الرماديّة الحريريّة. سرعان ما سيتعرّى. سيأتي عليهما كمرض لا يعرفان كيف سيبرآن منه. كان يبدو أنّهما يشعران بنذيره، ويسعيان إلى حماية نفسهما منه، ويودّان لو يتّخذان ضدّ الدياجير المحتومة احتياطات من الكلمات والأفكار.

كانا يستعجلان التحادث عن أشياء وأشياء، بلا شوق، بلا اهتمام. وسمعت أسماء أماكن وأشخاص. وتكلّما عن محطّة، وعن نزهة عامّة، وعن بائع زهور.

على حين غرّة، توقّفتْ، وبدتْ لي أنَّها اكتأبت، وأخفت وجهها بين يديها.

وأمسك بمعصميها، ببطء حزين يدلّ على مقدار تعوّده على هذا الفتور، وكلّمها، دون أن يعرف ما يقول، متلعثمًا، مقتربًا منها ما أمكنه:

ـ لِمَ تبكين؟ قولي لي لِمَ تبكين.

فلم تجب. ثم باعدت يديها عن عينيها ونظرت إليه. وقالت:

ـ لِمَ؟ هل أدري! إنّ البكاء ليس كلامًا.

نظرتُ إليها تبكي، تغرق في الدموع. آه! إنَّه لشيء هامّ أن تكون بحضور شخص عاقل يبكي! إنَّ مخلوقًا ضعيفًا محطّمًا يبكي ليترك فيك الانطباع نفسه الذي يتركه إله فائق القوّة تبتهل إليه. ذلك أنَّها، في ضعفها وانخذالها، فوق القوى البشريَّة.

واستولى عليّ نوع من إعجاب متطيّر أمام وجه هذه المرأة السابح في المعين الذي لا ينضب، أمام هذا الوجه الصادق والحقيقيّ في آن واحد.

كانت قد توقَّفت عن البكاء. ورفعت رأسها. ودون أن يسألها هذه المرّة، قالت:

ـ أبكي.. لأنَّنا وحيدون.

«لا يمكننا الخروج من ذواتنا. بل لا يمكننا أن نعترف بشيء. إنَّنا وحيدون. ثم إنَّ كلّ شيء يمضي، كلّ شيء يتغيّر، كلّ شيء يهرب، وفي الوقت الذي يهرب فيه كلّ شيء، نكون وحيدين. ثمّة لحظات أتبيَّن فيها ذلك أكثر مما أتبيّنه في غيرها، وعندئذ من يستطيع منعي من البكاء؟».

وأخذتها رعشة كبرياء صغيرة، في الكآبة التي تغرق فيها بين الفينة والفينة. وعلى قناع الحزن، رأيت ابتسامة متصنّعة ترتسم ببطء.

ـ إنّني أكثر حساسية من الآخرين، أنا. إنَّ ما يمرّ به الناس عابرين، يخلّف فيّ صدى كبيرًا. وفي لحظات الصحو هذه، حين أنظر إلى نفسي، أرى أنّني وحيدة، وحيدة تمامًا، وحيدة تمامًا.

وحاول، لقلقه من رؤية ضيقها المتعاظم، أن يعيد إليها الحياة:

ـ لا نستطيع أن نقول هذا، نحن، نحن اللذيْن صنعنا قدرنا من جديد.. أنتِ التي قمتِ بعمل إراديّ ذي شأن عظيم..

لكن، كلماته تطايرت كنثار القشّ.

ـ ما الفائدة! لا شيء مجدٍ. رغم ما حاولت أن أفعله، فإنّني وحيدة.. إنَّ الزنى لن يغيّر وجه الأشياء ـ رغم عذوبة هذه الكلمة!

«ليس بالشّر نتوصّل إلى السعادة. ولا بالفضيلة أيضًا. ولا أيضًا بالنار المقدَّسة للقرارات الغريزيَّة الكبرى، التي ليست بالخير ولا بالشرّ. ليس بشيء من هذا كلّه نتوصّل إلى السعادة. إنّنا لا نتوصَّل إليها البتّة».

وتوقفت، وقالت، وكأنَّها تشعر بقدرها يهوي عليها من جديد:

ـ أجل، أعرف أنّني اقترفت الشرّ، وأنَّ أكثر الناس حبًّا لي سيكرهونني بطرق عديدة لو عرفوا.. أمّي، لو عرفت ـ وهي الكبيرة الحلم ـ لأضحت على شقاء عظيم! أعرف أنَّ حبّنا قائم على استنكار كلّ من هو عاقل وعادل، وعلى دموع أمّي. لكن لم تعد هناك فائدة من هذا العار! إنَّ أمّي، لو عرفت، لأشفقت على سعادتي!

فتمتم بوهن: «أنت رديئة..».

وسقطت هذه الجملة كعبارة صغيرة لا معنى لها.

وداعبت جبين الرجل بحركة سريعة من يدها، وقالت بصوت واثق إلى حدّ معجز:

ـ أنت تعرف أنّني لا أستحق هذه الكلمة. أنت تعرف أنّني أتكلّم بمستوى أعلى منّا.

«أنت تعرف ذلك جيّدًا، تعرفه أكثر منّي، تعرف أنّنا وحيدان. ذات يوم كنت أتكلَّم فيه عن فرح الحياة وكنت أنت مشرقًا بالحزن كما أنا اليوم، قلت لي، بعد أن نظرت إليّ، أنّك لا تعرف ما أفكِّر به، رغم كلماتي، ولا تعرف إن كان الدمّ الذي يصعد إلى وجهي خضابًا صناعيًّا زاهيًا.

«إنَّ أفكارنا، كبيرها وصغيرها، ليست إلّا لنا. كلّ شيء يرجعنا إلى أنفسنا ويحكم علينا بأن نعيش وحيدَيْن. لقد قلت ذلك اليوم: «هناك أشياء تخفينها عنّي، ولا أعرفها أبدًا ـ حتى ولو قلتِها لي»، وأظهرت لي أنَّ الحبّ ليس إلّا عيدًا لوحدتنا، وصحت بي في النهاية، وأنت تدفنني بين ذراعيك: «إنَّ حبّنا لهو أنا!».

وأجبتك مع الأسف بالجواب الذي لا بدّ منه: «إنَّ حبّنا لهو أنا».

وأراد أن يتكلّم. فوضعت يدها بحركة ودّيّة ويائسة على فمه، وقالت بصوت أعلى، وإيقاع أشدّ توتّرًا وأعمق نفاذًا:

ـ إليك.. خذني، شُدَّ على أصابعي، إرفع جفوني، أسند صدرك إلى صدري. انبشني بيديك أو بجسدك. قبّلني طويلًا، طويلًا، إلى أن تتنفّس من فمي، إلى أن يمتزج فمانا فلا نعرف أحدهما من الآخر. إفعل بي ما تشاء كي أقترب منك، أقترب منك.. وأجبني: أنا هنا أتألّم. فهل تشعرين به، ألمي؟

فلم يفه بشيء، ورأيت رأسه، في كفن الغسق الذي يغلّفهما، ويغرق أحدهما فوق الآخر بلا جدوى، يرسم حركة الرفض اللّامجدية.. رأيت كلّ البؤس الذي يفوح من هذين المخلوقين اللّذين باتا لا يعرفان كيف يكذبان، بعد أن ضمّهما الظلام.

صحيح أنَّهما هنا، وأن لا شيء يجمع بينهما. ثمّة فراغ بينهما، مهما تكلّمت، وتصرّفت، وتمرَّدت، وثرت بحنق، وتخبّطت، وهدَّدت، فإنَّ العزلة تسحقك. إنَّني أرى أن لا شيء يجمع بينهما، لا شيء.

قالت:

ـ آه! لنكفّ عن الكلام، لنكفّ عن الكلام إلى الأبد عن الألم والفرح. فالتمييز بينهما مستحيل حقًّا. لكن حتَّى فهم الروح من قبل الروح شيء محرَّم. ليس في العالم كائنان اثنان يتكلَّمان اللغة نفسها. في بعض الأحيان، ودونما سبب نتقارب. ثم يبتعد أحدنا عن الآخر دونما سبب كافٍ. إنَّنا نتصادم، نتلاطف، نوجع ونشوّه بعضنًا بعضًا. إنَّنا نضحك حين يجب أن نبكي، دون أن نستطيع شيئًا أبدًا. إنَّ الحبّ بين مخلوقين شيء جنونيّ دومًا. لقد قلت ذلك أنت بنفسك، إنَّني لم أخترع هذه الجملة. لقد قلت لي، أنت الذي يتمتّع بكثير من الذكاء والمعرفة، إنَّ أيَّ متخاطبين هما أعميان واحدهما تجاه الآخر، وشبه أخرسين، وإنَّ أيّ عاشقين يعيشان معًا يظلّان غريبين عن بعضهما بعضًا غربة الريح عن البحر. إنَّ مصلحة شخصيّة، أو اتّجاهًا مختلفًا في العواطف والأفكار، أو سأمًا، أو على العكس اندفاعًا حادًّا للشهوة، تشوّش الاهتمام، وتمنعه من أن يكون صافيًا حقًّا. حين نصغي، لا نسمع شيئًا تقريبًا، وحين نسمع، لا نفهم شيئًا تقريبًا. إنَّ الحبّ بين مخلوقين شيء جنونيّ دومًا.

كان يبدو معتادًا على هذه المونولوجات الحزينة، الملقاة بلهجة واحدة، لهجة ابتهالات لامحدودة للمستحيل. فكان لا يجيب. كان يمسك بها، ويهدّدها قليلًا، ويدلّلها بحذر وحنان. كان يبدو أنَّه يتصرّف معها وكأنَّها طفلة مريضة يعالجها، دون أن يشرح لها شيئًا.. وهكذا كان بعيدًا عنها ما أمكنه البعد.

لكنَّه كان يضطرب لتماسّها به. كانت تختلج عليه بدفء، وإن كانت منهكة متخاذلة محزونة. كان يطمع في هذه الفريسة، وإن كانت جريحة. ورأيت العينين الشاخصتين إليها تلمعان بينما كانت تستسلم للحزن، واهبة نفسها له بأسرها: وشدّ نفسه عليها. إنَّها هي التي يريد. أمّا الكلمات التي تقولها، فكان يُلقي بها جانبًا، فهي بالنسبة إليه عديمة الأهمّية، ولم تكن لتدغدغه. كان يريدها، هي، هي!

يا للانفصال! كانا متشابهين للغاية في الأفكار والمشاعر، وكان كلٌّ منهما يساعد الآخر، في هذه اللّحظة، أوثق المساعدة. لكنّي كنت أتبيّن جيّدًا، أنا المتفرّج المتحرّر من البشر، بنظرتي التي تحوم، إنَّهما غريبان، وإنَّ كلًّا منهما لا يرى ولا يسمع الآخر، رغم ما يبدو عليهما.. فهي حزينة، منتعشة بعض الشيء بكبرياء الإقناع، وهو متهيّج ومشتهٍ، حنون وحيوانيّ. كانا يتجاوبان ما أمكنهما، لكنَّهما كانا لا يستطيعان الإِستسلام، ويحاول كلٌّ منهما قهر الآخر. وكان هذا النوع من القتال الرهيب يمزّقني.

فهمتْ شهوته. فقالت، شاكية، مثل طفل اقترف غلطة:

ـ إنّني مريضة..

ثم تملّكها جنون مسعور قاتم. فرمت، ورفعت، وأبعدت ملابسها، وتحرَّرت منها وكأنَّها تتحرَّر من سجن حيّ، وقدَّمت نفسها له، عارية تمامًا، مبذولة تمامًا، يجرحها الأنثويّ وقلبها.

..انفتح مدى الثياب الداكن الكبير وانغلق.

ومن جديد، تمَّ امتزاج الجسمين والمداعبة البطيئة الإيقاعيَّة التي لا حدّ لها. ومن جديد، نظرت إلى وجه الرجل بينما اللّذة تفترسه بأكمله. آه! إنّني أرى ذلك جيدًا، إنَّه وحيد!

كان يفكّر بنفسه، يحبّ نفسه. كان وجهه، المنتفخ بالأوردة، المحتقن بالدمّ، يحبّ ذاته. كان يبلغ درجة الوجه بواسطة المرآة، الأداة الجسديّة المعادلة له. كان يفكّر بنفسه، مشدوهًا. ولقي السعادة من كلّ جسمه ومن كلّ فكره. وتفجّرت، تفجّرت روحه، وشعّت، وتألّقت كلّها على وجهه.. وسبح بأسره في الفرح.. وكان يتمتم بكلمات عبادة. وكان يباركها، وقد تألّه بها.

إنّهما غير متّحدين، لأنّهما يرتجفان ويختلجان في آن واحد، ولأنّ بعضًا من جسدهما مشترك بينهما. بل على العكس، إنّهما وحيدان إلى حدّ الانبهار. إنّ كلًّا منهما يسقط، ولا يعرف أين، فاغر الفمّ والذراعين. أن يبلغا اللّذة معًا، يا له من تنافر!

إنّهما الآن ينهضان، يتحرّران من الحلم الذي وهن فجأة فألقى بهما أرضًا.

إنّه متجهّم مثلها. أحني لألتقط جملته، الخافتة كتنهّدة. وقال:

ـ لو كنت عرفت!

إنّ كلّا منهما يبدو عليه أنّه يجرّ نفسه ببطء نحو النافذة الرماديّة التي يغسلها شيء من النور، وقد استولى عليهما الخَوَر، وزادت ريبة كلّ منهما في الآخر، مع الجريمة التي بينهما، في الظلام الثقيل، في وحل المساء.

ما أشبههما الآن بما كاناه في ذلك المساء السابق! إنّه المساء السابق. لم أشعر قطّ إلى هذا الحدّ بأنّ الأعمال باطلة تمرّ كأشباح.

تأخذ الرجل رعدة، ولا تعود لديه القوّة، بعد أن قُهر وجُرّد من كلّ كبريائه، ومن كلّ حياته كذَكَر، ليتمالك نفسه عن الإدلاء باعتراف، اعتراف بحسرة مخزية. فتمتم وهو يزيد في خفض رأسه:

ـ لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من ذلك. إنَّه لقدر.

وتماسكت أيديهما، وارتجفا بوهن، لاهثين، ذاهلين، يسحقهما قلبهما.

قدر!

إنَّهما يريان إلى أبعد من الجسد ومن الفعل المنقضي، بكلامهما على هذا النحو. إنَّ الخيبة الجنسيّة وحدها لن تسحقهما إلى هذا الحدّ، تحت نير تأنيب الضمير والقرف. إنَّهما يريان إلى أبعد. إنَّهما يرزحان تحت عبء إحساس بحقيقة قاحلة، بجفاف، بعدم متعاظم، وهما يفكّران بأنَّهما قد حقَّقا ورفضا وعادا أكثر من مرّة، عبثًا، إلى مثلهما الأعلى الجسديّ الهشّ.

إنَّهما يشعران أنَّ كلّ شيء يمرّ، يهترئ، ينتهي، أنَّ كلّ ما لم يمت سيموت، وأنَّ الروابط الوهميَّة التي بينهما ليست هي نفسها دائمة. ودوّى صدى الكلمات الملهمة كذكرى من موسيقى رائعة مقيمة: «في الوقت الذي ينتهي في كلّ شيء، نكون وحيدين».

إنَّ هذا الحلم نفسه لا يقرِّب بينهما. بل على العكس. فكلاهما منحنٍ، في الوقت نفسه، في الاتّجاه نفسه.. الرعدة نفسها، الصادرة عن السرّ نفسه، تدفع بهما نحو اللّامتناهي نفسه. إنَّهما منفصلان بكلّ قوّة آلامهما. أن يتألّما معًا، واأسفاه، يا له من تنافر!

وإدانة الحبّ نفسه تخرج منهما، تنبع وتسقط منهما، في صيحة احتضار:

ـ أوّاه! حبّنا الكبير، حبّنا العظيم! إنَّني أشعر أنَّني أسلوه شيئًا فشيئًا!

كانت قد ألقت برأسها إلى الخلف، ورفعت عينيها. وقالت:

ـ أوّاه! المرّة الأولى!

وتابعت، بينما كان كلاهما يريان هذه المرّة الأولى التي التقت فيها، بين الكائنات والأشياء، أيديهما:

ـ كنت أعلم جيّدًا أنَّ هذا الانفعال كلّه سيموت ذات يوم، ورغم الوعود الحافلة، ما كنت لأودّ أن يمرّ الزمن.

«لكنّ الزمن مرّ. وبتنا لا نحبّ بعضنا بعضًا تقريبًا..».

وبدرت منه حركة سرعان ما همدت.

ـ لست أنت وحدك، يا حبيبي، الذي يذهب: أنا أيضًا. لقد حسبت للوهلة الأولى أنَّك وحدك الذي يذهب، ثم فهمت قلبي المسكين الذي لا يستطيع شيئًا، بالرغم من وجودك، ضدّ الزمن.

وقالت ببطء، وهي تنظر إليه، ثم تشيح بعينيها عنه لتعود فتنظر إليه فيما بعد:

ـ واأسفاه! ربّما قلت ذات يوم: «لم أعد أحبّك». واأسفاه، واأسفاه، ربّما قلت لك ذات يوم: «لم أحبّك قط!».

ـ هوذا القرح: إنّه الزمن الذي يمرّ ويغيِّرنا. وانفصال الكائنات التي تتجابه، ليس شيئًا إذا ما قورن به. بيد أنّنا نعيش، رغم هذا الانفصال. لكنّ الزمن الذي يمرّ! إنّنا نشيخ، نفكّر بطريقة أخرى، نموت. إنّني أشيخ، وأموت، أنا. لقد استغرقت زمنًا طويلًا قبل أن أفهم ذلك، تصوَّر. إنّني أشيخ. لست عجوزًا، لكنّي أشيخ. لقد خالطت شعري بضع شعرات بيض. الشعرة البيضاء الأولى، يا لها من مفاجأة! ذات يوم، وأنا منحنية على مرآتي، إستعدادًا للخروج، رأيت على صدغي خيطين أبيضين. آه! إنّه لشيء جدّي، هذا. إنّه الإنذار، الصريح، المباشر. ومرّة جلست في زاوية من غرفتي، وألقيت نظرة إجماليّة على وجودي كلّه، منذ البداية حتى النهاية، وأدركت أنّني أخطأت في كلّ المرّات التي ضحكت فيها.

شعرات بيض، أنا أيضًا! أنا، ليس غيري! أجل، أنا. لقد رأيت الموت حولي أكثر من مرّة، لكن موتي، أنا، لم أكن أعرفه. والآن، إنَّني أراه، وأدرك أنَّ العلاقة إنَّما هي بيني وبينه!

«آه! إن تفلت من بهوت اللون الذي يحطّ عليك، يغزوك، وكأنَّك شخص لا إرادة له، من الأعلى، من انطفاء لون الشعر الذي يجلّلك بشحوب الكفن، والرفات، وبلاط القبر..».

ونهضتْ وصاحتْ في الفراغ:

ـ أن نهرب من شبكة التجاعيد!

كانت تتابع:

ـ أقول لنفسي: «بكلٍّ تؤدة، تذهبين إليه، تصلين إليه. سييبس جلدك. وعيناك اللتان تبسمان حتى في الراحة الأبديَّة، ستبكيان بمفردهما.. ثدياك وبطنك ستذوي، كأسمال هيكلك العظمي. إنَّ سأم العيش سيفغر فكّك، الذي سيتثاءب باستمرار، وسترتجفين باستمرار، بسبب البرد الأعظم، وسيصبح وجهك بلون الأرض. كلماتك التي كان يجدها الناس ساحرة ستبدو كريهة حين تتهشّم. الثوب الذي كان يخفيك أكثر مما ينبغي، عن عيون جموع الذكور، لن يخفي بما فيه الكفاية عريك الممسوخ، وستشيح الأعين عنك، ولن يجرؤ أحد حتى على التفكير بك!».

كانت تختنق، منقبضة النفس، رافعة يديها إلى فمها، تختنق بالحقيقة، وكأنَّ لديها حقًّا شيئًا كثيرًا تريد قوله. وكان هذا عظيمًا مخيفًا.

وأمسك بها بين ذراعيه، تائه اللبّ. لكنَّها كانت وكأنَّها تهذي، يجتاحها ألم شامل. ولكأنَّها قد علمت لتوّها بالحقيقة المأتميَّة كما لو أنَّها نعي مفاجئ، حداد جديد.

ـ إنّني أحبّك، لكنّي أحبّ الماضي أكثر منك أيضًا. إنّني أريده، أريده، أذيب نفسي من أجله. الماضي! أوّاه! أترى، إنّني سأبكي، سأتألّم، ما لم يرجع إليّ الماضي.

«لكن مهما أحببناه، فلن يتحرّك ثانية.. الموت في كلّ مكان: في قبح ما كان لمدّة طويلة جميلًا، في قذارة ما كان نقيًّا صافيًا، في عقاب الوجوه التي كانت عزيزة، في نسيان ما هو بعيد، في العادة، في ذلك النسيان لما هو قريب. إنّنا نلمح الحياة لمحًا: الصباح، الربيع، الأمل. لكن ليس هناك إلّا الموت الذي يتاح لنا الوقت لرؤيته حقًّا.. منذ أن كان العالم، والموت هو الشيء الوحيد الذي يمكن لمسه. إنّما عليه نمشي وإليه نتّجه. ما الفائدة من أن أكون جميلة ويكون لي حياء: إنّهم سيطأون فوقنا. إنّ في بطن الأرض من الأموات أكثر ممّا على سطحها من أحياء. ونحن فينا من الموت أكثر ممّا فينا من الحياة. إنّ الموت لا يصيب فقط الآخرين ـ أحبّاءنا ـ الذين كانوا يشكّلون حولنا جوقة كاملة والذين تهدّموا الآن، بل يصيب أيضًا، عامًا فعامًا، الجزء الأكبر من أنفسنا. ومن لم يخلق بعد سيموت أيضًا. إنّ كلّ شيء تقريبًا ميّت.

«سيأتي يوم لن يعود لي فيه وجود. إنّني أبكي لأنّني سأموت حتمًا».

«موتي! إنّي لأتساءل كيف يمكننا أن نعيش ونحلم وننام، ما دمنا سنموت: إنّنا لمتعبون، إنّنا لسكارى.

«رغم المجهود اللّامحدود، الصابر، الأزلي، ورغم هجمات الحيويّة الكبيرة المتعمّدة، فإنّنا نسمع أكاذيب القدر في الأيمان التي نحلفها. إنّني أسمع ذلك، أنا. في كلّ مرّة يقال فيها: «أجل»، تتلوها فورًا «لا»، أقوى وأصحّ إلى ما لا نهاية، فتعلو وتستأثر بكلّ شيء.

«آه! ثمّة لحظات، في المساء على الأخصّ، يبدو فيها أنّ الزمن يتردّد، وقد روّضته وليّنته قلوبنا. فيرتسم أمام نظرنا سراب عذب تجمد

فيه الساعات. لكن هذا غير صحيح.إنَّ في كلّ شيء عدمًا لا يقهر، ونحن نمرّ مسمومين به.

«أترى، يا حبيبي، حين نفكِّر بهذا، نغفر، نبتسم، نعفو عن كلّ إنسان، لكنّ هذا النوع من الطيبة المقهورة أثقل من كلّ شيء».

كان يقبّل يديها، منحنيًا عليها. كان يغمرها بصمت دافئ ورع. لكنّي كنت أشعر أنّه سيّد نفسه، شأنه دومًا..

كانت تتكلَّم بصوت مغنّ متغيِّر:

ـ لقد فكّرت دومًا بالموت. ذات مرّة، اعترفت لزوجي بهذه الفكرة التي تسيطر عليّ. فذهب إلى الحرب بحَنَق. وقال لي إنَّني مخبولة وأنَّه يجب أن أعالَج. ودعاني لأن أكون مثله، هو الذي لا يفكِّر أبدًا بهذه الأشياء، لأنَّه متوازن العقل صحيحه.

«هذا غير صحيح. كان هو المريض بالاطمئنان واللّامبالاة: شلل، مرض رماديّ، وكان عماه عجزًا، وأمنه أمن كلب يعيش ليعيش، أمن حيوان ذي وجه بشريّ.

«ما العمل؟ الصلاة؟ كلّا. إنَّ الحوار الأبديّ الذي نكون فيه دومًا وحيدين لشيء ساحق. الاستغراق في هواية ما، الشغل؟ لا جدوى: أفليس الشغل هو ما يجب أن يُشغل دومًا من جديد؟ إنجاب أطفال وتربيتهم؟ هذا يوحي إليك في آن واحد أنَّك تنتهي، وأنَّك تعاود من جديد دونما جدوى. على كلٍّ، من يعرف!».

كانت المرّة الأولى التي تتراخى فيها:

ـ لقد فاتتني مذلّة الأمومة، وخضوعها، ومثابرتها. ربّما كنت وجدت فيها دليلًا للحياة. إنَّني يتيمة إلى طفل صغير.

ولم تفكّر لمدّة لحظة، وهي تغضّ الطرف، وتسبل يديها، وتوسّد عرش نفسها أمومة قلبها، إلّا بأن تحبّ وتتحسّر على الطفل الغائب، دون أن تتبيّن أنَّها إذا كانت تعتبره السلام الممكن الوحيد، فهذا لأنَّها لا تملكه..

ـ محبّة القريب؟ يقال إنَّها تنسّيك كلّ شيء.

وتمتمت، بينما كنّا نحسّ بقشعريرة البرد الممطر التي يبعثها المساء وكلّ فصول الشتاء التي كانت وستكون:

ـ أوّاه! أجل أن أكون طيّبة! أن أذهب للتصدّق معك على المساكين في الدروب المثلجة، في معطف كبير من الفرو.

وبدرت عنها حركة سأم.

ـ لست أدري!

«يُخيَّل إليَّ أن ليس هذا ما أريد. فهذا كلّه إن هو إلّا إضاعة للوقت وكذب. هذا لا يبدّل شيئًا من الحقيقة لأنَّه ليس من الحقيقة بشيء.. من سينقذنا! ثمّ، على فرض أنّنا أُنقذنا؟ سنموت، سوف نموت!».

وصاحت:

ـ أنت تعرف حقّ المعرفة أنَّ الأرض تنتظر توابيتنا وأنَّها ستحصل عليها. وهذا ليس ببعيد جدًّا.

وخرجت عن دموعها، ومسحت عينيها، واتّخذت لهجة موضوعيّة هادئة للغاية، حتّى إنَّها كانت توحي بالتيه:

ـ أودّ أن أطرح عليك سؤالًا. أجبني بصدق. هل جرؤت، يا حبيبي، حتى في أغوار سرّك، أن تحدّد لنفسك تاريخًا، تاريخًا بعيدًا نسبيًّا، لكنَّه محدَّد، مطلق، من أربعة أرقام، وتقول لنفسك:

ـ حتى لو بلغت منتهى الشيخوخة، فإنّني، في هذا التاريخ، سأموت ـ في حين أنَّ كلّ شيء سيستمرّ، وأنَّ مكاني الفارغ سيتلاشى أو يُملأ من جديد، شيئًا فشيئًا؟

واضطرب لدقّة هذا السؤال ووضوحه. لكن، كان يخيَّل إليَّ أنّه كان يسعى على الأخصّ إلى تجنّب الردّ عليها بجواب يزيد في حدّة الفكرة المسيطرة عليها. بديهيّ أنَّه كان يفهم كلّ هذه الأشياء (التي يتردّد فيها أحيانًا، كما قالت، صدى عباراته)، لكنَّه كان يبدو عليه أنَّه يفهم نظريًّا، على ضوء الأفكار الكبيرة وفي حمّى فلسفيَّة أو فنّيَّة متميِّزة من حساسيَّته، في الوقت نفسه الذي كانت هي مختلجة مسحوقة تحت وطأة الانفعال الشخصيّ، وتفكيرها ينزف دمًا.

لبثت منتبهة، ساكنة. ثم تابعت، بعد تردُّد، بصوت خافت، وبسرعة أكبر، في اختلاجة أكثر يأسًا لتفتّح ألمها الكبير هذا:

ـ البارحة، ألا تدري ماذا فعلت؟ لا توبّخني. لقد ذهبت إلى المقبرة، في «بير لاشيز». ذهبت عبر الممرّات، ثم بين القبور، حتى ضريح أسرتي، الضريح الذي سيفغر فاه لينزل إليه تابوتي بالحبال. وقلت في نفسي: ههنا ستنتهي جنازتي، ذات يوم، ذات يوم قريب أو بعيد، لكن ذات يوم، حتمًا ـ في حوالى الحادية عشرة صباحًا. كنت متعبة، مرغمة على الاستناد إلى قبر. وعلى أثر عدوى الصمت والرخام والتراب، تجلّت لعينيَّ رؤيا دفني. كان الموكب يصعد بمشقّة. وكان لا بدّ من شدّ أحصنة عجلة الموت من العنان (رأيت ذلك عدّة مرّات، في هذا المكان). كان شيئًا يُرثى له تسلّق هذا الدرب في مثل هذه الظروف. كان كلّ من يعرفني، ويحبّني، ههنا، في ثياب الحداد. وتجمّع الحضور، متفرّقين، بين الشواهد (إنّها لسخافة هذه الحجارة الثقيلة جدًّا فوق الموتى!) والأنصاب، المغلقة كمنازل، في ظلّ ذلك القبر الذي له

شكل كنيسة صغيرة، المحاذي لذلك القبر الآخر المغطّى بمربّع من الرخام الجديد ـ رخام سيظلّ جديدًا بما فيه الكفاية ليحدث اللطخة الناصعة نفسها. كنت فيها.. في عجلة الموت ـ أو بالأحرى لم أكن أنا. كانت «هي» فيها.. وكان الجميع، في تلك اللحظة، يحبّونني برهبة. وكان الجميع يفكّرون بي، يفكّرون بجثماني. إنَّ في موت امرأة شيئًا من العهر، لأنَّ الموت يشملها كلّها.

«وأنت، كنت أيضًا هناك، ووجهك المسكين الصغير متشنّج بألم وتصميم صامتين ـ وحبّنا الكبير لم يعد إلّا أنت وصورتي، وقد انتزع منك الحقّ في الكلام عنّي.. وفي النهاية، انصرفت، وكأنَّك لم تحبّني قط.

«وقلت في نفسي، وأنا راجعة متجمّدة، إنَّ هذا الكابوس هو أكثر الحقائق واقعيَّة، وإنَّه الشيء البسيط، الحقيقيّ كلّ الحقيقة، وإنَّ كلّ الأعمال التي كنت أحياها ملء الحياة كانت سرابًا هامشيًّا».

وصدرت عنها صرخة مخنوقة إرتعدت لها بكلّ خلاياها، لمدّة طويلة.

ـ أيّ أسى جررته معي حتى البيت! كان حزني قد عتّم كلّ شيء في الخارج، رغم أنَّ الشمس كانت تقدح شررًا. يا للتخريب الذي يحدثه الإنسان حوله في الطبيعة كلّها، يا لعالم الألم الذي يحلّه في العالم! لا يمكن للجوّ الجميل أن يصمد حين يتقدّم الحزن.

«كان كلّ شيء يبدو لي مصعوقًا، محكومًا بالموت، من قبل ملاك الحقيقة الشرّيرة الذي لا نراه أبدًا.

«وتبدّى لي البيت كما هو حقًّا، في صميمه: عاريًا، مثقوبًا، مبيضًّا..».

وتذكّرت، فجأة، شيئًا كان قد قاله لها، تذكّرته بدهاء استثنائي، ومهارة مثيرة للإعجاب، كي ترغمه مقدمًا على إطباق فمه، وكي تتعذّب أكثر.

ـ آه! إليك، أسمع.. أتذكَّر.. ذات مساء، على نور المصباح. كنت أتصفَّح كتابًا. كنت تنظر إليَّ. اقتربت منِّي، وركعت. طوّقت خصري، وضعت رأسك على ركبتي، وبكيت. إنَّني لا أزال أسمع صوتك، كنت تقول: «أفكِّر بأنَّ هذه اللحظة لن يعود لها وجود. أفكِّر بأنَّك ستتغيَّرين، ستموتين، بأنَّك ستمضين ـ وأنَّك الآن هنا مع ذلك!.. أفكِّر، متأجِّجًا بحميّة عظيمة للحقيقة: ما أثمن الأوقات، ما أثمنك أنت التي لن تكون أبدًا كما هي، وأبتهل وأعبد يدك التي يعجز اللسان عن وصفها في هذه اللحظة». لقد نظرت إلى يدي، ووجدتها صغيرة وبيضاء، وقلت إنَّها كنز فائق، كنز سيختفي. ثم كرَّرت: «أعبدك»، بصوت مرتجف للغاية، بحيث إنَّني لم أسمع قطّ جملة أصحّ وأجمل من هذه الجملة، ذلك أنَّك كنت على حقّ مثل إله.

«وشيء آخر أيضًا: لقد أخفيت وجهك بين يديك، مساء يوم قضينا فيه فترة طويلة معًا، دون أن يستطيع أيُّ شيء تبديد همومك الكئيبة، وقلت لي هذه العبارة الفظيعة التي تغلغلت في نفسي واحتلّت مكانها في القرح: «إنَّك تتغيَّرين، لقد تغيَّرتِ. لا أجرؤ على النظر إليكِ، خوف ألَّا أراكِ!».

«أتعرف، إنَّما في ذلك المساء حدّثتني عن الأزهار المقطوعة. كنت تقول: جثث أزهار، وتشبّهها بعصافير صغيرة ميّتة. أجل كان مساء تلك اللعنة الكبيرة التي لن أنساها أبدًا، والتي صحت بها على حين غرّة، وكأنَّ قلبك مثقل بالأزهار المقطوعة.

«ألا كم كنت على حقّ إذ شعرت أنَّ الزمن يقهرك، إنَّك مُذلّ، وإذ قلت إنَّنا لا شيء ما دام كلّ شيء ينقضي وما دمنا نصل إلى كلّ شيء»..

كان الغسق يجتاح الغرفة ويطوّح وكأنّه ريح سموم بهذين المخلوقين المسكينين المستغرقين في النظر إلى أسباب الألم، وفي التنقيب في البؤس ليعرفا ممّا هو مصنوع.

ـ المكان، الذي هو دومًا بيننا. الزمان، الزمان المربوط بنا كمرض.. إنَّ الزمان أقسى من المكان. إنَّ في المكان شيئًا ما ميّتًا، لكنَّ الزمان فيه شيء ما مميت. إنَّ كلّ الصموت، أترى، كلّ القبور، لها في الزمان قبرها.. يا للشيئين المرئيَّين والحقيقيَّين اللذين يتصالبان فوقنا في النقطة المحدَّدة التي نحن فيها! إنَّنا مصلوبون. لا كالإله الطيّب الذي صُلب جسديًّا على صليب. لكنَّنا (كانت تشدّ ذراعيها على جسدها، وتنكمش، وكانت صغيرة جدًّا) مصلوبون على الزمان والمكان.

وكانت تبدو لي بالفعل مصلوبة في كلا اتجاهيْ صلاتها، وحاملة في قلبها الآثار الدامية لعذاب الحياة الكبير.

كانت متألّقة بكلّ قواها، كانت تشبه جميع من رأيتهم في مكانها عينه، ومن كانوا يريدون، مثلها، أن ينتزعوا أنفسهم من العدم وأن يعيشوا أكثر، لكنَّ أمنيتها هي كانت السلام كلّه. كان قلبها المتواضع العبقريّ يذهب، بكلّ تدفُّقه، من الموت كلّه إلى الحياة كلّها. كانت عيناها مصوّبتين نحو النافذة البيضاء، ويختلج على اشرئباب وجهها إلى السماء أعظم طلب ممكن، أعظم الرغبات الإنسانيَّة.

ـ أوّاه! أوقفه، أوقف الزمان الذي يمرّ، إنَّك لست إلَّا رجلًا مسكينًا، لست إلَّا قليلًا من الوجود والأفكار التائهة في أعماق غرفة، وإنّي لأسألك أن توقف الزمان، أسألك أن تمنع الموت!

وانطفأ صوتها، وكأنَّها لم تعد تستطيع أن تقول شيئًا، وقد استهلكت واستنفدت كلّ رجائها. وهوت في صمت بائس.

قال لها الرجل:

ـ واأسفاه!..

نظر إلى دموع عينيها، وصمت فمها.. ثم حنى جبينه. لعلّه ترك نفسه تستغرق في أسمى يأس، لعلّه استيقظ للحياة الداخليّة الكبرى.

حين رفع رأسه من جديد، شعرت شعورًا مبهمًا بأنَّه قد عرف بما يجب أن يجيب، إلَّا أنَّه كان لا يعرف بعد كيف يعبِّر عنه ـ وكأنَّ عبارته كلّها ستكون صغيرة أكثر ممّا ينبغي.

وكرّرت وهي ترفع رأسها، ناظرة إليه، آملة في التناقض المستحيل، كطفل يطلب نجمة:

ـ هذه هي حقيقتنا!

فتمتم:

ـ من يدري ما هي حقيقتنا..

قاطعته، بحركة لامتناهية السأم، تشبه، بمجدها اللّاواعي، ضربة منجل الموت، وبصوت لا لهجة فيه، وبعينين فارغتين:

ـ أعرف ما ستقوله. ستحدِّثني عن جمال الألم. آه! إنَّني أعرف أفكارك الجميلة. إنَّني أحبّها، يا حبيبي، نظرياتك الجميلة. لكنِّي لا أؤمن بها. كنت آمنت بها لو كانت تعزِّيني وتمحو الموت.

وتمتم، بجهد ظاهر، غير واثق من نفسه كثيرًا، يبحث عن صوت:

ـ لعلّها ستمحوه لو آمنتِ بها..

ـ كلّا، إنَّها لا تمحوه، هذا غير صحيح مهما قلت، فإنَّ أحدنا سيموت قبل الآخر، وسيموت الآخر بعده. ما جوابك على هذا، قل، ما جوابك؟ أوّاه! أجبني! لا تجب جوابًا غير مباشر، بل على هذا بعينه. أوّاه! ابعث الاضطراب في نفسي، غيّرني بجواب يعنيني، شخصيًّا، كما أنا هنا!

كانت قد استدارت نحوه، وأخذت يده بين يديها الاثنتين. كانت تسأله بكلّ نفسها، بصبر يُرثى له، ثم انسابت على ركبتيها أمامه، كجسم بلا حياة، وانسحقت أرضًا، غارقة في أغوار اليأس وتحت السماء، وتضرَّعت إليه:

ـ أوّاه! أجبني. سأكون سعيدة جدًّا لو بدا لي أنّك تستطيع ذلك!

كانت تمدّ يدها، تومئ بإصبعها إلى الرؤية المهيمنة: الحقيقة الأليمة التي وجدت صيغتها، وجدت أوسع اسم للشرّ: المكان الذي يضمّنا، الزمان الذي يمزّقنا.

وردَّد وهو منحنٍ عليها وكأنَّه على حافة هوَّة استجواب، في الغرفة التي جعلها الغسق واطئة ضيّقة، والتي تتكشّف فيها السماء المسكينة عن المكان، وتؤكّد فيها الساعة الزمان برتابة.

أنعرف حقيقتنا! كلّ ما نقوله، كلّ ما نفكّر به، كلّ ما نؤمن به، غير موثوق كثيرًا. لا ندري شيئًا. ليس ثمّة شيء متين.

فصاحت:

ـ بلى، أنت مخطئ: هناك، مع الأسف، هناك ألمنا وحاجتنا، الكاملان المطلقان. إنَّ بؤسنا هنا: إنَّنا نراه ونلمسه. على فرض أنَّنا أنكرنا كلّ شيء، لكن تسوّلنا، من يستطيع إنكاره؟

فقال:

ـ أنتِ على حقّ، إنَّه الشيء الوحيد المطلق الكائن.

كان صحيحًا ما تقوله، كان صحيحًا أنَّه منظور، ملموس، على وجهيهما المشدوهين..

ردَّد:

ـ نحن الشيء الوحيد المطلق الكائن.

كان يتشبَّث بذلك. فقد شعر بوجود نقطة ارتكاز بين طيران الزمان. كان يقول «نحن..». فكأنَّه وجد الصيحة ضدّ الموت، فراح يردِّدها. كان يحاول: «نحن.. نحن..».

تأمّلتُ، في غسق الغرفة الذي أضحى بلا أفق الآن، الرجل، مع المرأة عند قدميه، كسحابة وكقاعدة تمثال. كان جبينه، يداه، عيناه، كلّ ضيائه الثقيل، تبرز كثريّا من النجوم.

وكان شيئًا عظيمًا أن أراه قد بدأ يقاوم.

ـ نحن ما يدوم.

ـ ما يدوم! نحن على العكس ما ينقضي.

ـ نحن من يرى الانقضاء. نحن ما يدوم.

فهزّت كتفيها، في سيماء من احتجاج، وعدم فهم. وكان صوتها شبه حاقد.

ـ أجل.. كلّا.. من الجائز، إذا شئت.. بعد كلّ شيء، ما يهمّني ذلك؟ إنّه لا يعزّيني.

ـ من يعرف إن لم نكن بحاجة إلى الحزن والظل، لنبدع فرحًا ونورًا.

ـ قد يوجد النور بدون ظلّ.

فقال بعذوبة:

ـ كلّا.

ـ فأجابت للمرّة الثانية:

ـ هذا لا يعزّيني.

ثم تذكّر أنّه قد سبق أن فكّر بهذه الأشياء جميعًا..

قال، بصوت مختلج، واحتفاليّ قليلًا، كأنَّه اعتراف:

ـ إسمعي. لقد تخيَّلت مرّة مخلوقين يشارفان خاتمة الحياة، ويتذكَّران كلّ ما قد تألّما منه.

فقالت خائبة:

ـ قصيدة!

فقال:

ـ أجل، قصيدة من تلك القصائد التي قد تكون جميلة جدًّا!

شيء غريب: كان يبدو أنَّ حماسته تزداد تدريجيًا. كان يبدو صادقًا للمرّة الأولى، لحظة ترك مثال مصيرهما المختلج ليتشبَّث بصورة خياله. لقد ارتعد، عند حديثه عن تلك القصيدة. كنت أشعر أنَّه سيصبح حقًّا نفسه وأنَّه مؤمن. كانت قد رفعت رأسها لتصغي إليه، مدفوعة بحاجتها العنيدة إلى الكلام، وإن لم تكن لها فيه ثقة.

قال:

ـ إنَّهما هنا. الرجل والمرأة. إنَّهما مؤمنان. إنَّهما عند نهاية المطاف، وهما سعيدان بالموت لأسباب تجعل الحياة حزينة. إنَّهما أشبه بآدم وحواء يفكّران بالفردوس الذي سيعودان إليه.

فسألت إيميه:

ـ ونحن، هل سنعود إلى فردوسنا؟ فردوسنا الضائع: البراءة، البداية، البياض! واأسفاه، لكم أؤمن بهذا الفردوس!

قال:

ـ البياض، هو ذاك. الفردوس هو النور. أمّا الحياة الأرضيَّة فهي الظلام: هذا هو موضوع القصيد الذي ألّفته: نورًا يريدان، وظلًّا كانا.

فقالت إيميه:

ـ مثلنا.

.. كانا هما أيضًا، هنا، بالقرب من الظلمة المتحرّكة قليلًا، أشبه بجهد شاحب يصبو إلى شحوب السماوات شبه الممحوّ بصوتهما وبأفكارهما اللّامرئيَّة..

ـ هذان المؤمنان يطلبان الموت كما يطلب الناس الرزق. وفي ذلك اليوم الفائق، تغيَّرت أخيرًا كلمة في الصلاة اليوميَّة: الموت بدل الخبز.

«حين يعرفان أنَّهما سيموتان أخيرًا، يشكران. كنت أريد أن يشرق فعل الحمد هذا قبل أيِّ فعل غيره ـ كالفجر. ويمدّان إلى اللّـه أيديهما وفميهما المظلمين، وقلبيهما المعتمين، ونظراتهما التي لا تشعّ نورًا، ويسألانه أن يشفي ظلامهما الذي لا دواء له.

«وتخطر لهما فكرة أثناء تضرّعهما. إنَّهما يريدان أن يتعرَّيا من الظلمة لأنَّها تعترض سبيل النور الإلهي: فهما لم يلمحا من هذا النور، من خلال إنسانيَّتهما، إلا انعكاسات أو بارقات خاطفة، ويريدان كلّيّة ذلك الإله الذي لم يريا منه إلّا شرارات شاحبة في السماء. فيصيحان: «أعطنا، أعطنا صدقة الشعاع الذي يغلّفنا انعكاسه أحيانًا كحجاب، والذي يسقط من اللّانهاية حتى النجوم!..

«ويرفعان أذرعهما الممتقعة كشعاعين مسكينين ثقيلين لامتناهيِّي الصِّغر..».

«وكنت، أنا، أتساءل إن لم يكن المخلوقان اللذان يتكشَّفان لناظريَّ قد غرقا من الآن في ليل الموت، إن لم تكن روحهما المشتركة قد جاءت تطرق سمعي، وهي تلفظ نفسها الأخير..

إنَّ الشعر يعبِّر عنهما، يومئ إليهما. إنَّه ينقذ حياتهما، على دفعات، من الصمت والمجهول. إنَّه يتلاءم بدقّة مع سرّهما العميق. وحنت

المرأة، من جديد، عنقها، وقد تعاظم إرهاقها. إنَّها تصغي إليه. إنَّه أكثر أهمِّيَّة منها، إنَّه أجمل من جمالها.

وينكفئان على نفسيهما. إنَّهما يستعرضان، وهما على عتبة السعادة الأبديّة، العمل الحيويّ الذي أنجزاه بكلّ دقائقه. كم من أحزان، كم من هواجس، كم من مخاوف! إنَّهما يقولان كلّ ما كان ضدّهما، لا ينسيان شيئًا، لا يضيّعان شيئًا، لا يبدّدان شيئًا من الماضي الرهيب. أيُّ قصيدة هي قصيدة البؤس الذي يرجع دفعة واحدة!

«الضرورات الفظّة في البداية. الطفل يولد. صرخته الأولى شكوى: الجهل شبيه بالمعرفة. ثم المرض، والألم وكلّ تلك التأوُّهات التي نغذّي بها صمت الطبيعة اللّامبالي. العمل الذي يجب أن نناضل ضدّه من الصباح إلى المساء، لنستطيع، حين لا تعود بنا قوّة تقريبًا، أن نمدّ يدنا نحو كومة متداعية من الذهب مثل كومة من الخرائب. كلّ شيء، حتى القمامات الحقيرة، حتى التدنّس، حتى اتّساخ الغبار الذي يترصّدنا والذي علينا أن نتطهّر منه في كلّ لحظة ـ وكأنَّ الأرض تحاول أن تنالنا، دونما نصَب، حتى الدفن النهائي. والتعب الذي يذلّنا، ويطرد من الأوجه البسمة، فيقفر بسببه المنزل، مساء، إلَّا قليلًا، بأشباحه المهتمّة بالراحة!».

.. إيميه تصغي، تقبل. عند هذه اللحظة وضعت يدها على قلبها، وقالت: «يا للمسكينَيْن!». ثم اضطربت بوهن، وأدركت أنَّها تذهب إلى أبعد ممّا ينبغي. إنَّها لا تريد هذا القدر من السواد ـ إمّا لأنَّها تعبة، أو لأنَّ اللوحة، وقد حقَّقها صوت آخر، تبدو لها مغالى فيها.

وتحتجّ امرأة القصيدة في هذه اللحظة أيضًا، باتّحاد عجيب بين الحلم والواقع.

ـ المرأة ترفع عينيها وتقول، بحياء، لتحتجّ: «الطفل.. والطفل الذي جاء ليعيننا..». فيجيب الرجل: «الطفل الذي نجعله يعيش، وندعه يموت!».. إنَّه لا يريد تمويه الألم، ويجد في الماضي من التعاسة أكثر ممّا يُظنّ. إنَّ في بحثه نوعًا من الكمال. إنَّ حكمه على الحياة جميل كالدينونة الأخيرة: «الطفل الذي لا يزال الجرح البشريّ ينزف منه. أن نخلق، أن نعيد صنع قلب، أن ننجب تعاسة. إنَّ الإنجاب ليس إلَّا تضحية بمخلوق! ليس إلّا إنسالًا لأنين جديد وعواء، ألم الوضع. إنَّه لا ينتهي أبدًا، إنَّه يتعاظم هواجس، وسهرًا..». وهذا هو كلّ هوى الأمومة، التضحية، البطولة عند وسادة الروح الصغيرة المترنّحة، والسهر ونحن لا نكاد نجرؤ على التنفُّس، بسيمائنا السعيدة في لحظة قلقنا المبلّل بالدموع والابتسامات الباكية.. والحيرة دومًا: «تذكّري نهاية العمل، وعذوبة الجلوس الحزينة، مساء، عند مغرب الشمس.. أوّاه! كم من مرّة، داعبت يداي، مساء، جباه الأحبّة، وعيناي مصوّبتان إلى الأفراخ التي ترتجف، باستمرار، وقد أنقذت بصعوبة، ثم أسبل ذراعيّ العزلاوين، وأجلس هنا، باكيًا، قد قهرني ضعف أطفالي!..».

ولم تستطع إيميه منع نفسها من حركة. وخُيِّل إليّ أنّها ستقول له إنَّه كان فظًّا..

ـ ويكبران، ثم.. يقول ملتهب النظرة: «قايين!». فتقول ناحبة الصوت: «هابيل!». إنَّها تتألَّم لذكرى الولدين اللذين تركاها، وتصارعا. لقد صرعاها هي، إذ إنَّهما كانا في قلبها، فكأنَّهما ما زالا في جسدها. ثم تناديها ذكرى أخرى بصوت خافت. إنَّها تفكِّر بالوليد الصغير الذي مات: «الصغير، خيرهم.. إنَّه لم يعد موجودًا، وأنا، أنا التي تنظر إليه دونما انقطاع!». وتمدّ ذراعها في المستحيل، وتئنّ تمزّقها القبلة الفارغة: «إنَّه لم يعد موجودًا، وأنا التي تداعبه!». ويزمجر الرجل: «الموت. خبث

المعبودين، الطيبة الفاجعة التي تغادرنا»، وتصدر عنها هذه الصيحة الفائقة: «أوّاه! يا لعقم المرأة حين تكون أمًّا!».

كنت أحلّق بصوت الشاعر الذي كان يلقي شعره وهو يهزّ كتفيه هزًّا خفيفًا، وقد استولى الإيقاع على نفسي. كنت أحلّق حتى الحلم المتحقّق..

ـ ثم يريان نفسهما قد هجرهما أولادهما، ما إن يكبر هؤلاء ويقعوا في الحبّ. «الولد يتركنا، سواء أكان ميّتًا أم حيًّا، لأنَّ من المستعذب أن يكره المرء الشيخوخة حين يكون فتيًّا قويًّا نيّرًا، ولأنَّ الربيع الرهيب يبتلع الشتاء، ولأنَّ القبلة لا تكون عميقة إلّا على شفاه جديدة. إنَّ مداعبتنا اللّامحدودة تصبح، أيا أمهات، أرمل. إنّك ستهجر أباك وأمك وتهرب من عناق أذرعهما العقيم الثقيل..».

فكّرت بالمشهد الذي رأيته أنا في مساء سابق، المشهد نفسه الذي يتحدّث فيه هذا الرجل، فكّرت بتلك المأساة في حياتي. أجل، لقد كان الأمر هكذا. لقد طوّقت المرأة العجوز العاشقين الصغيرين اللذين لم يتسنّ لهما الوقت ليفترقا بقبلة لامجدية، قبلة تائهة، كان على حقّ، هذا المنشد الغامض، هذا المغنّي الغامض، هذا المفكّر.

ـ لا ملاذ من تعاسة الحياة التي لا تكلّ حتى ولا في النوم: «إنّنا ننسى.. إذ ننام ليلًا.. ـ كلّا، بل نحلم. إنَّ الراحة تمتلئ بالذكريات، بالأشباح الحقيقيّة. نومنا لا ينام أبدًا: بل يحتضر.. ـ أحيانًا يداعبنا بأشكاله الرماديّة، الحلم الذي نحلم به ـ إنّه يؤلمنا دومًا: إذا كان حزينًا جرح ليالينا، وإذا كان عذبًا جرح نهاراتنا..».

وتتمتم الزوجة: «بيد أنّنا كنّا معًا».. وينظران إلى الحبّ. عند نهاية العناء، كانا يذهبان معًا ليمزجا طوال الليل الراحة بالحنان.. «لكن كان أحدنا للآخر لِلَحْظة ليلًا.. حين كنّا نبحث، بين كلّ الدروب، عن دربنا،

وحين كنّا نهرع، يلفّنا الظلام، نحو المسكن الذي لم يغلق جيدًا، وكأنّنا نهرع إلى حطام سفينة في حضن الأمواج قاطبة، وحين كانت الظلمة تمتزج، في أعماق الوادي، بالثوب المهترئ، الوضيع كأنّه مجلود، كانت عيناي تحت الأشعة التي تنطفئ جوقات جوقات، تريان نبض قلبك شبه العاري. كنّا نقول ونحن وحيدان.. ـ كنّا نقول: إنّني أحبّك..».

«لكن ليس لهذه الكلمة، واأسفاه، من معنى، لأنَّ كلّ إنسان وحيد، ولأنَّ الصوتين، مهما كانا، يتهامسان بأسرار غير مفهومة. وهذه هي اللعنة ضدّ العزلة المحكوم بها عليهما: «يا لفراق القلوب، يا للتراب المتكدّس فوق كلّ منهما، يا لصمت الفكر الفظيع»! كنّا عاشقين، يبحث أحدنا عن الآخر إلى ما لانهاية. كنّا هنا، ولم يكن من شيء يجمع بيننا، ولم نكن، على قربنا وارتعادنا تحت الكواكب المتربّعة عرش السماء، إلّا صدفتين».

قالت إيميه:

ـ آه! أتعترف بهذا في قصيدتك! كان عليك ألّا تفعل ذلك. إنَّ ما تقوله لَحقيقيّ أكثر ممّا ينبغي.

ـ .. ثمّ كانت تأتي لحظة القبلة والعناق. لكنَّ الجسدين باتا لا يتداخلان أكثر من تداخل الأيدي، رغم جسارة الفكر، ولم يكن ما بينهما اتّحادًا، بل هذيانًا لأحدهما على الآخر.

قالت إيميه وهي ترتجف بكلّ خلاياها من عار مزدوج:

ـ أعرف.

ـ وفي ساعات اليأس، لم تكن العظمة إلّا لتزيد في انعزالهما: «كانت أعيننا، ونحن منكفئان في جسدينا وكأنّنا في أكفاننا، تمزج دموعها، بينما كان قلبانا يبكيان على حدة. كنت أراكِ هشّة لامتناهية وعميقة. كنت تبكين.. شعرت أنّ كلًّا منّا عالم».

ـ هكذا، يتبدّى البؤس والشرّ بكاملهما في ضمير كبير لا يسامح على شيء. لقد انتهت اللّعنة. بل إنَّ الحياة انتهت بالأصل. إنّها المرّة الأخيرة التي يعودان فيها إلى هذه الأشياء.

«تنظر المرأة إلى الأمام، بالفضول نفسه الذي أحسّت به عند دخولها الحياة. إنَّ حوّاء تنتهي كما بدأت. إنَّ روحها، روح المرأة الرهيفة الحيَّة، تصعد نحو السرّ وكأنَّها قبلة على شفاه حياتها. كانت تودّ أن تكون سعيدة..».

كانت إيميه تزداد اندماجًا بكلمات رفيقها. كانت اللعنة أخت لعنتها، قد منحتها ثقة. لكن يُخيَّل إليَّ أنَّها قد ازدادت نحفًا أمامنا. كانت منذ هنيهة، تسيطر على كلّ شيء، أمّا الآن فهي تصغي، تنتظر مبهورة.

قالت في إحدى اللحظات:

ـ نحن أيضًا، أليس كذلك؟

إنَّه لمثير هذا العمل المزدوج بالحياة والفنّ. إنَّه غنائيّ. إنَّه مأساويّ. إنَّهما في آن واحد مبدعان، وممثّلان، وضحيَّتان. لقد بتّ لا أعرف ما هما. ليس هناك إلّا حقيقة كبرى واحدة، هي نفسها بالنسبة للكلمات والمصير. أين تبدأ المأساة التي يلعبانها، والمأساة التي تلعب معهما؟

ـ كان ورع عظيم يلتهمهما بالرجاء: «إنَّني أؤمن باللّـه، ولم أعد أؤمن بنفسي!». لكنَّ الفضول، الذي لا يكلّ، يتراخى. كيف سيكون الفردوس، كيف لن نعود نتألّم؟.

قال: لقد لمحنا الفردوس لمحًا باهتًا على الأرض. الآمال، الانفعالات، الصبوات ومكافآت الكبرياء الداخليّة، لقد كان هذا كلّه بعضًا من الفردوس. كان أشبه بلحظات خاطفة من معاينة اللّـه.. لكن

سرعان ما حجبت دناءتنا وسوادنا الإنسانيّ هذه اللحظات. أمّا الآن، فإنّ طريقنا الحزين سينهار، وسنعاين اللّـه إلى ما لا نهاية. وتتابع المرأة: «إلام سأصير، أنا؟».

قالت إيميه: إنَّها على حقّ. فبمَ يجب أن يجيبها، بعد كلّ شيء؟

ـ إنَّه يثبّت لها أنّ السعادة التامة كيان تفلت طبيعته منّا. إنَّنا لا نستطيع أن نلمس الأبديَّة، وأكثر من ذلك لا نستطيع أن نجرِّبها. يجب أن نترك اللّـه يعمل، وأن ننام كأطفال في ليل ليالينا.

فقالت إيميه:

ـ على كلٍّ..

ـ لكنّ المرأة، وقد وقعت فريسة التكهّن بالغيب راح يأسرها شيئًا فشيئًا، طرحت من جديد السؤال الحيّ الذي لا حلّ له: «إلامَ سنصير؟».

«ومن جديد أجابها بما لن نصير إليه. ورغم أنَّه كان يريد أن يقول شيئًا إيجابيًا، إلا أنَّ الحقيقة استولت عليه ووجّهته نحو النفي: «لن نكون كما نحن عليه الآن بأسمالنا، بأجسادنا، بدموعنا..». ويستغرق في ظلامه لينفيه. وتصيح مرتعدة: «إلامَ سنصير؟» ـ لا ظلام بعد الآن، لا فراق، لا ذعر، لا شكّ، لا ماضٍ، لا مستقبل، لا شهوة: إنّ الشهوة فقيرة لأنَّها لا تُملك. لا أمل.

ـ لا أمل؟..

ـ الأمل بائس لأنَّه يأمل. لا صلاة: فالصلاة لاغية، هي أيضًا، لأنَّها صيحة تعلو وتهجرنا.. لا ابتسامة: أليست الابتسامة دومًا نصف حزينة؟ إنَّ المرء لا يبتسم إلّا لكآبته، لقلقه، لعزلته السابقة، لألمه الذي يهرب: الابتسامة لا تدوم، لأنَّها إذا دامت لا تعود ابتسامة. إنَّ طبيعتها أن تكون محتضرة.. ـ «لكن إلامَ سأصير أنا، أنا!». إنَّ هذه الصيحة «أنا!» تحتلّ

شيئًا فشيئًا المكان كلّه، وتتوتّر، وتنادي. مرّة أخرى، يرمي إليها بعبارات وهميّة، لأنَّها تطلب منه ما سيكون فيكون جوابه ما لن يكون. ويعدّد من جديد الأوجاع المكابدة، علّه يطرد بها سؤالها. إنَّه يستخرجها من طوايا السرّ. يعترف بما لم يعترف به قطّ. «ثمّة أشياء قد أخفيتها عنكِ دومًا. كنت أقول ذلك لكنَّني كنت أكذب». كان لا يتورّع حتى عن الاختراع، لحاجته لأن يجد شيئًا يجيب به على سؤالها البسيط للغاية. كان يجزّئ الشهوات، وكانت كلّ مزقة من مزق عباراته تحيي جهنّمًا. لقد اشتهى كلّ شيء: مال الغير، مصير الغير، المجد، وحشدًا خالدًا. بل لقد لمّح إلى مأساة كاملة قتلت فيه، فتشنّجت، وسكنت، لمَّح إلى قصيدة كبرى ممكنة: «جحيم أكثر رهبة وهولًا أيضًا: ابنتنا التي كانت تشبه فجركِ!». ولم يذعن لشهواته، ولم يفعل شيئًا سوى أن تحمّلها بمزيد من الألم. لقد حمل في باطنه، متصنّعًا الهدوء، التجربة الأبديَّة: «كانت مسمّرة فيّ، لكن بكاملها وبكلّ كبرها.. أوّاه! كان الشرّ المكتوم، الجاثم على قلبي، الخفيّ، المعذّب، الشرّ الذي لم أقترف!».

«ولقد اشتهى علاوة على ذلك كلّه الماضي، وها هو يذكر ذلك الألم البسيط والأكيد للغاية ـ الماضي الذي مات. كان يودّ لو يدخل في الماضي، وكأنَّه يريد أن يدخل في المستقبل، في القلب الحبيب. لكنّ الذكرى لا يُشفى لها غليل. إنَّها كائنة: لا شيء. إنَّها كائنة: ولن تكون ثانية، ومن يرَ من جديد يتألّم ويبكّته ضميره على ما مضى، كأنَّه مسيء. وكان هو أيضًا، كانا هما أيضًا، رغم تقواهما، التي رست فيهما مع شيخوختهما، يرزحان تحت سيطرة فكرة الموت. كانت فكرة الموت في كلّ مكان. ذلك أنَّ المخيف ليس الموت، بل هو فكرة الموت التي تهدم كلّ نشاط بتلويحها بظلمة أرضيَّة. فكرة الموت: الموت الذي يحيا.. «أوّاه! ألا كم تألّمت.. كم كان عليّ أن أتألّم!».

«هذا ما كان، وما لن يكون ثانية أبدًا. هذه هي جميع أنواع الدياجير التي حمتنا ضدّ دوام السعادة. إنَّ كلّ شيء يتقلّص إلى اجتياح وإلى سواد تريد الحياة أن تهرب منهما. ويصيح كما في البدء: «نحن الذين، نحنِ الذين لم يروا النور قطّ، نحن الذين كان الظلام الشامل يغلّفنا كلّ مساء، الذين كان دمهم الحيّ، دمهم العميق، أسود، الذين يدنّس حلمهم المظلم كلّ ما يلمسه، وأعيننا لا تقلّ إظلامًا عن أفواهنا. إنَّ أعيننا، الفارغة السوداء، عمياء، أعيننا مطفأة: إنَّها بحاجة إلى عون السماوات الكبير.. أتذكرين، حين كنّا قابعين تحت عاصفة المساء الهادئة، كنّا نحتفظ بشعاع فوق رأسينا، ولقد أردنا لمدّة طويلة ألّا يكون للّيل وجود. كانت ذراعك الواهنة، المستريحة بقوّة على ذراعي، تختلج.. كان الليل يختطف منّا نورنا المسروق، ساحقًا اندفاعنا الكئيب..».

«كان الليل يسيل منهما وكأنَّه يسيل من جرح في جنبهما. كانا يشعّان ظلامًا حقًّا.. ويصيح، مكتفيًا مبهورًا بتفكيره الطفل: «سيتلاشى الليل. ستصبحين النور!». لكن لم يكن للوعد العظيم المسكين من تأثير على ذعر المرأة، فتابعت سؤالها عمّا ستكون، ذلك أنّ النور لا شيء. لا شيء، لا شيء.. إنَّها تسعى بلا جدوى إلى النضال ضدّ هذه الكلمة.

«إنَّه يلومها على أنَّها تناقض نفسها بمطالبتها في آن واحد بالسعادة الأرضيَّة والسعادة السماويَّة. فتجيبه، من أعماق نفسها، إنَّ التناقض ليس فيها، بل في الأشياء التي تريدها.

«عندئذ تمسّك بغصن آخر من السلام، وشرح، وصاح بِشَرَهٍ يائس: لا نستطيع أن نعرف! وكيف نستطيع! يا للجنون، يا لانتهاك القدسيّات، إذا ما حاولنا ذلك! إنَّ القضيّة قضيّة مغايرة جدًّا للقضية التي نتصوّرها! ليس للسعادة الإلهيَّة شكل السعادة البشريَّة نفسه. إنِّ السعادة الإلهيَّة ليست بمتناولنا».

انتصبت مرتجفة:

«هذا غير صحيح! كلّا، سعادتي غير موجودة خارج ذاتي، ما دامت سعادتي...». «إنَّ العالم هو عالم اللّـه، لكنّ سعادتي، إنّما أنا إلاهتها». وتضيف ببساطة حاسمة: «ما أريده هو أن أكون سعيدة، أنا، كما أنا وكما أتألَّم».

كانت إيميه قد ارتعدت: كانت تفكّر بلا ريب فيما قالته لتوّها: «جواب يعنيني شخصيًّا، كما أنا هنا» وكانت تشبه هذه المرأة أكثر ممّا تشبه نفسها..

«وكرَّر الرجل: أنا كما أتألَّم».

«يا للعبارة الهامّة! إنَّها تقودنا بجلاء إلى هذا القانون الكبير: إنَّ السعادة ليست موضوعًا، ولا تعبيرًا حسابيًّا. إنَّها تولد من البؤس، وتقيم فيه بكاملها، ولا يمكننا أن نفرّق بين الفرح والألم، كما لا يمكننا أن نفصل بين النور والظلمة. وإذا ما فصلناهما، فإنَّنا نبعدهما كليهما. «أنا، كما أتألَّم!». كيف يمكن للمرء أن يكون سعيدًا في هدأة تامّة وضياء خالص، مجرَّدين تجريد صيغة من الصيغ؟ إنَّنا لمخلوقون من حاجات جمّة ومن قلب لا يرضى باعتدال. وإذا ما أبعد عنّا كلّ ما يسبّب ألمنا، فماذا يبقى لنا؟ والسعادة التي ستأتي في مثل هذه الحال لن تكون من أجلنا، بل من أجل شخص آخر. إنَّ الصيحة المبهمة التي تقول، وهي تظنّ أنَّها تحسن التفكير: لقد كان لنا انعكاس من سعادة يمحوه الظلّ، فإذا ما اضمحلّ الظلّ كانت لنا السعادة بكاملها ـ إنَّ هذه الصيحة لكذبة مجنون. وإنَّها أيضًا لكذبة مجنون أن نقول: ستكون لنا سعادة خالصة لا نستطيع أن نعقلها.

«وتقول المرأة: يا إلهي، لا أريد السماء!».

فقالت إيميه راجفة:

ـ عجبًا! هذا يعني أنَّ الإنسان يمكن أن يكون بائسًا في الفردوس!

فقال:

ـ الفردوس هو الحياة.

سكتت إيميه، ولبثت مرفوعة الرأس، وقد فهمت أخيرًا أنَّه إنّما كان يجيبها هي بكلّ هذا الكلام، وأنَّه قد أوجد في روحها فكرة أكثر سموًّا وعدلًا.

تابع:

ـ الرجل الآن يشاطرها رأيها. ولقد راح يشعر بالأمل منذ بضع لحظات بأيِّ خطأ يصطدم غضبه ـ وها هو يشير، ويكمل الحقيقة المفجعة التي كشفتها بارقة الأنوثة. وتقول: واللّـه، اللّـه؟ ـ اللّـه لا يستطيع شيئًا للبشر. لا شيء يستطاع. إنَّه ليس المستحيل، إنَّه ليس إلّا اللّـه.

«وعندئذٍ ماذا يفعل هذان المؤمنان اللذان لا يجدان عزاء، رغم اللّـه؟.. إنَّهما يعيدان بناء حياتهما بناء مبهمًا، ذكرى فذكرى، ويعيدانها في بؤسها الذي كان فيه كلّ شيء. كانا يريان، إلى جانب كلّ بارقة من بوارق الفرح أو الكبرياء التي كانت تدفعهما منذ قليل إلى الادّعاء بأنَّهما شذرات من اللّـه، كانا يريان الظلمة التي تسمح بهذه البارقة، والضعف الذي يهيِّئها، والمجازفة والشكّ اللذين يحيطان بها بعناية، والرجفة التي تمنحها الحياة.. كان مظهر قدرهما الذي تجلّى لأعينهما على حقيقته يذوب في مظهر حبّهما، وكان مبهورًا بقدر ما كان معذّبًا. ولو لم يكن هو فقيرًا، لما شعر بكلّ الإحسان الذي غمرته به، حين اقترب من نورها الذي كان له ضروريًّا، ومن فمها، فم المرأة بصمته المنادي!

«يبدو أنَّهما يعيشان من جديد، أنَّهما يقلّدان الحياة.. لكأنَّهما لا يعرف أحدهما الآخر، ولكأنَّهما يتعارفان شيئًا فشيئًا، ويتواجهان، ويتعانقان. يقولان: الظلمة نبحث عنها. إنَّ كلًّا منهما يرى الآخر وهو يبحث، أثناء النهار، عن الغسق في باطن الغرف، في قلب الغابات. كانا يتأمَّلان، يفهمان الطبيعة. كانا يفهمانها أكثر ممّا ينبغي، ويعطيانها ما ليس لها، بينما كان انفعالهما الفاني يمنح المساء ابتسامة فائقة.. «وحولنا، كان النهار يموت، واأسفاه!»»

لم أكن أعرف باسم من يتكلَّم أمامي هذا المخلوق البشريّ، وهل يدور البحث في فمه عنها هي أم عن الآخرين. كان الرجل يبدو، وهو موثوق بين هذه الجدران، ملقى به في أعماق هذه الغرفة كمزقة رطبة، كأنَّه يحقِّق عملًا من تلك الأعمال الكبرى التي تتّحد فيها الموسيقى بالكلمات:

«كنّا نشعر بالخوف، نشعر بالبرد.. كنت محاطة بالظلال: مسائنا، ثوبك، حيائك.. لكن أيّ فجر حين كنت أذهب إليك!». «آه! حين كنت أجذب إليّ بذراعيّ الفاتحتين رأسك الثمين من أقنعة المساء، حين كنت ألمح في حركاتك المحطّمة فاك وصمته اللّامتناهي من القبل، جسدك الأبيض في اللّيل كملاك».. حين كنت أقترب من وجهك وكأنّني أقترب من مرآة ابتسامتي.. حين كنت أدفن عينيَّ في شمس شعرك لأنبهر، وأنا واقف قربك، أسندك وتسندينني. حين كنت أنقِّب في ظلّك بيديَّ الثقيلتين.

«كان كلٌّ منّا بحاجة إلى الآخر، كان كلٌّ منّا يتألَّم عن الآخر.. أوّاه! الشكّ، الجهل، الأمل، والبكاء! وهكذا كان الأمر دومًا. لقد كانت السيادة لفقر حبّنا الكبير، رغم الخيبة، والنسيان، والوهن، والفقر!»

قالت إيميه:

ـ آه! يجب ألّا نلعن، يجب ألّا نأسف، يجب أن نحبّ قلبنا.

كان يتابع دون أن يتوقّف عندها: ـ ويقول المحتضران: «وحين تكون الحياة قد نحتت منّا، مع مرّ السنين، دون أن تقرّب بيننا أكثر ممّا هو ممكن، مع الأسف، دون أن تجعل من كائنين كائنًا واحدًا، حين تكون قد نحتت منّا كائنين متماثلين رغم ذلك بحيث يجعلنا الحنان بمعجزة ما حسّاسيّن كلًّا منّا بالآخر، نكون قد ربحنا معًا تأمُّلًا وعبارة ـ دينًا يرتعد ـ لبؤسنا بالذات. كنّا نجده في كلّ مكان مع الموت. كنّا نعبد الضعف البشريّ في الريح التي نشعر بنفحها واقترابها، والتي تتلاشى دومًا في المغيب الذي يتعرّى، في الصيف الذي نراه يتألّم ويأفل، في الخريف الذي يحتوي جماله على تنبّؤ بالمستقبل، والذي تميت أوراقه الميّتة وقع الخطى بكآبة، في السماء المرصّعة بالنجوم التي تبدو عظمتها جنونًا. بل لقد كان من الصعب أن نؤمن أنّ للصخر قلبًا من صخر وأنّ المستقبل غير بريء ومعرّض للخطأ. وكنّا نقاوم، وكنّا نفيض أملًا.

«تذكّري حين كان يخيّم المساء على الوديان الكبرى، المساء الذي نشعر فيه بقدوم الشيخوخة، فنضمّ أيدينا العاجزة زوجًا زوجًا ونتّجه بأبصارنا رغم كلّ شيء نحو المستقبل! المستقبل! كان غصن يبتسم على خدّك اللّامتناهي. كان كلّ شيء عظيمًا راجفًا، وكانت الحقيقة الحكيمة تنهمر من السماء الرائعة، فيحطّ انعكاسها الأخير على جبينك الأغرّ. كنّا نأمل، بشحّ، وتعب، ونحن لا نكاد نفتح جفوننا، مليئين بالماضي الفقير الذي لا يقدر على الشفاء: كان المساء يليّن الحجارة، وكانت عيناك ذهبيّتين، وكنت أحسّ بك تموتين!».

«الحياة تبلغ ذروة وجدها الكامل في الحياة الآفلة». وغنّى بصوت أعمق أيضًا: «جميل، جميل أن يبلغ الإنسان خاتمة أيّامه.. هكذا نكون قد عشنا الفردوس».

«ويتوصّلان إلى أن يتبادلا القول، بخجل، بارتباك: «أحبّك». إنَّهما يسعيان عند عتبة اللّازورد الأزليّ إلى تحقيق البداية المتواضعة للحياة التكفيريَّة. ويتماديان إلى حدّ التأكيد بأنَّ اللَّـه يتألَّم من رؤيتهما يموتان، فيرثيان له. ثم يتبادل اللذان لن يتألّما بعد الآن وداعًا رهيبًا تنتهي عنده المأساة».

قالت إيميه في صيحة وضعتْ فيها نفسها كلّها:

ـ إنَّهما على حقّ.

قال الشاعر:

ـ هذه هي الحقيقة. إنَّها لا تمحو الموت. إنَّها لا تنقص من حجم المكان، لا تبطئ الزمان. لكنَّها تجعل من هذا كلّه ومن الفكرة التي لنا عنه العناصر الأساسيَّة القاتمة لذواتنا. إنَّ السعادة بحاجة إلى التعاسة. والفرح يتمّ جزئيًّا مع الحزن. وبفضل صلبنا على صليب الزمان والمكان يختلج قلبنا. يجب ألّا نحلم بنوع من تجريد باطل. يجب أن نحافظ على الرابطة التي تربطنا بالدم والأرض. «تمامًا كما نحن!» تذكّري. إنَّنا لمزيج كبير. إنَّنا أكثر ممّا نظنّ: من يدري ما نحن!

كانت ابتسامة قد أخذت تعاود الحياة، على الوجه الأنثويّ الذي تغضّن خوفًا من الموت. وسألت بعظمة طفوليَّة:

ـ لمَ لم تقل لي هذا كلّه حين سألتك؟

ـ ما كنتِ تستطيعين أن تفهمي آنذاك. كنتِ قد غامرتِ بحلمكِ المقبض للنفس في طريق لا منفذ له. كان لا بدّ أن أسيِّر الحقيقة في مجرى آخر لأمثّلها لكِ من جديد.

إنَّ شيئًا آخر، أراه فيهما، يجعلهما يتوتّران: الجمال، الطيبة الصادرة من أنَّهما تكلَّما. أجل، لقد طوّقهما هذا بهالة خلال الثواني القليلة التي انقضت قبل أن يهويا من الحلم.

وتنهّدت:

ـ من المستطاب أن تكون أمام المرء كلّ هذه الكلمات التي تعبّر بدقّة عمّا هو ضدّنا.

فقال:

ـ أن يعبِّر المرء، أن يوقظ ما هو حيّ، هذا هو الشيء الوحيد الذي يوحي بالعدالة حقًّا.

وران عليهما الصمت، بعد هذه العبارة الكبيرة. كانا، لهنيهة من الزمن، قد تقاربا أكثر ما يمكنهما الاقتراب في هذه الدنيا ـ بسبب الرضى الجليل بالحقيقة السامية، بالحقيقة العويصة (ذلك أنَّه من الصعب أن نفهم أنَّ السعادة هي في آن واحد سعيدة وتعيسة). غير أنَّها كانت تصدِّقه، هي المتمرِّدة، هي القليلة التصديق، هي التي أعطاها قلبًا حقيقيًّا يمكن لمسه.

- ٩ -

كانت النافذة مفتوحة على مصراعيها. والليل يدلف، متوتّرًا، زاخرًا، كفصل من الفصول. أرى في أشعّة المغيب الغبراء ثلاثة أشخاص يواجهون الانعكاسات الطويلة الذهبيّة الكابية. أحدهم شيخ، عليه سيماء من الحزن والالتياع، وجهه متخدّد بالغضون، جالس على مقعد سحبه إلى مقربة من النافذة؛ وامرأة طويلة، شعرها أشقر صارخ تشبه بوجهها العذراء القدّيسة؛ وكانت امرأة حبلى أخرى متنحيّة جانبًا قليلًا، جالسة، تبدو وكأنّها تتأمّل المستقبل بعينها الشاخصة.

لم تكن هذه الأخيرة تشترك في الحديث، إمّا لأنّها من أصل وضيع، وإمّا لأنّ فكرها منصبّ بكامله على حدث جسدها. وكنت أرى من خلال الظلمة الباهتة التي انزوت فيها، شكلها الذي تعاظم حجمه وامّسخ بعض الشيء، وفرجة فمها الحنون الذاهلة.

كان الآخران يتحادّثان. كان الرجل يتكلّم بصوت متهشّم، غير متعادل. وكتفاه تأخذهما أحيانًا رجفة محمومة خفيفة، وتصدر عنه بين الفينة والأخرى حركات مفاجئة غير نابعة منه. كانت عيناه أسيرتين،

وصوته يوحي بلهجة أجنبيَّة. كانت هي قابعة بطمأنينة إلى جانبه، بضيائها وعذوبتها الشماليَّتين، وبلونها الأبيض والذهبي، فكان بصيص النهار يبدو وكأنَّه يموت، على وجهها الشاحب اللّجيني وهالة شعرها المترامية، موتًا بطيئًا يفوق في بطئه موته في أيّ مكان آخر.

هل هما أب وابنته، أخ وأخته؟ كان واضحًا أنَّه يعبدها، لكن كان من الواضح أيضًا أنَّها ليست زوجته.

نظر إليها بعينيه المطفأتين اللتين ينعكس عليهما شعاع من الشمس التي عليها.

قال:

ـ أحدهم سيولد، وأحدهم سيموت.

بدرت عن المرأة الحامل حركة. وصاحت الأخرى بصوت شبه خافت، وقد مالت بسرعة نحوه:

ـ ماذا تقول، يا فيليب!..

وبدا لامباليًا بالوقع الذي أحدثته كلماته، وكأنّ هذا الاحتجاج غير صادق، أو باطل.

قد لا يكون هرمًا. فشعره لا يكاد يبدو لي شائبًا. لكنَّه كان يرزح تحت ألم غامض، لا يقدر على تحمُّله، في تشنُّج مستمرّ. ليس أمامه زمن طويل يعيشه. وكان هذا جليًّا من الدلائل الأزليَّة حوله: شفقة خائفة وخفيَّة في النظرات، وحداد لا يُحتمل تقريبًا.

أخذ يتكلَّم بعد أن بذل جسده جهدًا لقطع حبل الصمت. ولمّا كان جالسًا بين النافذة المفتوحة وبيني، فقد كان قسم من كلماته يتبدَّد في الفضاء.

تكلَّم عن أسفار. أعتقد أيضًا أنَّه تكلَّم عن زواجه، لكنّي لم أسمع ما قاله عنه.

إنَّه ينتعش وصوته يرتفع. وهي كلّها الآن رنين عميق ومقلق. إنَّه يتوتّر. ثمّة هوى مكتوم يبعث الحياة في حركاته ونظراته، ويخمد كلماته ويزيد في أهمّيَّتها. إنَّني أرى من خلاله الرجل النشيط واللّامع الذي كانه بلا ريب، قبل أن يتدنّس بالمرض.

لقد أدار رأسه قليلًا وصرت أسمعه بشكل أوضح.

إنَّه يذكر المدن والبلاد التي طاف بها، ويعدِّدها. إنَّها أشبه بأسماء مقدَّسة يستغيث بها، بسماوات بعيدة مختلفة يتضرَّع إليها: إيطاليا، مصر، الهند. لقد جاء إلى هنا، بين مرحلتين، ليستريح. وها هو يستريح، قلقًا، كهارب يتخفَّى. ينبغي عليه أن يرحل وشيكًا من جديد، وتتألَّق عيناه. إنَّه يقول كلّ ما يريد أن يراه. لكنَّ الغسق يخيِّم شيئًا فشيئًا، ودفء الجوّ يتبدّد كحلم لذيذ، فلا يفكِّر إلّا بكلّ ما رآه:

ـ كلّ ما رأيناه، كلّ ما نحمله معنا من أمكنة!

إنَّم يوحون بأنَّهم زمرة من المسافرين لم يحطّ لهم رحال قطّ، كأنَّهم هاربون أبديّون، توقَّفوا لهنيهة من الزمن عن ركضهم المجنون، في زاوية من العالم تبدو صغيرة، بسببهم.

ـ باليرما.. صقلية..

إنَّه يحاول أن يسكر بالذكرى الرحيبة، ما دام لا يجرؤ على التوغُّل في المستقبل. إنَّني أدرك الجهد الذي يبذله ليقترب من نقطة مضيئة في أيّامه السالفات.

قال:

ـ كاربيا، كاربيا! أتذكرين، أنا، ذلك الصباح المتهلّل بالنور؟ كان النوتيّ وأسرته على المائدة في حضن الريف. يا للشعلة التي كانت تتألّق بها الطبيعة!.. الطاولة المستديرة والشاحبة ككوكب. كان النهر

يلمع. وعلى ضفافه، أثل ودفلى. وغير بعيد كان سدُّ الشمس: انعطافة النهر الطويلة القادحة شررًا.. كانت الشمس تجعل الأوراق كافّة تزهر. والعشب يلمع وكأنَّه مليء بالندى. وكانت أدغال الشجيرات تبدو وكأنَّها تطوّق جيدها بجواهر. والريح عليلة حتى لكأنَّها ابتسامة، لا تتنهّد البتّة.

كانت تصغي إليه.. تلتقط كلماته، إلهاماته، ساكنة، عميقة، رائقة كمرآة.

تابع:

ـ لم تكن أسرة النوتيّ بتمامها. كانت الصبيَّة قد ابتعدت، فانتحت مكانًا قصيًّا عن ذويها لتحلم، دون أن تسمعهم، جالسة على مقعد خشن. إنَّني أرى ظلَّ الشجرة الكبيرة العذبة الخضار فوقها. كانت على هدب سرّ الغابة البنفسجي، بثوبها البسيط.

«وأسمع الذباب الذي يطنُّ في ذلك الصيف اللومباردي، حول النهر المتعرّج الذي تتجلّى محاسنه كلّما أوغل فيه الإنسان.

«.. من يستطيع أن يقول، أن يترجم في عمل فنّيّ، طنين ذبابة! هذا مستحيل. ربّما لأنَّ هذا الطنين ما كان معزولًا قطّ، ولأنَّه كان ممتزجًا، في كلّ المرات التي سمعناه فيها، بالموسيقى الكونيَّة للحظة ما».

تابع، متحدِّثًا عن ذكرى أخرى:

«أحسست، أعظم ما أحسست، بشمس الجنوب، في لندن، في أحد المتاحف. كنت واقفًا أمام لوحة تصوّر انعكاس الشمس في الريف الرومانيّ، وكان إيطاليّ صغير بزيّه القوميّ يلوي عنقه. كان يشعّ، بين سكون الحرّاس المتجهّمين وتيّار الزوّار الغزير، في اللّون الرماديّ والرطوبة. كان أبكم، أصمّ عن كلّ شيء، مغمورًا بالشمس الخفيَّة، وكانت يداه مضمومتين، شبه متّحدتين. كان يصلّي إلى اللوحة الإلهيَّة».

قالت آنا:

ـ رأينا كاربيا من جديد. قادتنا صدفة أسفارنا إلى المرور بها في تشرين الثاني. كان البرد قارسًا، وكنّا نتدثّر بكلّ ما لدينا من فراء. وكان النهر متجمّدًا.

ـ أجل، وكنّا نسير على الماء! كان في ذلك أسى وغرابة. كان جميع الناس الذين يعيشون من الماء: النوتيّ، الصيّادون، البحّارة، الغسّالات وأزواج الغسّالات ـ كان جميع هؤلاء الناس يسيرون على الماء.

وسكت لهنيهة، ثم سأل:

ـ لمَ تمتنع بعض الذكريات على الفناء؟

ودفن وجهه بين يديه الحزينتين العصبيَّتين، وتنهّد:

ـ لمَ، لمَ؟

تابعت، لتعينه في بناء ذكرياته، أو لأنَّها كانت تشاطره دوّامة إحياء الماضي:

ـ كانت واحتنا، في قصرك في كييف، زاوية أشجار الزيزفون والطلح.

«كان جانب كبير من المرج موشّى دومًا بالأزهار صيفًا وبالأوراق شتاء».

قال:

إنّما هناك لا أزال أرى أبي. كانت عليه سيماء الطيبة.. يتدثّر بمعطف كبير من الجوخ ذي الوبر، ويعتمر قلنسوة من اللبد تنسدل على أذنيه. كانت له لحية كبيرة بيضاء، وعيناه تدمعان قليلًا، بسبب البرد.

وعاد إلى فكرته:

ـ لمَ احتفظت عن والدي بهذه الذكرى ولمَ أحتفظ بغيرها؟ أيّ علامة فائقة تبقيها في ذهني وحدها؟ لست أدري، لكن هذه هي صورته. هكذا يستمرّ فيّ، وهكذا لم يمت.

ثم ارتجف تقريبًا وهو يقول:

ـ أحبّ باكو. لن أرى هذا البلد ثانية أبدًا، هذا المشهد الكبير الرماديّ المترامي، قرب آبار البترول. وحل، وبقع من الزيت داكنة للغاية ومتلوّنة بألوان قوس قزح. سماء شاسعة، متجرِّدة من اللّازورد. دروب لا تنتهي تلتمع فيها آثار العجلات وكأنَّها سكك حديد. المباني السود واللامعة كالبشر. رائحة البترول. وفي كلّ مكان، حتى بين الأزهار، الرائحة الأبديَّة التي تفوح من البحر الدفين تحت الأرض.

«لن أرى هذا البلد ثانية أبدًا. ومهما يكن، فقد بتُّ لا أعرف فيه أحدًا. في السنة المنصرمة، كان الشيخ الشحيح بورين لا يزال هناك يجمع ويعدّ ماله!»

قالت المرأة:

ـ حين أحسّ بدنوّ الأجل، قال: «سوف أفلس».

كان النهار يأفل. وكانت المرأة تبرز أكثر فأكثر، وتزداد جمالًا أكثر فأكثر.

كانت في ملامحه، هو الآخر، سيماء طيبة كبيرة. لمَ لا يكون للبخلاء، الذين يحبّون شيئًا ما حبًّا جمًّا، سيماء من الطيبة؟

وارتجفت كتفا المريض رجفة خفيفة. فقال:

ـ اغلقي النافذة، أرجوكِ. أشعر ببرد.

وحين أغلقت، خيّم صمت. وقالت:

ـ تلقّيت رسالة من كاترين من براغ.

ـ ألا تزال كما عهدناها؟

ـ أجل. إنَّها تموت حسرة. فمهما انتقلت من بلد إلى بلد آخر ـ كانت في الأسبوع الماضي في جزر الباليار ـ فإنَّها تجرجر في كلّ مكان

ترمُّلها الذي لا عزاء له، وكأنَّها تجرجر أذيال نوع من الكسل، أيُّ قوّة لها لتستطيع أن تعيش هكذا بدون عزاء! إنَّها تصارع شبابها وجمالها. إنَّها لا تسافر لتخفِّف من وطأة حدادها، بل لتزيد من حدّته، ولتبسطه في كلّ مكان في العالم، إنَّها، في الحقيقة لا تريد أيّ سلوى. ولكم يحزنها حين تنسى لحظة، لتلبّي داعي الحياة. لقد رأيتها يومًا تبكي، لأنَّها ضحكت. ومع ذلك، فإنَّ حزنها تبعث رؤيته الهدوء في النفس كما تبعثه نضارة وجهها.

كنت أرى ظلّ الرجل على الستائر الكابية ـ ظهر منحنٍ، رأس مهزوز، عنق نحيفة، ورفع يديه، وقال:

ـ الألم الحقيقي يقيم فينا. إنَّه ليس بشيء يُرى أو يُسمع. لكنَّه يوقف بسهولة كلّ شيء، حتى الحياة. إنَّ الألم الحقيقي يتلبّس أشكال السأم الجليلة.

وأخرج، بحركات شبه خرقاء، علبة سجايره من جيبه.

أشعل سيجارة. لمحت أساريره التالفة، لحظة أضاءها البصيص الصغير السريع وحطّ عليها كقناع متوهّج، ثم دخَّن في القمّة الشفّافة، ولم أكن أميّز إلّا السيجارة الملتهبة، التي تحرِّكها ذراع مبهمة، خفيفة، كالدخان الذي تنفثه. وحين كان يقرّب السيجارة إلى فمه، كنت أرى نور زفيره الذي سبق ورأيت ضبابه، في رطوبة المكان.

... لم يكن ما يدخِّنه تبغًا: فقد انقبض صدري لرائحة عقاقيره.

مدّ يده، بارتخاء، نحو النافذة المغلقة ـ المتواضعة بستائرها الصغيرة نصف المرفوعة.

ـ أنظري... إنَّها بيناريس وحاليحاباد... حريق ذهب أحمر في الرماد وألق كائنات إنسانيَّة غريبة. إنَّها ليست بكائنات، بل هي تماثيل آلهة،

تحت سماء المساء البنفسجيَّة. إنَّها تتحرَّك... كلَّا... بلى. إنَّه احتفال سنيّ تسبح فيه تيجان، شارات، وحليُّ نساء... الكاهن الأكبر، على الشطّ، بشعره المعقّد المصفَّف ويديه المشوَّهتين ـ هيكل غامض، هندسة، عصر، عرق. ما أشدّ اختلافنا عن هذه المخلوقات... من منّا على حقّ؟

إنَّه يوسّع، الآن من دائرة الماضي. ويبدو عليه أنَّه يفعل ذلك بجهل ثقيل جبّار، وكأنَّه يوسّع دائرة من الجحيم والابتهال.

ـ الأسفار: كلّ تلك الأمكنة التي نغادرها! هذا كلّه باطل. إنَّ الأسفار لا تجعلنا نكبر. وهل ينبغي أن نكبر مع الخطى التي نخطوها؟ على كلٍّ، أيتسنّى للمرء الوقت ليضع حمل روحه فيرى حقًّا ما يمرّ بجانبه؟ وحتى في مثل هذا الحال... إنَّ المسافرين لن يعرفوا إلّا نقطة من مساحة اللحظة الحاضرة. إنَّ المرء لا يسافر في الماضي. كلّ شيء كان. لقد فكّرت هذه الليلة، وأنا تحت سيطرة ذكرى الصخور والأراضي البور والغابات الولزيَّة، فكَّرت بفرسان المائدة المستديرة. الملك آرثر، وحاشيته... لقد خُيِّل إليَّ أنَّني غير بعيد عنهم وأنَّني أتقدَّم. لم أكن أرى إلّا واحدًا منهم، معتمرًا خوذة غريبة. وحدّقت إلى عينه الزمرُّديَّة اللون وجمَّدتني. كان الآخرون مقنّعين، أشباحًا. المائدة الحجريَّة مستديرة في الفسحة الجرداء الخريفيَّة من الغابة (كان لون الضباب الرماديّ يختلط بحجاب الغابة الأصهب). المائدة مستديرة كي لا يكون حقّ تصدُّرها، حين يلتفّون حولها وقوفًا، لأحدهم دون الآخر. إنَّها أشبه برحى عظيمة. إنَّها بيضاء جدًّا. وزوايا شديدة الوضوح. لم يمض وقت طويل على صنعها. إنَّها جديدة.

«... ألف سنة!... ألفان، ثلاثة آلاف سنة، وشاطئ طروادة...

«أتذكرين، يا آنا، ذلك الخطّ الذهبي الذي مخرت بنا السفينة بحذائه؟

«البطل اليوناني يسير على الرمل الذي صبغه الشفق بلون ذهبيّ داكن. إنَّني أرى الدعسة العريضة المنتظمة، الواثقة، التي يرسمها على الرمل. وينهار شيء من الرمل العسجديّ، على حافة كلّ دعسة من دعساته، بعد مروره. البحر يموت بالقرب منه. إنَّني أرى الأثر ـ حلقة دقيقة مزبدة ـ الذي تركته الموجة الأخيرة على الرمل النديّ الأشدّ دكنة من الرمل الذي يسير عليه. صرّت حصاة تحت برونز حذائه وتدحرجت. إنَّني أسمع وقع خطاه. فكّري بهذا آنّا: خطاه، وقع خطاه الذي تلاشى منذ آلاف السنين. فكّري بخفقة الجناح التي يحتاج إليها المرء ليتقرّب من ذلك. خطاه التي لم يبق منها، بعد يوم واحد، أيُّ أثر، والموجودة مع ذلك، أين هي، أين هي؟ إنَّها فينا، ما دمنا نراها. الزمان ليس بالزمان، والمكان ليس بالمكان...»

يخيِّم صمت على الجملة الرائعة، على سرّ الصحو هذا، لم تشعر المرأة أنَّها قادرة على قطع حبل الصمت الذي تحوم فيه حقيقة لا تستطيع إليها وصولًا، بلا ريب.

ـ لقد صدم سيفه صخرة. وإنَّني لأسمع الرنين المدوّي للنصل في الغمد. لقد أمسكت يده القويَّة، كي يرتقي تلًّا وعرًا، بالجذع الفتيّ لشجرة صنوبر تساقطت منها بضع إبر يابسة بعد رحيله. ما يركض في غابة الصنوبر، إلى جانبه؟ حيوان، كلب. كلب هذا الرجل. إنَّه يحمل في شدقه شيئًا: حزامًا من جلد تصلّب وجفّ بعامل الملح والريح، حزامًا طرواديًّا، لم يبق منه إلّا نصفه بعد المذبحة التي سيغنيها هميغو بعد مئات ومئات السنين.

«لقد وصل المحارب إلى رأس شاهق. فمدّ رأسه ووجّه أنظاره إلى البحر. أنفه دقيق مستقيم، وخطّ الجبين ينحدر، بوضوح، من حديد الخوذة. قنطرة الحاجبين نافرة إلى الأمام نفورًا غريبًا. الأهداب تطرف

فوق العين القادحة شررًا. لكن ما يلفت انتباهي إنَّما هي يده، نصف المطبقة، بأظافرها القصيرة وظهرها وأصابعها المحروقة اللون، المائلة إلى الحمرة، وكأنَّها منحوتة من الآجرّ، وأظافرها المحدّبة كحصى مرصَّعة.

«إنَّه يرنو إلى الشطّ. النوتيّة مستغرقون في إنزال مقدّمات السفن التي لا تقع تحت حصر إلى الماء. إنَّهم يسحبونها وسيدفعونها إلى عرض اليمّ لتجنُّب نصال صخور الساحل. إنَّ الأسطول اليوناني سيُقلع هذا المساء، لأنَّه لا يستطيع أن يمخر إلّا تحت النجوم، فهو يتجهّز، بينما يتألَّق الصبح على لازورد البحر».

«يحني الرجل، بعد تأمُّله الشمس، جبينه الموهن».

ـ يتراءى لي مدى شاسع من الماء. إنَّني أرى عن قرب ذلك الماء، تلك الأمواج التي تهدر، في صمت مطبق، رماديَّة ولجينيَّة، تحت نور غريب. لِمَ هذا الصمت اللّامتناهي؟ إنَّها على كوكب آخر، بعيد بما لست أدري من مئات القرون.

أرنو إلى ما يقوله، أرنو إليه هو: المشهد غير الموجود والرجل الذي ما عاد له وجود تقريبًا في الظلّ. التذكّر، التذكّر... إنَّني أفكِّر بذلك الاختلاف العظيم الفائق الوصف بين من يفكِّر وبين ما يفكِّر به، إنَّ وجهه لطخة مستدقَّة متنازع عليها، ممحوّة، في بدء انبساط البلدان والعصور.

وتتزاحم ذكريات أخرى، وأخرى، متراكمة. إنَّني لأشعر به محاصرًا بعالم، عرضة لفيض من الذكريات: الذكريات التي فاه بها، والذكريات التي ليس لديه الوقت أو القدرة على قولها. إنَّه لا يستطيع أن يتخلَّص من تلك العظمة المضيئة الكامنة فيه.

لقد رمى برأسه إلى الخلف، وأغمض بلا شك جفونه... وإنّي لأعدُّ

ذكرياته وأقيسها، من تعبير الألم الذي ينطبق به وجهه ويسمح للبصر بأن يتملّاه على هذا النحو.

إنَّه الآن يشكو، وهو الذي كان كلّه وجدًا منذ لحظة:

ـ إنَّني لأتذكَّر... أتذكَّر... وقلبي لا يشفق عليّ.

ثمّ أنَّ فورًا أنَّة استسلام: «آه! لا يمكن للمرء أن يودِّع كلّ شيء».

إنَّها هنا، ولا تستطيع شيئًا رغم أنَّها معبودة. إنَّها لا تستطيع شيئًا أمام هذا الوداع اللّامتناهي الذي يملأ النظرات الأخيرة لرجل. إنَّها هنا فقط بكلّ جمالها، بكلّ ابتسامها... وتترافق الرؤية الفائقة الإنسانيَّة بالأسف، والتبكيت والطمع، بلا جدوى. إنَّه لا يريد أن ينتهي كلّ شيء. إنَّه ينادي ما يتذكَّره ويريد أن يعود إليه من جديد. إنَّه يحبّ ماضيه.

إنَّ للماضي، العديم الشفقة، العديم الحركة، شكل ألوهيَّة ــ ذلك أنَّ شكل اللّـه الكبير، في نظر المؤمنين والجاحدين على حدّ سواء، هو أنَّه يسمح للناس بالابتهال إليه.

كانت المرأة الحامل قد ذهبت. لقد رأيتها تتسلّل، تغيب خلف الباب، بحنان، وباحتراس أموميّ تجاه نفسها.

لبثا كلاهما معًا.. كان للمساء واقعيَّة أخّاذة: كان يبدو أنَّه يعيش، راسخ الجذور، ثابتًا في مكانه. لم تكن الغرفة قطّ مليئة إلى هذا الحدّ.

قال: «يوم آخر ينتهي».

وأضاف كأنَّه يتابع فكرته:

«ينبغي، ينبغي أن نعدّ كلّ شيء من أجل الزواج».

فقالت المرأة بدافع من غريزتها: «ميشيل!»، وكأنَّها لا تستطيع أن تكبح نفسها عن لفظ هذا الاسم.

فأجاب الرجل:

ـ ميشيل لن يلومنا على ذلك. إنَّه يعرف أنَّك تحبّينه، آنا. إنَّه لن يقلق من الشكليَّة، الخالصة والبسيطة ـ ألحّ المتكلّم، وهو يبتسم ليعزّي نفسه، على هذه الكلمات ـ لزواج في الرمق الأخير من الحياة.

كانت العتمة تمثّلهما بوداعة، وحيدين وحدة مطلقة، سويّة.. وتبادلا النظر.

كان هو ناحلًا، محترقًا. وكانت كلماته ترنّ من فراغ حياته. وكانت هي تختلج بسخاء، بضياء، بيضاء ممتلئة.

كان يبذل جهدًا ملحوظًا، وعيناه عليها، وكأنَّه لا يجرؤ على الوصول إليها بكلمة. ثم ترك نفسه على سجيَّتها. وقال ببساطة:

ـ إنَّني أحبّك حبًا جمًّا.

فقالت:

ـ آه! لن تموت!

فأجاب:

ـ ما كان أطيبكِ إذ رضيتِ بأن تكوني أختي حقبة طويلة من الزمن!

فقالت وهي تضمّ يديها وتحني نحوه نصفها العلويّ البهيّ، وكأنَّها تخرّ ساجدة:

ـ كلُّ ما فعلته من أجلي، أنت!

كان واضحًا أنَّهما يتكلَّمان بقلب مفتوح. ما أروع الكلام بقلب مفتوح، دون تحفُّظ، دون جهل مخجل وآثم بما يقال، وما أروعهما إذ يشقّ كلٌّ منهما طريقه إلى قلب الآخر مباشرة. إنَّها لأشبه بمعجزة من الإشعاع، والأمان والوجود.

كان قد صمت، وأغمض عينيه وإن كان لا يزال يراها. وفتحهما من جديد عليها.

ـ أنتِ ملاكي الذي لا يحبّني.

وغام وجهه إذ قال هذه العبارة. وأرهقني هذا المشهد البسيط: القلب اللّامتناهي الذي يسهم في الطبيعة: لقد غام وجهه.

كنت أرى بأي حبّ يسمو إليها. وكانت تعرف ذلك. فقد كان في كلماتها، في بقائها بالقرب منه، عذوبة لامحدودة تعرفه بدقّة. لم تكن تشجّعه، ولا تكذب عليه، ولكنّها في كلّ مرّة كانت تستطيع ذلك، بكلمة، بحركة متوتّرة أو بسكوت جميل. كانت تحاول أن تعزّيه قليلًا عن نفسها، عن الألم الذي تسبّبه له بحضورها، بغيابها.

وقال، بعد أن تأمّلها كرّة ثانية، وبينما كانت العتمة تقرّبه منها رغمًا عنه:

ـ أنتِ النجيّة الحزينة لحبّي لك.

وتكلّم من جديد على الزواج. فما دامت جميع التدابير قد اتُّخذت، فلمَ لا يُعقد فورًا؟

ـ ثروتي، اسمي، يا أنا، التماسّ النقيّ الذي سيبقى عليك منّي، عندما.. عندما أصبح في عداد العابرين.

كان يريد أن يبسط بيده الصنيع الدائم على المستقبل المبهم، المداعبة الخاطفة مع الأسف، الأشبه ببركة. إنّه لا يصبو، في هذه اللحظة، إلّا على الاتّحاد الموهن والخيالي الذي تعبّر عنه هذه الكلمة: الزواج...

ـ لمَ الكلام على ذلك...

لم تكن تجيب مباشرة، وقد استولى عليها نفور لا يقاوم، بسبب هذا الحبّ الذي عرفه قلبها والذي اعترف مخاطبها بأنّه يشعر به تجاهها،

بلا ريب. ورغم أنَّها كانت قد قبلت مبدئيًا وتركته يفعل ـ ما دامت الشكليّات قد أُنجزت ـ إلّا أنَّها لم تجب قطّ جوابًا صريحًا على هذا الرجاء الذي ينطلق منه إليها، في كلّ مرّة ينفردان فيها كنظرة.

لكنَّها، أليست، هذا المساء، على أهبّة القبول، أهبّة القرار الذي ستتّخذه رغم الفائدة الماديَّة التي قد تجدها فيه، القرار الذي ستتّخذه في نفسها البيضاء الساطعة، لترضخ له وتسمح له بالتقارب المسكين؟

تمتم:

ـ قولي!

ونظرت إلى فمها... كان يكاد يبتسم، هذا الفم المبتهل إليه كهيكل، كوجه ألوهيَّة، النفيس بالآمال التي تتدفَّق نحوها وحدها، في الوقت نفسه الذي تتدفَّق كل مفاتن المساء.

وتمتم المحتضر، وقد أحسّ بقرب القبول:

ـ أحبّ الحياة...

وهزّ رأسه:

ـ لم يبق أمامي إلّا القليل القليل من الوقت، القليل القليل من الوقت لي، حتى إنَّني أودّ ألَّا أنام ليلًا.

ثم سكت ليسمعها.

قالت: أجل، ولمست بيدها ـ لمسًا خاطفًا ـ يد الشيخ.

ورغمًا عنّي، لمح انتباهي العديم الشفقة، أنَّ هذه الحركة كانت موسومة بأبّهة مسرحيَّة، بعظمة واعية نفسها. إنَّ التضحية، وإن كانت صادقة عفيفة، غير صادرة عن فكرة مسبقة، تحمل في ثناياها كبرياء معظّمة أراها، أنا الذي يرى كلّ شيء.

في الفندق، لا يدور الكلام إلّا على الأجانب المذكورين. إنَّهم يشغلون ثلاث غرف، ومعهم قدر كبير من الأمتعة، والرجل على ما يبدو وافر الغنى، وإن كانت مشاربه بسيطة جدًّا، إنَّهم سيلبثون في باريس حتى وضع المرأة الشابّة، التي ستصبح أمًّا بعد شهر واحد، والتي ستضع في مستشفى بالحيّ. لكنَّ الرجل، على ما يقال، مريض جدًّا. والسيدة لومرسيه منزعجة لذلك للغاية. إنَّها تخشى أن يموت في بيتها.. وهي تستشعر العار من ذلك مقدّمًا. لقد تمّ التأجير بالمراسلة، وإلّا لما كانت استقبلت هؤلاء الناس ـ رغم الدعاوة الطيّبة التي تربحها من ثرائهم. إنَّها تأمل أن يصمد بما فيه الكفاية كي يتمكّن من الرحيل، لكن إذا ما التقى بها أحد، وجدها مهمومة.

.. حين رأيته من جديد، فكّرت حقًّا بأنَّه سيموت قريبًا. إنَّه منحطّ القوى، مرفقاه على ذراعيّ المقعد، يداه مرخيّتان. يبدو أنَّه يرسل نظرته بجهد. لمّا كان وجهه مطرقًا، فإن ضياء النافذة لا يضيء حدقتيه فحسب، بل أيضًا حافة جفونه الباطنة، بحيث يبدو وجهه مسلوخًا. وإن تذكّرت ما قاله الشاعر، ارتعدت أمام هذا الرجل الذي انتهى، الذي يسيطر على كلّ وجوده تقريبًا بسلطان مهيب، الذي يتدثّر بجمال يقف اللّـه نفسه أمامه عاجزًا.

- ١٠ -

كان يتكلَّم على الموسيقى. قال:

ـ لمَ نقع تحت هيمنة الإيقاع؟ إنَّ الإبداع الإنسانيّ يحمل معه، أنّى تجلَّى في قلب فوضى الطبيعة، مبدأه الكبير، مبدأ الانتظام والرتابة. والعمل، أيًّا كان، لا يصعد ويتوطَّد توطُّدًا راسخًا، إلَّا إذا خضع لهذا القانون القاسي. إنَّ هذه الفضيلة المتزمِّتة تميِّز الشارع من الوادي، وترفع سلّمًا متساوي الدرجات في جبل الصخب. ذلك أنَّ الفوضى ليس لها من روح، والانتظام له عقل يفكِّر.

ثم تكلَّم على التناسب، عن هرمونيَّة الوحدة. لم أكن أسمع إلّا أجزاء من جُملِه، وكأنَّ الريح تُحمل إليَّ على نفحات رائحة الريف والبحر العريض.

قُرع الباب.

كانت ساعة الطبيب. نهض متعثِّرًا ـ ذاويًا، مقهورًا، أمام هذا المعلِّم.

ـ كيف الحال منذ البارحة؟

فقال المريض:

ـ سيِّئة.

فقال القادم الجديد باطمئنان:

ـ هيّا، هيّا!

وتُركا وحدهما. جلس الرجل ببطء وارتباك مضحكين. ووقف الطبيب بينه وبيني، وسأله:

ـ حسنًا، هذا القلب؟

خفض كلاهما اللهجة، بدافع من غريزة بدت لي مأساويَّة، وبصوت خافت روى المريض لطبيبه اليوميّ اعتراف يومه من المرض.

رجل العلم يصغي، يقاطع، يهزّ برأسه، مستحسنًا. إنَّه يختم هذا الاعتراف بتكراره، بصوت مرتفع الآن، النداء المبتذل المُطمَئنّ الذي سبق واستعمله، بالحركة العريضة نفسها، الهادئة:

ـ هيّا، هيّا، أرى أنَّه لم يحدث شيء جديد..

لقد غيَّر مكانه، ورأيت المريض: الأسارير مشدودة، العينان شاردتان، كلّه ارتجاف لأنَّه تحدَّث عن شرّ مرضه الفاجع.

يسكن روعه، يخاطب النطاسي الذي تربَّع، بسيماء من سلامة القلب، على كرسيّ. يتطرَّق إلى بضعة مواضيع للمحادثة، ثم يعود غصبًا عنه، كمن حلّت عليه لعنة الشرّ، إلى ذلك الشيء المشؤوم الذي يحمله: مرضه. قال:

ـ يا للعار!

فقال الطبيب بقرف:

ـ دعك!

ثم نهض:

ـ هيّا! إلى الغد.

ـ أجل، للاستشارة.

ـ هو ذاك. هيّا، إلى اللقاء.

ذهب الطبيب بخطًى خفيفة، بذكرياته الدامية، بكلّ ذلك العبء من البؤس الذي بات لا يعرف ثقله.

لقد انتهت الاستشارة بلا ريب. فقد انفتح الباب. ودخل طبيبان ظهرا لي متضايقين في حركاتهما. لبثا واقفين. كان أحدهما شابًا، والآخر شيخًا.

تبادلا النظرات. حاولت أن أتغلغل في صمت عيونهما، والليل الذي في رأسيهما. مسّد أكبرهما سنًّا لحيته، وأسند ظهره إلى المدفأة، وحدَّق في الأرض. ترك هذه الكلمات تفلت منه:

ـ إنَّها حالة لا أمل منها.

كان قد خفض صوته، خشية أن يسمعه المرضى، وكذلك بسبب جلال الحكم بالموت.

هزّ الآخر رأسه ـ علامة على الموافقة ـ ولكأنَّه هزّه تواطؤًا. ولزم الاثنان الصمت كطفلين اقترفا غلطة. ومن جديد، تجاذبت عيونهما.

ـ ما سنُّه؟

ـ ثلاث وخمسون سنة.

فلاحظ الطبيب الشابّ:

ـ إنَّه محظوظ إذ بلغ هذا العمر.

فأجاب الشيخ بلهجة فلسفيَّة:

ـ كان محظوظًا. أمّا بعد الآن، فلن يتقدَّم.

صمت. تمتم الرجل ذو اللّحية الرماديَّة:

ـ لقد أحسست بالورم، عند الجسّ، خلف الوداج تمامًا.

ورفع أصبعه إلى عنقه:

ـ إنَّما هنا «رأيته» جاثمًا.

فحرَّك الآخر رأسه ـ منذ أن دخل، ورأسه يبدو كأنَّه محموم بهزّ مستمرّ ـ وتمتم:

ـ أجل.. لا إمكان لعمليَّة.

فقال المعلّم الشيخ، وعيناه تلمعان بنوع من السخرية الكئيبة:

ـ بالطبع. لم يكن هناك إلّا عمليَّة واحدة قادرة على تخليصه منه: المقصلة! على كلّ، إنَّ التعمّم ينتشر. فهناك نوى في الغدد تحت الفكّيَّة، وتحت الترقويَّة، والإبطيَّة بلا ريب. إنَّ النمو لصاعق. وسرعان ما ستنسدّ الطرق الثلاث التنفُّسيَّة، والدورانيَّة، والهضميَّة. وسيتمّ الاختناق بسرعة.

أطلق تنهّدة ولبث ههنا، في فمه سيجار غير مشغّل، بوجهه المتصلّب، وذراعيه المتصالبتين. كان الشاب قد جلس، وراح يربت على رخام المدفأة بأصابعه اللّامجدية، مستندًا إلى ظهر الكرسيّ. قال أحد الرجلين:

ـ حين يكون المرء أمام مثل هذه الحالات، يتصوَّر، في نوع من الانبهار، أنَّ السرطان قد اختار مكانه!

ـ أيُّها المعلّم، بمَ أجيب المرأة الشابَّة!

ـ قل إنَّ حالته خطيرة، خطيرة جدًّا، قلها بلهجة مقهورة. عدّد مصادر الطبيعة اللّامتناهية.

ـ الجملة معروفة..

فقال الشيخ:

ـ هذا أفضل.

ـ إذا ألحّت وأرادت أن تعرف.

ـ يجب ألّا تجيب وتشيح برأسك..

ـ ألا نعلّلها بشيء من الأمل، فهي صغيرة جدًّا!

بالضبط، إنَّ الأمل يتفاقم تفاقمًا كبيرًا لديها. يا ولدي، يجب ألّا تقول أبدًا ما هو غير مجدٍ إلى هذا الحدّ. ولو فعلت ذلك فستجعلهم يصموننا بالجهل ويحقدون علينا.

ـ وهو! أيعرف؟

ـ أجهل ذلك. بينما كنت أفحصه ـ لقد سمعت ـ حاولت أن أتبيَّن ذلك بدفعه على الجواب. ولقد حسبت مرّة أنَّه لا يشكّ في شيء. وبدا لي، في مرّة أخرى، أنَّه يرى نفسه كما أراه.

من جديد، خيَّم عليهما الصمت، خلال بضع ثوانٍ. كان يبدو أنَّ هذين العالمين قد جاءا ليصمتا لا ليتحدَّثا. إنَّهما لم يتحرَّكا قيد أنملة تقريبًا، وقد تبادلا عباراتهما النادرة بعناء، بحذر. ثم ارتفعا إلى أفكار أعمّ، أكبر، إزاء الجرح الكريه الذي عايناه عن قرب كرّة أخرى. كنت أحاول أن أستشفّ العمل الذي يتمّ في دماغيهما. وأخيرًا رنّت جملة:

ـ إنَّه يتشكّل مثل طفل.

طفق الشيخ يتكلّم:

ـ مثل طفل. إنَّ الجرثومة تؤثّر على الخليّة، كما قال لانسورو[1]، على غرار الحيوان المنويّ. إنَّها عضوية لامتناهية الصغر تتسلّل إلى العنصر التشريحيّ، تخصّه باختيارها وتطبعه بطابعها، تجعل منه قوّة

(١) اتيين لانسورو: طبيب فرنسيّ مشهور (١٨٢٩ ـ ١٩١٠). المترجم

اهتزازيَّة، تمنحه حياة أخرى. لكنَّ العامل المهيِّج لهذا النشاط الخلويّ الداخليّ هو عامل طفيليّ، بدل أن يكون الجرثومة الطبيعيَّة للحياة.

«مهما كانت طبيعة هذه الحركة الأولى، سواء أكانت جرثومة مرضيَّة مستحدثة التكوين، أو مولدًا لامرئيًا بعدُ لعصية كوخ، أو أيّ شيء آخر، فإنَّ النسيج السرطانيّ الطفيليّ يتطوَّر بادئ ذي بدء كالنسيج الجنينيّ.

«لكنَّ الجنين يبلغ غاية معيَّنة. ففي إحدى اللحظات تصبح الكتلة الجنينيَّة المتكيِّسة في الرحم راشدة، إن صحّ هذا التّعبير. وتشكّل أغشيتها السطحيَّة التي يدعوها كلود برنارد، في مصطلحاته العميقة، بالأغشية التحديديَّة. هكذا يكون الجنين قد اكتمل، وهو على وشك الولادة.

«أما النسيج السرطاني فهو لا يكتمل. إنَّه يستمرّ، دون أن يبلغ حدوده أبدًا. إنَّ الورم (لا أتكلَّم، بالطبع، على الأورام الليفيَّة، والأورام العضليَّة والأكلات البسيطة، التي هي «أورام ذات طبيعة حسنة») يظلّ جنينيًا أبدًا. إنَّه لا يستطيع أن يتطوّر في اتجاه متناسق كامل. إنَّه يمتدّ، ولا يعرف إلّا الامتداد، دون أن يتمكَّن من الحصول على شكل. وإذا ما استؤصل، فإنَّه يعاود التكاثر، أو على الأقل بنسبة خمسة وتسعين بالمئة. ماذا يستطيع جسمنا كلّه إزاء هذا اللحم الذي لا ينتظم ولا يخرج؟ ماذا يستطيع توازن خلايانا الدقيق والهشّ للغاية ضدّ هذا النمو الفوضويّ الذي يدخل كتلة لامحدودة وغير قابلة للانحلال، في دمنا، في أعضائنا، من خلال الهيكل العظمي وسائر الشبكات!

«أجل، إنَّ السرطان، بالمعنى الدقيق للكلمة، لهو اللّامتناهي في عضويّتنا».

أشار الطبيب الشاب أن نعم برأسه، وقال بعمق لا أدري من أين أتى به، عند احتكاكه بفكرة اللّامتناهي:

ـ إنَّه لمثل قلب نتن.

كانا الآن جالسين وجهًا لوجه. وقرَّبا مقعديهما. وتابع أصغر المتخاطبين، بصوت خجل، متحفِّظ:

ـ إنَّه أيضًا لأسوأ ممّا نقول.

فقال الآخر، برأسه:

ـ أجل، أجل.

ـ إنّنا لسنا إزاء مرض موضعيّ ينشأ عن سبب غامض. إنَّه ليس نتيجة، كما يظنّ العاميّ، لحادث داخليّ مشؤوم. بل إنَّ السرطان ليس مُعديًا. إنّنا إزاء أزمة مرضيَّة حادّة وسريعة الصنف الكامل من الأعضاء الضعيفة، لشكل من الأشكال الأوّليَّة للمرض البشريّ.

«إنَّها حالة عامة تستلزم المرض وتحدِّده. إنَّه المريض نفسه الذي يريد، إن صحّ القول، الطفيليّ الفتّاك. إنَّها عضويَّته التي تريده!

«الطفيلي! ربّما لم يكن هناك إلّا طفيليٌّ واحد، يختلف بحسب الأوساط، ويسبِّب في المواضع العضوية الموافقة شتّى الأمراض. إنَّ علم الجراثيم لا يزال يتهجّى. وحين سيتكلّم، سيعلن ذلك النبأ الذي سيمنح الطبّ مأساويّة أفجع أيضًا من عظمته الراهنة.

«أما أنا، فإنَّني أؤمن بالوحدة الطفيليَّة».

فقال المعلِّم الشيخ:

ـ النظريَّة شائعة اليوم. على كلّ حال، إنَّها مغرية، وينبغي أن نفترض أنَّ الطب والكيمياء والفيزياء تميل كلّما ازدادت عمقًا، من كلّ الجهات، إلى وحدة العناصر الماديَّة والقوى. وعند ذاك، رغم أنَّه لا وجود لدليل قاطع، لن يكون هناك احتمال أكبر من احتمال هذا التبسيط الرهيب الذي تتكلَّم عليه!

فأجاب الآخر بنصف صوت، وكأنّه يتفكّر:

ـ أجل. إنَّ جميع الأمراض ناتجة عن الأشياء نفسها. إنَّها الحياة غير المحسوسة نفسها التي تقودنا جميعًا إلى الموت.

فتمتم الآخر كاتمًا صوته بدوره:

ـ إنّنا سنجد جميعًا الإخاء نفسه في المرض كما في العدم.

ـ إنَّ جرثومة الموت الوحيدة، اللّامتناهية الصغر التي تزرع في الأجساد الحصاد الرهيب، ستكون تلك الجرثومة التي يبدو أنَّ دورها حياديّ حتى الآن، والتي مرّت بها الإنسانيّة دون أن تراها تقريبًا: الجرثومة النهائيّة.

«إنَّها تكثر في المعيّ الغليظ، وهي موجودة بالمليارات لدى الكائن السليم.

«إنَّها هي التي تصبح، في مجال يحتوي على الفوسفات، المكوَّرة العنقوديَّة الذهبيَّة، عامل الخرّاج والدمّل الغرباليّ اللذين يميتان بعض أجزاء اللحم.

«إنّما هي التي تصبح، في المعيّ الدقيق، عصيّة إيبرث، مولدة الدمّل التيفي..».

كان رجل العلم يتّخذ سيماء من الأبهة والعمق كلّما تحدَّد اسم العدوّ الذي لم يُقهر حتى اليوم:

ـ إنَّها هي التي تصبح أخيرًا، في مجال يحتوي على الفوسفات، عصيّة كوخ.

«إنَّ عصيَّة كوخ ليست السلّ التدرّنيّ فحسب، بأشكاله الرئويّة والحنجريَّة والمعويَّة والعظميَّة. لقد اكتشفها لاندوزي في سوائل ذات الجُنب، وكوس في البثور الباردة».

فقاطعه العالم الشيخ الذي كانت عيناه منتبهتين خطيرتين:

ـ هل أمكن، بالأصل، إحصاء الأنواع اللّامحدودة للآفات السلّيَّة الأصل؟

ـ لنأخذ العصيَّة الرئويَّة، ذلك أنَّ الرئة دومًا مصابة لدى المريض الراشد.

«إنَّ ظهورها يؤدّي إلى تكوين الدرنات، وهي أورام صغيرة تصاب بالتآكل بسبب عدم وجود أقنية، ويؤدّي ارتخاؤها وقشعها إلى زوال العضو والموت اختناقًا. إنَّ الدرنة هي الجرثومة السرطانيَّة في مرحلتها الأولى. إنَّ عصيَّة كوخ هي صانعة تكوين جديد. وبالأصل، إنَّ كلّ عضويَّة صغرى هي، في العضويَّة، صانعة تكوين جديد. وهذا نوع من وصف عظيم، بالنسبة لقدرتها على الخلق، أكثر منه تحديدًا علميًّا. إنَّ الدرنة تتكاثر، لكنَّها تظل صغيرة. ولهذا قال فيرشوف إنَّها ورم مرضيّ فقير».

«لكنَّ الطفيليّ لا يستطيع أن يسبّب السل التدرُّنيّ لدى المصابين بداء المفاصل ممّن هم في حالة انهيار عصبيّ وحرارة منخفضة.

«إنَّه ينتقل إلى الدم مع الهضمونات عن طريق مجاري الكيلوس. إنَّ الدم يحمل الغليكوجين، وهذا السكر البشريّ الذي لا تستهلكه الحرارة المرتفعة، يضعه التخثّر الوريديّ بكمّيَّة مبالغ فيها على العناصر التشريحيَّة للأنسجة الغدّيَّة أو السلبيَّة. عندئذ يتطوّر بدون حمّى ما يمكن أن نسمّيه بجرثومة سرطانيَّة جديدة: بدلًا من عدّة درنات، لا يوجد إلّا درنة واحدة ضخمة تتطوَّر. إنَّه السرطان بشتّى أشكاله، وشتّى أسمائه: السرطان اللحميّ، والغدّيّ، والظاهريّ والمتحجّر، واللّمفاوي.

«فالسرطان إذن نتاج مرتبط بتراكم الغليكوجين لدى مصاب بداء المفاصل راشد موهن وغير مصاب بالحمّى».

فقال الشيخ:

ـ أجل، أجل، هذا ممكن. لكنَّ الدليل؟ نظريّة جميلة، لكن هل هناك من برهان تطبيقيّ؟ ذلك أنَّ هناك على كلّ حال فرقًا مورفولوجيًا بين الورم والدرنة.

كان يبدو عليه أنَّه يصبح ساخرًا، ضاغنًا، مستعدًّا لأن ينتصب وينهل من معرفته وتجربته.

فأجاب مخاطبه:

ـ إذا درسنا عددًا معيَّنًا من أنواع الأورام، لاحظنا أنَّ عددها متناسب تناسبًا طرديًّا، وحجمها متناسب تناسبًا عكسيًّا، مع حرارة الذات التي تصنعها.

كان يستعيد في ذهنه وقائع وأرقامًا. وكان يرمي بها إلى الأمام كأسلحة. كان متحمّسًا بتقديمه عرضًا كاملًا، عادم الشفقة، ليدافع عن فكرته الواسعة عن التبسيط، التي تضفي طابع المأساة على الإنسانيّة قاطبة.

ـ من الدرجة ٤٤ إلى الدرجة ٤٥ يتطوّر السلّ الذريّ بأورامه شبه المجهريَّة التي لا تقع تحت حصر. ومن الدرجة ٤٠ إلى الدرجة ٤١ يتطوّر السلّ المسمّى بالدُخنيّ لأنَّ حجم منتجاته بحجم حبوب الدُّخن. ومن الدرجة ٣٩ إلى الدرجة ٤٠، يتطوّر السلّ العدسي. ومن الدرجة ٣٧ إلى الدرجة ٣٨، سلٌّ بطئ ذو عقد ضخمة سطحيَّة. وفي الدرجة ٣٧، تظهر أورام عقديَّة كبيرة الحجم، تؤدّي إلى البثور الباردة (يدخل في هذا الصنف الوراك، والأورام البيض، ومرض بوت[1]). وفي الدرجة ٣٦,٥.

(١) بوت: طبيب إنكليزيّ (١٧١٣ ـ ١٧٨٨) كانت له أبحاث مشهورة عن مرض الفقرات الصلبيّة التي يعرف باسمه. (المترجم)

وفي الدرجة ٢٨ نجد، مع دوبار، الأورام الضخمة الداكنة ذات الحدبات، التي تشوّه جوانب الأسماك.

وتوقّف، بعد أن ذكر هذه الأمثلة، ثم تابع:

ـ يمكننا أن نرجع تجريبيًا آفة من الآفات إلى آفة أخرى: نأخذ أرنبًا ونلقّحه بالسلّ، وحين يعطي الحيوان علامات الخور التي لا تحتمل الشكّ نعيده إلى حيوان بارد الدم، بأن نبضعه بضعًا سريعًا على سويّة الفقرة الرقبيّة الأخيرة والفقرة الظهريّة الأولى. وإذا لم يمت الحيوان شللًا، فسرعان ما سنشاهد تشكُّل ورم ضخم له مظهر السرطان، ومسلكه في جوفه أو على أحد مفاصله.

كان يحدِّق في وجه زميله.

ـ أذكر ما قاله باكر: «لقد لاحظنا سير السلّ والسرطان المتواقتين، وشاهدنا دومًا أنَّ السرطان يكفّ عن التغذّي وييبس، ما إن تتوكَّد الدرنات وتتطوّر بحرارة تتجاوز الدرجة ٣٨». وأضاف: «إنّ السلّ هو الذي يسيطر بشكل عام على المأساة».

«كلّ شيء يكمن في تكوين السكّر وتوزيعه الداخليّ، وتنظِّم هذا التوزيع الحرارة العضويّة التي تحرقه لدى المسلول، في حين أنَّ الغليكوجين يتجمَّع لدى المصاب بالسرطان لفقدان الحرارة. إنَّ السرطان سكّري. وقد ألقى باكر الضوء على هذه العمليّة التي تجعل من الورم السرطانيّ نوعًا موضعيًا من داء السكر.

«لقد أثبت وجود السكّر عن طريق صنع الشمبانيا الممتازة من سوائل السرطان. ولقد أعدت التجربة بنفسي. لقد حصلت على عشرة كيلوغرامات من الموادّ السرطانيّة الناتجة عن العمليّات التي أُجريت في مستشفيات باريس على يومين متتاليين. ولمّا سحقت هذه الكتلة

بالمكبس، انتجت لي ليترين ونصف ليتر من سائر عكر وآسن، يحتوي على السكّر أكثر من أي بول سكّري. ولما زرعت السائل بالخمائر، نتج عنه اختمار قويّ وعطريّ. وأشار ميزان الكحول إلى درجة ٦٠. وحصلت، بواسطة الأنبيق، على كحول درجته ٦٠، واستخلصت منه تلك الشمبانيا الممتازة في المخبر.

«إنَّ البشر إذن يتطوَّرون بحسب حراراتهم حين تجتاحهم الجرثومة المرضيَّة نفسها: فمن كان منهم مصابًا بالحمّى الموهنة للقوى، وينفق أكثر مما يكسب، أصيب بالتدرُّن وهو ورم قزم، ومن كان مصابًا بداء المفاصل البارد، ويكسب أكثر مما ينفق، أصيب بالسرطان وهو درنة جبّارة.

«يتبادل المرضان أحيانًا مرضاهما. إنَّ معظم المصابين بالسرطان هم مسلولون برئوا وبردوا. وكان دوبار أوَّل من لاحظ ذلك. إنَّ ما هو وقائي بالنسبة للبعض (وفرة الغليكوجين أو الإفراط في التغذية) مهدِّد بالنسبة للآخرين».

أدلى النطاسي الشيخ برأيه، ثم راح يصغي من جديد باهتمام، لكنَّ وجهه كان بلا تعبير، بعد أن كوَّن فكرته الخاصة.

توقَّف المتكلِّم لحظة، ثم قال:

ـ ينبغي أن ننظر إلى الحقيقة دون أن يفتّ الوهن في عضدنا، (لقد خُلقنا لهذا، مع الأسف!) ودون أن نخاف من فتح هذا الباب السرّيّ والرهيب لشفاء السلّ.

فقال الطبيب الشيخ:

ـ مهما كان الأمر، فإنَّ هذا التشابه، وهذا التناسب العكسيّ الذي تعتقد أنَّك اكتشفته بين الدائين، مدعومان إلى حدّ ما بالأرقام. ومن

الجليّ أنَّ هذين الإحصائين لهما قيمتهما التي لا تُنكر، وأنَّهما متكاملان. ففي باريس، يوجد مريض بالسرطان مقابل كلّ أربعة مسلولين. وحين يموت أسبوعيًّا في المدينة مئتان وستّون مسلولًا، فإنَّ خمسة وستّين يموتون بالسرطان. وفي فرنسا، حيث يبلغ عدد وفيّات السلّ سنويًّا مئة وثمانين ألف وفاة، يبلغ عدد وفيّات السرطان ستّة وثلاثين ألف ضحيّة: واحد على خمسة، إنَّ خمسمئة فرنسي يموتون يوميًّا بالسلّ، ومئة يموتون يوميًّا بالسرطان.

فقال الشاب رافعًا عينيه الباردتين الصاحيتين في رجاء واعٍ لا مجدٍ:

ـ كم سيموت منهم غدًا؟

«ذلك أنّنا لم نرفع إلّا جزءًا من القناع ولم نعترف إلّا ببعض الحقيقة..»

فقال الأستاذ:

ـ أجل إنَّ الحقيقة لأكبر أيضًا.

«إنَّ فتك السرطان يزداد يومًا عن يوم، ولا ريب في أنَّ الحياة الحديثة تضاعف من حالات القابليّة المرضيّة الملائمة أعظم ملائمة للداء.

«إنَّ الحالة العامة تسبّب حتميّة الآفة، أكرّر ذلك: إنَّ المرض ممتنع الشفاء بسبب المريض. فما الفائدة من شفاء هذا المرض موضعيًّا عن طريق استئصال الورم الخبيث إذا كان المريض سيولّد المرض من جديد، بعد أن يُترك لنفسه؟ إنّنا لا نستطيع شيئًا سوى أن ننظر إليه يفعل ذلك! إنَّ مسلولًا تُستأصل منه درناته، لا أكثر، سيكون أشبه بشخص أجريت له عمليّة جراحيّة محكوم عليه بالنكسة، كذلك فإنَّ البضع لا يشكّل وسيلة كافية للدفاع ضدّ الأورام الخبيثة. وعلى كلٍّ، فإنَّ الوقائع

واضحة: من أصل كلّ مئة مصاب بسرطان العظام أجريت لهم عمليَّة جراحيَّة، انتكس منهم اثنان وتسعون. والرقم نفسه يتكرَّر بالنسبة لمن عاودهم المرض من المصابين بسرطان الثدي: اثنان وتسعون. وبالنسبة للسرطان الظاهريّ الرحمي: ست وتسعون. وبالنسبة لسرطان المعيّ المستقيم: ثماني وتسعون. وبالنسبة لسرطان اللِّسان (وأومأ إلى الباب برأسه): تسع وتسعون».

كان قد تناول، أثناء تفوُّهه بالجملة الأخيرة، صفحة ورق رسائل من فوق المدفأة ومقصًّا، وراح آليًّا يقصّ الورقة. وفجأة ألقى بالورقة والمقصّ، إذ فهم غريزة حركته المبهمة. واستدرك قائلًا:

ـ إنَّه يبدأ بإصابة الشبَّان.. (آه! إنَّني أرى، إنَّني أرى، في ذاكرتي، الصورة القاسية لملاك صغير شفّاف العينين، له ثدي ضخم ضارب لونه إلى البنفسجيّ كملفوف أحمر!..). إنَّ السرطان ينتشر في الإنسانيَّة انتشاره في كائن ما. وأضاف بسخرية حزينة سبق لي وتبيّنتها في صوته: «إذا لم يوقف، فلن تعود هناك حاجة للتساؤل، هل سيفنى العالم بانطفاء الشمس!».

قال العالم الشاب وهو يرفع يديه إلى جبينه:

ـ بالإضافة إلى هذه القرابة العجيبة بين أكبر آفتين حيّتين، أيُّ قرابات أخرى تنضاف؟ الزّهري، الذي لم أتكلَّم عليه، وغيره؟ إلامَ ستنتهي بي، إلامَ ستحكم عليّ الأبحاث التي سأتابعها بعد خروجي من هنا؟ لست أدري... إنَّني إذ أرى بلمحة عين خاطفة كلّ عفونة الجسد البشريّ، كلّ الجانب الموبوء من بؤسنا، كلّ ذلك العناء الذي ينهار فيه الجنس البشريّ انهيارًا حقيقيًّا، إنَّني إذ أرى هذا كلّه لأَتساءل كيف نجرؤ على الكلام على مآسٍ أخرى!

بيد أنَّه أضاف، بعد أن قال ما قاله، وهو يمدّ يديه اللّتين كانتا ترتجفان ارتجاف يديٍّ مريض، بنوع من العدوى البهيَّة:

ــ ربّما أمكننا ــ بلا شكّ ــ أن نشفي الأدواء البشريَّة. كلّ شيء يمكن أن يتغيَّر. إنّنا سنجد النظام الملائم لتجنُّب ما لا يمكننا إيقافه من الأمراض، وآنذاك فقط سنجرؤ على التحدُّث عن المجزرة التي سبَّبتها الأمراض المتعاظمة والتي لا علاج لها اليوم. بل ربّما أمكننا أيضًا أن نشفي بعض الآفات غير القابلة للشفاء. إنَّ الأدوية لم يتسنَّ لها الوقت لتثبّت صلاحيّتها.

«وسنشفي أمراضًا أخرى ــ هذا مؤكَّد ــ لكنَّنا لن نشفيه، هو».

وأسبل ذراعيه، غريزيًّا، وتوقَّف صوته في صمت الحداد.

كان المريض يتلفّح بعظمة مقدَّسة. كان يرين على كلامهما، رغمًا عنهما، ومنذ أن كانا هنا، وإذا كانا قد عمَّما المسألة، فربَّما كان ذلك ليتخلَّصا من الحالة الخاصّة.

ــ أهو روسيّ، يونانيّ؟

ــ لست أدري. فأنا، لفرط ما أنظر إلى باطن البشر، أراهم جميعًا عظيميّ الشبه!

فتمتم الآخر:

ــ إنَّهم متشابهون على الأخصّ في زعمهم البغيض بأنَّهم أعداء لا شبه بينهم!

بدا لي أنَّ المتكلِّم يرتجف وكأنَّ هذه الفكرة أثارت في نفسه هوى دفينًا، ونهض، كلّه غضب، متغيِّر الوجه، وقال:

ــ آه! يا له من مشهد مخزٍ ذاك الذي توحي به الإنسانيَّة!

«إنَّها تستفرس ضدّ نفسها، رغم الجراح الفظيعة التي تمزِّقها. ونحن من تتّجه أبصارنا دومًا إلى القروح، نُصاب أكثر من غيرنا بكلّ الأذى الذي

يلحقه البشر ببعضهم بعضًا عن عمد. إنَّني لست سياسيًا ولا مناضلًا، أنا. وليست مهنتي أن أهتمّ بالأفكار الاجتماعيَّة، فلديَّ ما فيه الكفاية من العمل في غير هذا المجال، لكن تأخذني أحيانًا بوادر شفقة عظيمة كالأحلام، إنَّني أودّ تارة لو أعاقب البشر، وأودّ طورًا لو أتضرَّع إليهم!».

ابتسم الشيخ بكآبة لهذا الاحتداد، ثم امّحت ابتسامته، أمام هذا العار الجليّ الذي لا يمكن إنكاره.

ـ هذا صحيح، مع الأسف! إنَّنا، على بؤسنا، نمزِّق بعضنا بعضًا بأيدينا! الحرب، الحرب.. إنَّ من سينظر إلينا من بعيد ومن ينظر إلينا من عل، يرى فينا همجًا ومجانين.

قال الطبيب الشابّ الذي كان قلقه يتعاظم:

ـ لماذا، لماذا! لِمَ نبقى مجانين ما دمنا نرى جنوننا؟

فهزَّ النطاسيُّ الشيخ كتفيه ـ الحركة نفسها التي صدرت عنه قبل بضع لحظات حين كان الحديث يدور على المرض الذي لا علاج له:

ـ قوَّة التقاليد، يؤجِّجها أصحاب المصالح.. إنَّنا لسنا أحرارًا، إنَّنا مرتبطون بالماضي. نحن نصغي إلى ما فُعل دومًا، ونعيد فعله، وتكون الحرب ويكون الظلم. ربّما توصّلت الإنسانيَّة إلى التحرّر، ذات يوم، من كابوس ما كانت. لنأمل بأن نخرج أخيرًا من عصر المجزرة والبؤس الكبير. ماذا نستطيع أكثر من أن نأمل؟

توقّف الشيخ هنا، وقال الفتى:

ـ أن نريد ذلك.

فأشار الآخر بحركة ما من يده.

وهتف الشاب:

ـ ثمّة سبب كبير عام وراء قرح العالم. لقد سمَّيته: إنَّه رقّ الماضي، الآراء المسبقة البالية التي تمنع إعادة صنع كلّ شيء بنظافة، بحسب العقل والأخلاق. إنَّ الإنسانيّة موبوءة بروح التقليد، واسم أفظع مظهرين من مظاهر هذه الروح هو...

نهض الشيخ من على كرسيّه، وقد رسم حركة احتجاج، وكأنَّه يريد أن يشير إليه: «لا تقله!».

لكنَّ الشاب لم يكن يستطيع منع نفسه من الكلام، فقال:

ـ المُلْكية والوطن.

هتف المعلِّم الشيخ:

ـ صه! ما عدت أتابعك في هذا المجال، إنَّني أعرف الأدواء الراهنة، وإنَّني لأنادي من كلّ قلبي العصر الجديد، بل أفعل أكثر من ذلك، إنَّني أؤمن به، لكن لا تتكلَّم هكذا على المبدأين المقدّسين!

فقال الشاب بمرارة:

ـ آه! أنت تتكلَّم كالآخرين، يا معلِّم... لكن ينبغي مع ذلك أن نوغل حتى مصدر الشرّ، أنت تعرف ذلك جيِّدًا، أنت... (وبعنف) «لماذا تتصرَّف وكأنَّك لا تعرف ذلك!... وإذا كنّا نريد أن نشفى من الاضطهاد والحرب، فمن الحقّ أن نهاجم بكلّ الوسائل النافعة ـ جميعًا! ـ مبدأ الغنى الفرديّ وعبارة الوطن».

فقال الشيخ الذي نهض وقد تملَّكه اضطراب عظيم:

ـ كلّا، ليس من الحقّ!

وحدَّج مخاطبه بنظرة متصلِّبة، شبه متوحّشة...

وصاح الآخر:

ـ بل من الحقّ.

وعلى حين غرّة، أطرق الرأس الرماديّ من جديد، وقال الشيخ بصوت خافت:

ــ أجل، هذا صحيح، لنا الحق..

«إنّني لأذكر.. ذات يوم، أثناء الحرب، كنّا مجتمعين حول شخص يحتضر لم يكن أحد يعرفه، كان قد وُجد بين حطام سيّارة إسعاف مضروبة بالقنابل (عن عمد أو لا، هذا لا يبدّل من الأمر شيئًا!)، كان وجهه مشوَّهًا. ولم نكن نعرف ما كانه: كان ينتمي إلى أحد الجيشين، هذا كلّ ما كان يمكننا قوله، كان يئنّ، يبكي، يعوِل، يُطلق صرخات رهيبة، كنّا نحاول أن نلتقط من احتضاره كلمة، لهجة، قد تدلّنا على جنسيّته. لم نستطع، لم نستطع أن نسمع شيئًا واضحًا ينبجس من شبه الوجه الذي كان يتلوّى ألمًا على النقّالة، وتبعناه بالأعين وأصغينا إليه إلى أن سكت، وحين مات وتوقفنا عن الارتعاد ــ رأيت للحظة وفهمت، فهمت في أحشائي أنَّ الإنسان يمتّ بجذوره إلى الإنسان أكثر مما يمتّ بها إلى مواطنيه المبهمين، فهمت أنَّ كلّ عبارات البغضاء والتمرّد ضدّ الجيش، وأنَّ كل الشتائم الموجَّهة إلى العَلَم، وأنَّ كلّ النداءات المعادية للنزعة الوطنيَّة يرنّ صداها في المثل الأعلى والجمال.

«أجل، إنّا على حقّ، إنّا على حقّ! وبعد ذلك اليوم، أتيح لي، عدّة مرّات، أن أتوغّل حتى الحقيقة، لكن ماذا تريد.. فأنا شيخ ولا قوّة لي على البقاء!».

فتمتم الشاب، واقفًا، بلهجة احترام منفعل:

ــ يا معلّم!

وتابع العالم الشيخ، وقد أخذته نشوة من إلهام الصدق، ثملًا بالحقيقة:

ـ أجل، أعرف، أعرف، أعرف، أقول لك! أعرف أنَّ ما من شيء، رغم تعقيد الحجج ومتاهة الحالات الخاصّة التي يضيع فيها المرء، يزعزع البداهة المطلقة، بداهة القول إنَّ القانون الذي يجعل البعض يولدون أغنياء والآخرين فقراء، ويوجد في المجتمع عدم مساواة مزمنة، لهو ظلم فائق لم يعد له من أساس يقوم عليه، شأنه شأن القانون الذي كان يخلق في الماضي عروقًا من العبيد، وأنّ النزعة الوطنيّة قد أصبحت عاطفة ضيّقة وعدوانيّة ستكون، ما وُجدت، غذاء للحرب الرهيبة ولإنهاك العالم، وإنَّه لا العمل والازدهار الماديّ والأخلاقيّ، ولا لطائف التقدّم النبيلة، ولا آيات الفنّ، بحاجة إلى التنافس البغيض ـ وإنَّ هذا كلّه، على العكس، مسحوق بالسلاح، أعرف أنَّ خريطة بلد ما مؤلَّفة من خطوط اتفاقيّة وأسماء متنافرة، وأنَّ حبّ الذات الفطري يقرّبنا إلى الإنسان بالذات أكثر مما يقرّبنا إلى من يؤلّفون جزءًا من مجموعة جغرافيّة واحدة، وأنَّ الإنسان مواطن لمن يفهمونه ويحبّونه ومن هم بمستوى روحه أو لمن يكابدون العبوديّة أكثر منه مواطنًا لمن يصادفهم في الشارع.. إنَّ المجموعات القوميّة، التي هي وحدات العالم المعاصر، هي ما هي عليه، ليكن. بيد أنَّ الإنسانيّة بالتشويه المتعاظم، الفظيع، للعاطفة الوطنيّة، تقتل نفسها، تموت، وما العصر الحاضر إلّا احتضار.

وتراءت لهما الرؤية نفسها وقالا في آن واحد:

ـ إنَّه سرطان، إنَّه سرطان.

وتحمّس المعلّم، فريسة للبداهة الساطعة:

ـ أعرف، كما تعرف، أنَّ الأجيال القادمة ستحكم بصرامة على من زرعوا ونشروا عبادة أفكار الاضطهاد، أعرف أنَّ شفاء شرّ ما لا يبدأ إلَّا حين نرفض عبادة ما يكرّسه.. وأنا الذي درس طوال نصف قرن جميع

الاكتشافات الكبرى التي غيَّرت وجه الأشياء، أعرف أنَّ المرء يواجه عداء كلّ ما هو موجود، حين يبدأ!

«أعرف أنَّها لرذيلةٌ أن يقضي المرء أعوامًا وقرونًا وهو يقول عن التقدُّم: «إنَّني على استعداد لأن أريده، لكنِّي لا أريده»، وأنَّه إذا كان تحقيق بعض الإصلاحات يستلزم القبول العالمي، حسنًا، فإنَّني أعرف أنَّ العالم أيضًا يولِّد نفسه بنفسه! أعرف، أعرف!

«أجل.. لكن أنا! كثير من الهموم تلحّ عليّ، كثير من العمل يرهقني. ثمّ، قلت لك إنَّني طاعن في السنّ. إنَّ هذه الأفكار جديدة عليّ للغاية. إنَّ عقل الإنسان غير قادر على أن يتقبَّل إلَّا كمِّيَّة معيَّنة من الإبداع والجدّة. وحين تُستهلك هذه الكمِّيَّة، ومهما كان التقدُّم المحيط، فإنَّ المرء يرفض أن يرى وأن يتقدَّم.. إنَّني أعجز عن أن أُدخل في النقاش المبالغة الخصبة. إنَّني أعجز عن أن أتحمَّل جرأة كوني منطقيًّا. إنَّني أعترف لك بذلك، يا بنيّ، لا قوّة لي على أن أكون على صواب!».

قال الشاب بلهجة من التوبيخ استيقظت جميلة صادقة أمام هذا الصدق:

ـ معلِّمي العزيز، لقد أعلنت على رؤوس الشهود استنكارك ضدّ من حاربوا علنًا فكرة الوطنيَّة! ولقد استغلوا، ضدّهم، أهمِّيَّة اسمك.

فتحفَّز الشيخ، وتلوّن وجهه.

ـ لا أقبل بأن يعرَّض الوطن للخطر!

لقد بتُّ لا أتعرَّفه. كان يسقط من شاهق فكرته الكبيرة، ولم يعد هو نفسه. واستولت عليّ الخيبة.

تمتم الآخر:

ـ لكن كلّ ما قلته..

ـ ليس الشيء نفسه. فالناس الذين تتحدَّث عنهم واجهونا بتحدِّيَّات. لقد أعلنوا موقفهم كأعداء وبرَّروا مسبقًا كلّ الإهانات.

فقال الشاب بصوت مرتجف:

ـ من يوجِّه إليهم الإهانة يقترف جريمة الجهل. إنَّه يسيء فهم المنطق العلويّ للأشياء التي تخلق.

ومال على رفيقه، وسأل بصوت أشدّ حزمًا:

ـ كيف لا يكون ما يبدأ ثوريًّا؟ إنَّ أوّل من هتفوا وحيدون، فهم إذن مجهولون أو مبغوضون ـ لقد قلت ذلك! ـ لكنَّ الأجيال القادمة ستستقبل هذه الطليعة ممن ضحّوا، وستحيّي من زرعوا الشكّ حول كلمة الوطن المبهمة، وستقرِّبهم من الروّاد الذين أعدنا إليهم الاعتبار نحن أنفسنا!

فهتف الرجل المسنّ:

ـ أبدًا!

كان قد تابع هذه العبارات الأخيرة بعين كدرة، وكان جبينه قد تخدَّد بثنية من العناد ونفاد الصبر، وكانت يداه تتشنّجان حقدًا.

تمالك نفسه. كلَّا، ليس الشيء نفسه. وعلى هذا، لا جدوى من هذه المناقشات. ومن الخير، بانتظار أن يقوم جميع الناس بواجبهم، أن يذهبا للقيام بواجبهما، ويخبرا تلك المرأة المسكينة بالحقيقة.

ـ من سيقولها لنا، نحن!

انبجست الجملة، غير منتظرة. كان الشاب قد تردَّد، قلق الوجه، ثم تصاعد من فمه هذا النداء الأكبر الذي فيه كلّ المعاني:

ـ ما الفائدة من أن تقال لنا، ما دمنا نعتقد أنَّنا نعرفها!

فقال الشاب وقد مسّه فجأة خوف لامرئيّ لم أفهمه البتّة، وبدا أنَّه يفقده توازنه على حين غرّة:

ـ آه! أودّ لو أعرف بما سأموت!

وأضاف باختلاج استطعت أن أراه:

ـ أودّ لو أكون واثقًا منه..

ونظر إليه زميله المشهور، مدهوشًا، وقد كفَّ عن الحركة:

ـ أَلديك أعراض تقلقك؟

ـ لست واثقًا. يخيَّل إليَّ.. لا أظنّ، لكن..

ـ أهو ما كنّا نتحدَّث عنه؟..

فأجاب الشابّ وهو يشيح بوجهه:

ـ أوّاه! كلّا! إنَّه شيء مختلف تمامًا.

وكما تحوَّل وجهه منذ لحظات بنوع من الحماسة، كان ينقلب الآن إلى رجل آخر بما يظهر عليه من علائم التخاذل.

ـ يا معلِّم، لقد كنت معلّمي. لقد كنت شاهدًا على جهلي، وأنت الآن شاهد على ضعفي.

كان يعصر يديه بخرق، ويحمرّ كطفل.

وقال العالم الشيخ، دون أن يسأله المزيد:

ـ هيّا إذن! أعرف هذا. لقد خفت في الماضي، خفت من السرطان، ثم خفت من الجنون.

ـ من الجنون، يا معلِّم، أنت!

فقال بصوت واهن رغمًا عنه:

ـ هذا كلّه انقضى عامًا فعامًا.. والآن، بتُّ لا أخاف إِلَّا من الشيخوخة.

فتابع التلميذ الذي تمالك نفسه قليلًا، وظنَّ أنَّ المسموح له أن يبتسم أمام هذه البداهة:

ـ من المؤكَّد، يا معلِّم، أنَّ هذا المرض هو الوحيد الذي يمكن أن تخشاه!

فهتف الشيخ بحدّة لم يستطع أن يتداركها، زرعت الاضطراب في نفس الشاب:

ـ تقول؟

وخجل من سذاجة هذا الاحتجاج التي تستحقّ الرثاء.

وتلعثم:

ـ آه! لو كنت تعرف! لو كنت تعرف ما هو هذا المرض البسيط، البسيط للغاية، هذا البلى وهذا النتن العامّان، المحتّمان، الوئيدان للغاية! آه! هل سيأتي قبل أن نموت، ذاك الذي سيشفي الانحطاط.

لم يكن الطبيب الشاب يعرف ما يجب أن يقوله لهذا الرجل، الذي ألقى بسلاحه فجأة، شأنه هو قبيل هنيهة. وخرجت من شفتيه بداية كلمة، ثم نظر إلى العالم الشيخ. وبعث هذا المشهد الاضطراب في قلقه الذاتي ثم هدّأ من روعه.

كنت أتابع بناظريّ هذه المبادلة السريعة في الهواجس، ولم أكن أتبيَّن هل الشعور الذي يخفِّف من كآبته أمام كآبة المعلّم هو شعور دنيء أم شعور سامٍ..

وأخيرًا جازف:

ـ هناك أناس يزعمون أنَّ الطبيعة تُحسن عمل ما تعمله!

ـ الطبيعة!

وقهقه الشيخ قهقهة ساخرة جمَّدتني:

ـ الطبيعة ملعونة، الطبيعة رديئة. المرض هو أيضًا الطبيعة. فما دام اللّاطبيعي محتَّمًا، فليس كأنّه طبيعيّ؟

بيد أنَّه أضاف، وقد لانت لهجته قليلًا بسبب حجّته الواهنة:

ـ «الطبيعة تحسن عمل ما تعمله». آه! إنَّ هذه، في الحقيقة، عبارة إنسان تعيس، لا يمكن أن نلوم عليها البشر. إنَّهم يأملون بأن يبهروا أنفسهم ويتعزّوا بالشعور بقاعدة وبحتميَّة. إنَّهم يهتفون بها لأنَّها غير صحيحة.

وكما في البدء، تبادلا النظر. وقال أحدهما:

ـ نحن إنسانان مسكينان.

فقال الآخر بوداعة:

ـ طبعًا.

واتّجها نحو الباب.

ـ هيَّا بنا من هنا. إنَّها تنتظرنا.. لنبلّغها الحكم الذي لا يغفر. لا الموت فقط، بل الموت الفوريّ. لكأنَّهما حَكَمان.

وأضاف الطبيب الشيخ من بين أسنانه:

ـ «حكم عليه العلم»، يا للتعبير الغبيّ!

ـ من يؤمن باللّـه يلقي بمسؤوليَّة ذلك على قدرة علويَّة.

وتوقَّفا قرب العتبة، عند كلمة اللّـه. ومن جديد، انطفأ صوتهما، وبات لا يُسمع تقريبًا، صوت راجف، محموم.

وهتف الشيخ بصوت خافت:

ـ أمَّا هذا، فهو مجنون. إنَّه مجنون!

ودمدم الآخر بتهكّم حقود:

ـ آه! من الخير له ألَّا يكون موجودًا!

ورأيت العالم الشيخ يلتفت، من صدر الغرفة الرماديَّة، نحو النافذة التي أخذت تلتحف بالبياض، ويمدّ قبضته إلى السماء، بسبب الواقع.

.. كان المريض يخفي وجهه خلف حاجز أصابعه الطويلة. كان حلم بهيٌّ صريح يخرج من فمه المتفسّخ، الذي يغذّيه الداء الكريه، كان هذا الفكر النقيّ كلّه يفرق المرأة، التي كلّمها الطبيبان بلا ريب.

ـ الهندسة!.. ماذا أعرف، أنا! إليك، مثلًا.. ساحة شاسعة: شلّال ماء، سهل من البلاط المتفاوت الحجم، ملقى بها على مرتفعات المدينة من جانب الضواحي. ثم يبدأ رواق. تولد أعمدة. سرعان ما تتدافع، تتكاثر، مدوّخة، شاهقة جدًّا حتى إنَّ خطوطها الكبرى الهاربة تجعلها تبدو وكأنّها ذراها تتشقّق، وحتى يبدو أنَّ السطح ظلٌّ للمساء أو الليل. هكذا يكون ربع الساحة مسقوفًا. إنَّه لأشبه بقصر مهيب مفتوح على مصراعيه، متوشّح بنوع من جلال نصف طبيعيّ، جدير باستقبال ضيوفه: الشمس الشارقة، والشمس الغاربة. وتنعكس الغابة الواسعة الشاحبة على أرضه الصخريَّة ليلًا ضياء رحبًا بسيطًا: الهالة الشماليَّة لفلك من المصابيح.

«في داخل هذه الساحة يتمركز الجزء الأعظم من النشاط العام: التجارة، البورصة، الفنّ، المعارض، الاحتفالات. الجمهور يربل فيها ويشكّل تموّجات وتيّارات، تحوم تحويمًا بطيئًا عند المفارق، فتضيع فيها العين في حلم الخطوط العموديَّة.

«ينحدر صفّ الأعمدة انحدارًا رأسيًّا، من الجنب، في الحيّ الآخر من المدينة، كجرف بحريّ. هذا كلّه بلا أسلوب. الهندسة العظيمة بسيطة المظهر. لكن النِسب واسعة جدًّا حتى إنَّ النظر يتبدّد فيها والقلب ينقبض».

كنت أحدِّق فيه، هذا الرجل الذي يتعاظم فيه القبر ساعة فساعة، وفجأة نظرت إلى عنقه. كانت عريضة، منتفخة بذلك الكائن الذي يتضخَّم فيها.. وبينما كان يتكلَّم، كان من الممكن تقريبًا رؤيته، في الباطن، في الباطن، في سواد الفحم!

تابع:

ـ من بعيد، حين يصل المرأ بالسكّة الحديديَّة، يرى أنَّ صفّ الأعمدة مغروس على جبل، وينحدر درج من الجهة المقابلة لخطّ أروقة المدخل، إلى سهل البساتين. يا لذاك الدرج! إنَّه لا يشبه شيئًا موجودًا، اللّهمّ إلّا خرائب أهرام مصر. إنَّه عريض جدًّا حتى إنَّ اجتياز درجة واحدة من درجاته عرضًا يتطلّب ساعة من الزمن. إنَّه مكتظّ بالمصاعد التي تصعد وتهبط كسلاسل دقيقة، ومليء بالسطوح المتحرِّكة، والآلات الرافعة، والقطارات. إنَّه درج كبير كالجبل، كالطبيعة المعذَّبة على امتداد عشرات الكيلومترات المربَّعة، المصنوعة بالرسوم الهندسيَّة، الماثلة بكلّ اتساقها ـ ذلك أنَّ العين تعانق دفعة واحدة من الأعلى أو من الأسفل الدرج كلّه بنظرة خاطفة ـ والمنحوتة أيضًا من جديد نحتًا عميقًا. ثمّة كتل، تلال كاملة، تثقل وتسيطر عليه، وتتحرَّك بحياة غريبة: إنَّها تماثيل.. إنَّ هذا الارتفاع الشاهق المصقول الملمس، الذي يلفّ وينعطف بخطّ منحنٍ لا يُفهم في البدء، لهو ذراع..

كان صوته نفّاذًا يعلن ويهب حقًّا جمال حلمه.

وتابع الكلام على أشياء عظيمة، بينما كانت بضعة أيّام فقط تفصله عن القبر. وكنت أودّ، أنا الذي يسترقّ السمع إليه خلسة، يبلبلني صراع جسمه وروحه، لو أعرف ما يعرفه..

ـ إنَّ النحّات طفل: أفكار أوليّة، بيضاء، بخطوط بسيطة، متصلّبة أو كأنَّها قطعة واحدة. إنَّه لمثال أعلى شاقّ ذاك الذي يكدّ وراءه، وهو

يكاد يلقي بسلاحه أمام الابتذال، بأداة عمله الابتدائي. إنَّ النحّاتين أطفال، وقليل من النحّاتين أطفال نابغون.

وبحث عن تماثيل في حلمه:

ـ ينبغي أن يكون العمل المنحوت مأساويًا، مسرحيًا، حتى ولو كان يمثِّل شخصًا واحدًا. إنَّني لا أفهم «التمثال النصفيّ» الذي له من الأعضاء أكثر ممّا له من الرّوح، والذي هو ترجمة حجريَّة للوحة ما هي أكثر حقيقيَّة ـ ذلك لأنَّ اللوحة تملك، بالاشتراك مع النموذج، الظلّ.

بدا عليه أنَّه ينظر، ويقول ما يراه:

ـ التمثال الرخاميّ للسقطة. أين يقع هذا الجمود دومًا؟

«موضوع كبير للنّحت: الكائن المعبود الذي فقدته، يرفع حجر القبر ويريك وجهه. إنَّ هذا الوجه الإنسانيّ لهو مرغوب ومخيف إلى ما لا نهاية في آن واحد ـ بسببه وبسبب موته. إنَّه ينبجس من أعماق الأرض، جثّة، ومع ذلك فإنَّه تحت السماء، ما دام هنا، وما دمنا ننظر إليه. وخلف ظلّ الرأس، يسند ظلُّ اليد الحجر.

«لا أدري أهو ميِّت أم ميِّتة. إنَّه رأس عزيز، أساريره بالنسبة للقلب حياة مؤثِّرة، صورته تحقِّق معجزة كونه طيِّبًا. لكنَّه ساكن موحل كالأرض، وهو لا يسمع شيئًا، وإن كان متَّجهًا إليك. الفمّ يبتسم، وإنَّه لخليط لا يمكن أن يوصف من الحب والفزع ـ لأنَّها ابتسامته، ولأنَّها أيضًا انفراجة الثانية الأخيرة من النزع. أيّ ندى يبلِّل الفم الباسم؟.. على أيّ عالم من الكمّيات المتناهية الصغر ينفرج، على أيّ نفحة كبيرة باردة؟ العينان تبكيان بغموض!.. إنّنا لنفكِّر بالذكرى التي ظلَّ أثرها على هذا الوجه، بالجسم الذي تحته.. بالجسم، وحيدًا في الليل، مبهمًا، مضمحلًا، مبسوطًا، في خفايا الأرض. والرأس هنا، أبيض، حطام سفينة أزليّ يعوم،

يقترب، ينظر إليك، يوجّه إليك ابتسامته وتكشيرته.. مسخ مخيف وديع، يفتح باب الضريح، ويخرج منه صديقًا، ويبقى فيه عدوًّا!..».

ثم تكلَّم على الرسم. قال إنَّ فيه بروزًا لا يتوافر لفنّ النحت. وذكر السكون الذي لا يصدَّق للّوحات الجميلة والسلطان الغيور للوجه المرسوم الذي ينادي الأنظار.

تنهَّد: «الفنانون تعساء: فعليهم أن يعيدوا صنع كلّ شيء. كلّ شيء منوط بهم. هل نعرف شيئًا ممّا تحتويه هذه الجزئيَّة من الواقع التي تتمثَّل لنا؟ لا بدّ من بصيرة عظيمة لإدراك ذلك. أجل، عظيمة ـ بصيرة تطفح بالهلوسات. إنَّ الكبار يخرجون على الطبيعة: راجراندت يرى رؤى كما يسمع بتهوفن أصواتًا».

وقاده هذا الإسم إلى الموسيقى.

قال: رغم أنَّ الموسيقى بلغت مستوى من الكمال لا مثيل له منذ أن صبّ الإنسان جهده في إبداع مختلف آيات الفن ـ بسبب بتهوفن وحده ـ فإنَّ بين الفنون تسلسلًا في القيمة بحسب مقدار الفكر الذي تطاله، ولهذا فإنَّ الأدب فوق سائر الفنون: مهما كانت كمّيَّة الآيات الفنِّيَّة المتحقِّقة حاليًا، فإنَّ هرمونيَّة الموسيقى لا تعادل الصوت الخافت لكتاب ما.

قال:

ـ أنا، أيَّهما أعظم شاعريَّة، الشاعر الذي يعبِّر برنين الجمل الجميلة من الصور الجميلة التي تتمثَّل لنا، متواكبة، ملكيَّة، ظافرة كالألوان في النهار، أو شاعر الشمال الذي يظهر، من خلال الديكور العاري والكئيب للزوايا الرماديَّة، وتحت صفرة النوافذ الضبابيَّة، وبكلمات قليلة. إنَّ الوجوه تتغيَّر وإنَّ في الظلّ الذي يفصل بين متخاطبين يكمن اللّامتناهي الوحيد الموجود!

ـ كلاهما على حقّ، بلا ريب.

ـ إنَّني أفضّل الآن، أنا الذي كانت طفولته كلّها تجذبه إلى شعراء الحبور والشمس، الشعراء الآخرين، إلى حدّ بتُّ معه لا أؤمن إلّا بهم. إنَّ اللّون فارغ ومائع. آنا، آنا، إنَّ الروح لطير ليليّ. كلّ شيء جميل، لكنّ الجمال العتم أولويّ ووالديّ. ليس في النّور إلّا الظاهر، أمّا في الظلمة، فنحن. إنَّ الظلمة هي واقع المعجزة التي تعبّر عن اللّامرئيّ.

وتحرّك حركةً استدار معها ثلاثة أرباع جسمه، ورأيت بجلاء ورم عنقه المتمرّد.

تابع بحركة ضيّقة: لكنّ فيها نوعًا من جلال سماويّ، حركة بائسة تنبؤيَّة:

ـ أجل، أجل.. إنّما من الأدب يغرف المرء أسمى وأملأ قبول بما هو موجود، الأدب الذي يحقّق بأمثل طريقة ـ الكمال بالذات تقريبًا ـ فائدة التعبير عن الذات.. أجل.. رغم أنَّ شكسبير وهبنا نفحات من العالم الداخلي، ورغم أنَّ فيكتور هيغو خلق عظمة لفظيّة، حتى إنَّ الديكور الكونيّ بدا من بعده وكأنَّه تغيَّر، فإنَّ فنّ الكتابة لم يجد بعد بتهوفنه. ذلك أنَّ ارتقاء الذروة العليا في هذا الميدان شائك منيع. وأنَّ الشكل هنا ليس إلّا شكلًا، وإنَّما المرام الحقيقة كاملة. إنَّ أيّ أثر من الآثار الكبيرة الثانويَّة لا وجود له ـ لم يستطع بلوغ الحقيقة عينها، التي ظلّت حتى اليوم، لجهل الكتّاب الكبار أو خجلهم، موضوع تأمّل ميتافيزيقيّ أو محطّ رجاء. إنَّها ما زالت حبيسة ومشوَّهة في أبحاث ذات مظهر علميّ أو في كتب ظاهرة حقيرة لا تتلاءم إلّا مع الواجب الأخلاقيّ، وما كانت لتكون مفهومة لولا أنَّ تعاليمها مفروضة على البعض لأسباب خارقة. ويتفنَّن المتأدّبون في عالم المسرح، في إيجاد صيغ للتسلية، أمّا في عالم الكتاب فإنَّ عملهم أشبه بعمل الكاريكاتوريّين.

«إنَّ مأساة الأفراد لم تُربط قطّ بمأساة الكلّ. فمتى باللّـه ستتّحد الحقيقة العميقة والجمال السامي؟ ينبغي أن يتّحدا، هما اللذان كان كلٌّ منهما ولا يزال أساس اتّحاد البشر؛ وعندئذ فقط، وبسبب رعشة الإعجاب، تمرّ أويقات صافية لا يعود فيها وجود للحدود أو للأوطان؛ وإنّما بسبب الحقيقة الواحدة الوحيدة يبصر الأعمى، ويعود البؤساء أشقّاء، ويصبح جميع البشر على صواب ذات يوم. إنَّ كتاب الشعر والحقيقة لهو أروع اكتشاف ينبغي اكتشافه».

- ١١ -

كانتا وحيدتين عند النافذة المفتوحة على مصراعيها، والتي يتمثَّل فيها الفضاء الذي تجذب عظمته الانتباه. ورأيت، على النور المليء، الحكيم، لشمس الخريف، كم ذبل قناع المرأة الحامل.

على حين غرّة، يتّخذ هذا الوجه تعبيرًا مذعورًا، فتتراجع المرأة حتى الحائط، وتستند إليه، وتطلق صرخة مكتومة.

تمسك بها الأخرى بين ذراعيها. تسحبها حتى الجرس، وتدقّ، وتدقّ.. ثم تلبث ههنا، لا تجرؤ على القيام بحركة، ممسكة بين ذراعيها بالمرأة الثقيلة الهشّة، ووجهها قرب هذا الوجه الذي تزيغ عيناه والذي تحلّق صرختَه، الصمّاء المكتومة في البداية، عواء حادًّا.

ينفتح الباب. هرولة. أوجه جديدة هنا. الخدم خلف الباب يترقّبون. لمحت صاحبه الفندق التي لا تحسن إخفاء خيبتها الهزليّة.

مدّدت المرأة على السرير.. تُحرِّك آنية، تنشر مناشف، تُعطي أوامر عاجلة.

النوبة تهدأ، تسكن. إنَّها سعيدة جدًّا بزوال الألم، حتى إنَّها لتضحك. انعكاس ضحكها المغتصب قليلًا يضيء الوجوه المنحنية. تُعرى من ثيابها بحذر.. تتركهم يعرّونها كأنَّها طفل.. يُهيَّأ السرير. ساقان تبدوان نحيلتين، ويبدو وجهها راقدًا، متلاشيًا. لا أرى إلّا هذا البطن الضخم في وسط السرير. شعرها مشعّث ومتهدِّل بلا حياة حول وجهها كمستنقع. يدان أنثويّتان تضفرانه بسرعة.

يتوقّف ضحكها، يتحطّم، قاتمًا.

ـ إنَّه يبدأ من جديد..

أنين يعلو، عواء جديد..

المرأة الشابّة ـ الصبيّة، الصديقة الوحيدة، بقيت بمفردها. إنَّها تنظر وتصغي إليها، تعجّ بها الأفكار. إنَّها تفكِّر بأنَّها هي الأخرى تحبس في نفسها مثل هذه الأوجاع ومثل هذا الصراخ.

.. استمرّ هذا طوال النهار. سمعت طوال ساعات، من الصباح حتى المساء، الأنين الممزّق يهبط ويصعد من الكائن المزدوج البائس. رأيت اللحم ينشقّ، يتحطّم، اللحم المرن ينقدّ كالصخر.

في بعض الأحيان، أتهاوى، منهكًا، وقد بتُّ عاجزًا عن النظر وعن السمع. أتخلَّى عن هذا القدر العظيم من الواقعية. ثم أتطاول من جديد إلى الحائط، وتنفذ فيه أنظاري.

الساقان قرمزيّتان. يرغمونها على إبقائهما مستقيمتين مباعدتين. لكأنَّهما ساقيتان من الدم ينبعان من بطنها ـ دم النساء المسفوح أبدًا!.. حياؤها، سرّها الدينيّ، ملقى بهما إلى الريح. لحمها، كلّه ماثل، فاغر الفم أحمر، وكأنَّه في معرض، عارٍ حتى الأحشاء.

الصبيّة تلثم جبينها، مقتربة بشجاعة من الصرخة الهائلة.

حين تأخذ هذه الصرخة شكلًا، فهي: «كلّا! كلّا! لا أريد!».

تمرّ، وتعاود المرور أوجه كادت أن تشيخ في ساعات من التعب، من الانقباض، ومن الخطورة.

سمعت أحدهم يقول:

ـ يجب ألّا نساعدها، يجب أن نترك الطبيعة تعمل عملها. إنّها تحسن عمل ما تعمله.

كان لهذه الجملة صدى فيّ. الطبيعة! إنّني لأذكر أنّ العالِم قد لعنها في اليوم السابق.

وتردّد شفتاي بدهشة الكذبة الملفوظة، بينما تشخص عيناي إلى المرأة البريئة الهشّة فريسة للطبيعة الرحيبة التي تسحقها، تضرّجها بدمها، تستخرج منها كلّ ما تستطيع أن تقدّمه من وجع.

القابلة شمّرت عن ذراعيها وضمّت قفّازين من المطاط. إنّني أراها تحرّك يديها الضخمتين اللامعتين بلونهما الأسود الأحمر كمطرقتين.

ويصبح هذا كلّه كابوسًا أؤمن به نصف إيمان، مثقل الرأس، وحلقي يغصّ برائحة قتل واخزة، وبرائحة حمض الفانول، الذي تسكب منه زجاجات مليئة.

طسوت مملوءة ماء أحمر، ماء ورديّ، ماء أصفر. كومة من الغسيل المتّسخ، في زاوية ما، ومناشف أخرى في كلّ مكان، منشورة، كأجنحة بيضاء، برائحتها الرطبة.

سمعت، في لحظة عدم انتباه متعب، الصرخة المنفصلة عنها. صرخة تكاد لا تكون إلّا ضجّة شيء، صريرًا خفيفًا. إنّه الكائن الجديد الذي يفلت من قيوده، الذي ليس بعد إلّا قطعة من اللّحم مأخوذة من لحمها ـ قلبها الذي انتزع منها.

هذه الصرخة أقضَّت مضجعي. لقد أحسست، أنا الشاهد على كلّ ما يكابده البشر، عند اهتزاز هذه الإشارة الإنسانيّة الأولى فيّ، بانفعال أبويّ وأخويّ.

ابتسمت، وقالت: «كيف تمّ الأمر بسرعة!».

النهار يأفل. الصمت سائد حولها. قنديل هزيل. النار التي لا تكاد تتحرَّك بين الفينة والأخرى. الساعة، تلك الروح، الروح المسكينة. لا شيء تقريبًا حول السرير، فكأنَّما ههنا معبد حقيقيّ.

إنَّها ههنا، ممدَّدة، ثابتة في سكون مثاليّ، وعيناها مفتوحتان متّجهتان إلى النافذة. إنَّها ترى المساء يخيِّم رويدًا رويدًا على أجمل أيامها.

على هذه الكتلة المتهدِّمة، على هذا الوجه المنهك، يشعّ مجد الخلق، نوع من وجه يشكر الوجع، وإنَّني لأرى عالم الأفكار الجديد الذي يرتفع منها.

تفكِّر بالطفل المترعرع. تبتسم للأفراح والآلام التي سيسبِّبها لها. تبتسم أيضًا للأخت أو الأخ اللذين سيكونان.

وأفكِّر في هذا لحظة تفكيرها فيه، وأرى خيرًا منها عذابها.

إنَّ هذه المجزرة، مأساة اللحم هذه، لهي مشتركة وشائعة حتى أنَّ كل امرأة تحمل ذكراها وأثرها. ومع ذلك، لا يعرف أحد هذا الأمر على حقيقته. إنَّ الطبيب الذي يمرّ أمام الكثير من الأوجاع المشابهة لا يرق قلبه لها. والمرأة، المليئة بالحنان، لا تعود قادرة على تذكُّره. اهتمام عاطفي من البعض، وتجرُّد مهنيّ من البعض الآخر، فيخفُّ الألم ويضمحلّ. لكنِّي عرفته، أنا الذي يرى ليرى، بكلّ فظاعته، ألم الوضع ذاك الذي لا ينتهي أبدًا، كما قال ذلك الرجل الذي كنت أسترقّ السمع إليه، في أحشاء أم. ولن أنسى أبدًا تمزّق الحياة الأكبر.

القنديل موضوع بحيث يغرق السرير في العتمة. لقد بتُّ لا أميّز الأم، بتُّ لا أعرفها، لكنّي أؤمن بها.

نقلت اليوم النفساء باحتراس عظيم إلى الغرفة المجاورة التي كانت تشغلها سابقًا ـ وهي أوسع وأكثر راحة.

نُظِّفت الغرفة رأسًا على عقب.

لم يتمّ ذلك بدون مشقّة. رأيتهم يرفعون الشراشف الحمر، يحملون الفراش المتّسخ الذي أصابه التعفّن بسرعة، يغسلون خشب السرير، ومقدّمة المدفأة، ووجدتِ الخادمة مشقّة في دفع كومة الغسيل والقطن والأنابيب، بقدمها إلى الخارج. وكانت على الستائر نفسها بصمات أصابع دامية، وكان البساط الموضوع تحت السرير ثقيلًا بالدمّ كحيوان روى غليله.

كانت هي آنا التي تتكلّم هذه المرّة:

ـ خذ حذرك، يا فيليب، فأنت لا تفهم الدين المسيحيّ. إنّك لا تعرف بدقّة ما هو. وأضافت مبتسمة: «إنّك لتتكلّم عنه كما تتكلّم النساء عن الرجال، أو كما يتكلّم الرجال حين يريدون أن يفسّروا النساء. إنَّ عنصره الأول هو الحبّ. إنّه تسوية حبّيّة بين كائنات تتباغض بالغريزة. إنّه، أيضًا، في قلوبنا، غنيّ بالحب يلبّي وحده جميع حيواتنا حين نكون صغارًا، ثم ينضاف إليه كل حنان، فيما بعد، كما ينضاف الكنز إلى الكنز. إنّه قانون في الاندفاق نهب أنفسنا له، وأنّه غذاء هذا الاندفاق. إنّه الحياة، إنّه ليكاد أن يكون رائعة فنّيّة، يكاد أن يكون أحدًا ما».

ـ لكن ليس هذا هو الدين المسيحيّ، يا جميلتي آنا. إنّما هو أنت...

سمعت، في هجيع الليل، كلامًا من خلال الحاجز. وتغلّبت على تعبي، ونظرت.

الرجل وحده ممدّد في سريره. لقد تُرك في الغرفة مصباح خافت النور. إنّه يتحرّك بوهن. إنّه ينام. يتكلّم... يحلم.

لقد ابتسم. قال ثلاث مرّات: «كلا!» بوجد متزايد. ثم تراخت الابتسامة التي كان يوجّهها إلى الرؤية التي تفعمه، وتلاشت. ظلّ وجهه لهنيهة من الزمن متصلّبًا، شاخصًا، وكأنّه ينتظر، ثم رسمت الشفتان علامة استياء خفيفة. ثم على حين غرّة، ذُعر القناع، وانفغر الفم، وصاح بدون أن ينطبق، وقد كمّه النعاس: «آنا! آه! آه! ــ آه! آه!». وآنذاك استيقظ، وأجال نظره. لقد أطلق تنهدة وسكن روعه. جلس في سريره، وهو لا يزال مأخوذًا ومرعوبًا من كلّ ما جرى، قبل بضع ثوانٍ. وأجال ناظريه في كلّ مكان كي يبعث فيهما الاطمئنان، كي يسلخهما من الكابوس الذي غرقا فيه. إنَّ مشهد الغرفة الأليف حيث يتربّع المصباح الصغير العاقل للغاية والساكن بلا حراك، يطمئن ويشفي هذا الرجل الذي رأى ما هو غير كائن، الذي ابتسم لأشباح ولمسها، الذي استولى عليه الجنون لتوّه.

استيقظتُ، هذا الصباح، يهدّني التعب. إنّني قلق. أشعر بألم أهمّ في وجهي. بدت لي عيناي، إذ نظرت إلى نفسي في المرآة، داميتين، وكأنّني أنظر من خلال الدم. إنّني أمشي وأتحرّك بصعوبة، نصف مشلول. لقد أخذ جسدي ينال جزاءه من الساعات الطويلة التي أظلّ فيها مبطوحًا على طول ذلك الحائط، ووجهي في الثقب. وكان هذا العقاب يتعاظم.

ثم إنَّ مشاغل من مختلف الأنواع تنتابني، حين أنفرد بنفسي، وأتحرّر من الرؤى والمشاهد التي أقف عليها حياتي. مشاغل بخصوص مركزي الذي أسيء إليه، بصدد الخطوات التي عليّ أن أقوم بها ولا أقوم بها، باذلًا جهدي ونفسي بدلًا من ذلك في إبعاد جميع الالتزامات المرهقة عنّي، وفي تأجيل كلّ شيء إلى ما بعد، وفي أن أدفع عنّي بكلّ قوّتي مصيري كمستخدم يتوجّب عليه أن يتعلّق بحركة الدولاب البطيء لساعة مكتب ومواثها الرتيب.

مشاغل تافهة أيضًا، مضنية لأنَّها تنضاف باستمرار، دقيقة إثر دقيقة، إلى بعضها بعضًا: ألَّا أحدث صوتًا، ألَّا أشعل نورًا حين لا يكون النور مضاء في الغرفة المجاورة، أن أختفي دومًا. لقد كدت أختنق، في المساء الماضي، بنوبة سعال، بينما كنت أنظر إليهما يتكلّمان. لقد أمسكتُ بوسادتي، ودفنتُ فيها رأسي وخنقتُ فمي.

يُخيَّل إليَّ أنَّ كلّ شيء سيتّخذ ضدّي، لينتقم منّي لست أدري أيَّ انتقام، وإنَّني لن أستطيع بعد الآن أن أقاوم طويلًا. بيد أنَّني سأتابع النظر ما دمت أملك الصحة والشجاعة، رغم أنَّ هذا أسوأ الحلول، إلّا أنَّه أكثر من واجب.

كان الرجل يأفل، وكان من الواضح أنَّ الموت يحوم في المنزل.

كان قد مضى من الليل هزيع طويل. وكانا يجلسان وجهًا لوجه، كلّ منهما في جانب من جانبيّ الطاولة.

كنت أعرف أنَّ قرانهما قد تمّ عقده، بعد الظهر. كانا قد تمّما هذا الاتّحاد كي يمنح الوداع القريب أبهة أعظم. بضع أزاهير بيضاء: زنابق وصحراويات متناثرة على الطاولة، على المدفأة، على أحد المقاعد. وكان هو الآخر يحتضر احتضار رؤوس الأزهار المقطوعة هذه.

قال:

ـ لقد تزوَّجنا. أنت امرأتي. أنت امرأتي، يا آنا!

طالما داعبه الأمل في لفظ هذه الكلمات لما فيها من عذوبة زوجيَّة، لا أكثر من ذلك... لكنَّه كان يشعر بأنَّه فقير جدًّا، بما تبقّى له من أيام، فكان يرى في هذه الكلمات السعادة كلّها.

نظر إليها، ورفعت بصرها إليه ـ هو الذي يعبد حنانها الأخويّ، هي التي تعلّقت بعبادته. يا له من انفعال لامتناهٍ في هذين الصمتين اللذين

يتواجهان في نوع من العناق في الصمت المزدوج لهذين الكائنين، اللذين لا يتلامسان البتّة، كما لاحظت، ولو بأطراف الأصابع..

انتصبت الفتاة، وقالت بصوت غير واثق:

ـ لقد تأخّر الوقت، سأنام.

ونهضت. وأضاء الغرفة المصباح الذي وضعته على المدفأة.

كانت تختلج بكلّ جسدها.. تبدو وكأنّها في حلم، ولا تعرف كيف تطيع هذا الحلم.

وحين وقفت، رفعت ذراعها وسحبت حبّاسات شعرها. ورأيت جدائلها تنساب، جدائلها التي بدت في الظلام وكأنّها مضاءة بمغرب الشمس.

كانت قد صدرت منه حركة مباغته. كان ينظر إليها مندهشًا، بدون كلام.

وتخلّصت من دبّوس ذهبيّ يحبس جيب قميصها، وتبدّى قليل من صدرها.

ـ ماذا تفعلين، يا آنا، ماذا تفعلين؟

ـ إنّني... إنّني أخلع ثيابي.

أرادت أن تقول ذلك بلهجة طبيعيّة، لكنّها لم تستطع. وأجاب بنداء لم يلفظه، بصرخة من قلبه الذي مسّ في شغافه.. كان الذهول، والحسرة اليائسة، وكذلك الانبهار من أمل غير معقول، تبعث في نفسه الاضطراب، وتثقل على صدره.

ـ أنت زوجي...

فقال:

ـ آه! أنت تعلمين أنّني لست شيئًا.

كان يتلعثم في صوت ضعيف ومأساويّ بجمل متقطّعة وبكلمات لا رابطة بينها:

ـ ... كان زواجنا شكليًا... إنَّني أعرف ذلك، أعرف ذلك... شكليّات... اتّفاقاتنا...

لقد توقَّفت. كانت يدها نصف حائمة فوق عنقها، كزهرة على قميصها. قالت:

ـ أنت زوجي، لك الحقّ في أن تراني.

فبدرت منه حركة... فتابعت بسرعة:

ـ لا... لا، هذا ليس من حقّك، إنَّما أنا التي تريد.

كنت قد بدأت أفهم إلى أيّ حدّ تحاول أن تكون طيّبة. كانت تريد أن تعطي هذا الرجل، الرجل المسكين الذي ينطفئ أمامها، مكافأة جديرة به. كانت تريد أن تُحسن إليه، أن تهبه رؤية ذاتها.

لكنّ الأمر كان أصعب من ذلك أيضًا: إذ كان عليها أن تبدو وكأنَّها لا تفي دينًا؛ وإلّا لن يقبل رغمًا عن العيد الذي كان يتعاظم في عينيه. كان ينبغي أن يعتقد أنَّ المسألة هي مسألة فعل تتمّمه زوجته عن طواعية، مسألة مداعبة حرّة لحياته. كان ينبغي عليها أن تخفي عنه، كما تخفي الرذيلة، القرف والألم. وكانت تخاف من نفسها، لشعورها مسبقًا بكلّ ما ستبذله من رهافة عبقريّة، من قوّة، كي تتمّ التضحية.

كان يقاوم:

ـ كلا... أنا... عزيزتي أنا... فكّري...

كان سيقول: «فكّري بميشيل». لكنَّه لم يجد القوّة ليعبّر في هذه اللحظة عن الحجّة الوحيدة الحاسمة، لم يجد القوّة، إنَّما تمتم فقط:

ـ أنت!... أنتِ!...

فكرَّرت:

ـ إنَّني أريد ذلك.

ـ لا أريد، لا، لا...

كان يقول هذا بوهن متعاظم أكثر فأكثر، وقد غلبه على أمره الحب والرغبة المجنونة في أن يحدث ذلك. كان قد وضع، بدافع من نبل غريزيّ في نفسه، يده أمام عينيه، لكنَّ يده كانت تتراخى شيئًا فشيئًا، تتراخى مستسلمة.

وتابعت تعرّيها، كانت حركاتها المذعورة قد باتت لا تعرف ماذا تفعل، وكانت تتوقّف حينًا، وتستأنف عملها تارة أخرى، كانت وحدها بشكل رائع ولم يكن يساعدها إلّا القليل من المجد.

خلعت قميصها الأسود، وبرز نصفها الأعلى كالنهار. وارتعدت بكلّ جسدها ما إن مسَّها النور، وصلّبت ذراعيها البضتين والنقيّتين على صدرها. ثم قدّمت وجهها المتورّد كالأرجوان، وذراعها على شكل قوس، وشفتاها مضمومتان بعناية وكأنّها غير مهتمّة إلّا بما تفعله، وحلَّت حزام تنّورتها التي انسابت على طول ساقيها. وخرجت منها في حسيس عذب، شبيه بالحفيف الذي تحدثه الريح في البستان العميق.

وخلعت قميصها الداخليّ الأسود الذي يضفي على أشكالها حدادًا وتوقّدًا، والمشدّ المشدود بجرأة إليها، والبنطال الذي كان يقلّد، بشكله وثنياته، عريها، برخاوة.

أسندت ظهرها إلى المدفأة. كانت تقوم بحركات واسعة، جليلة ورائعة، وإن كانت جميلة وأنثويّة. وحلّت رباط جوربها، وأخرجت من النقاب الرقيق المعتم ساقًا جميلة بضّة كساق تمثال من تماثيل ميكال آنج.

وفي تلك اللحظة ارتجفت، بلا حراك، وقد أخذها الاشمئزاز. وتمالكت نفسها، وقالت، لتبرِّر الرعدة التي جعلتها تتوقّف:

ـ أشعر بشيء من البرد...

ثم تابعت مُظهرة حياءها الرحب باغتصابها له ـ ورفعت يدها إلى شريط قميصها.

وصاح الرجل بصوت خافت، كيلا يخيفها بصوته:

ـ أيَّتها العذراء القديسة!..

كان ههنا، منكفئًا على نفسه، متكوِّرًا، وجوده كلّه في عينيه، يحترق في الظلّ، بحبّه الذي لا يقلّ جمالًا عنها.

كان يحشرج أيضًا: «أيضًا... أيضًا...».

يا للّحظة الكبيرة، يا للحوار الرحب الصامت بين الحميّة والفضيلة! كانت عينا المحتضر الواسعتان المسكينتان تفتضّان بكارتها، تشوّهانها ـ وكان عليه أن يناضل ضدّ قوّة هذا الرجاء بالذات كي يلبّيه. كان كلّ ما في عملها ضدّهما هو وهي.

ومع ذلك، وبدلال بسيط ومهيب، تركت حمّالات قميصها تنساب على رخام كتفيها الدافئ ـ ووقفت عارية أمامه.

لم أرَ قطّ امرأة في مثل هذا الجمال المشعّ. لم أحلم قطّ بنظيرها. كان وجهها قد أذهلني في اليوم الأوّل بانتظامه وتألّقه، وبدت لي بطولها الكبير ـ كانت أطول منّي ـ بدينة ونحيفة في آن واحد، لكنّي ما كنت لأومن بوجود مثل هذا الكمال من الروعة في الأشكال.

لكأنَّها حوّاء من حوّاءات التصاوير الحائطيَّة الدينيَّة الضخمة، بأبعادها الفائقة الإنسانيَّة. كان لحمها غزيرًا، ضياؤها بسيطًا، حركتها موزونة مهيبة، وكانت في الوقت نفسه ممشوقة، عذبة، مرنة. كتفان عريضتان، ثديان مشرئبان ثقيلان، قدمان مستديرتان كثديين.

كانت قد اتّخذت غريزيًّا وضع فينوس ميديسيس العلويّ: ذراع نصف منثنية أمام الثديين، والذراع الأخرى متطاولة، واليد مفتوحة أمام بطنها. ثم رفعت وقد أخذها وجد التقدمة، يديها إلى شعرها.

كانت تُبدي لناظريْه كلّ ما كان يخفيه ثوبها. كانت تقدّم كلّ ذلك البياض، الذي لم يره أحد غيرها حتى الآن، ذبيحة لذلك الانتباه المذكّر، الذي يشارف على الموت، وإن كان ما يزال حيًّا.

كلّ شيء: بطنها الصقيلة كبطن عذراء بزغبها الذهبيّ. جلدها الناعم الحريريّ بلونه النقيّ الوضيء الذي تتراءى عليه في بعض المواضع انعكاسات لجينية، ويلمح الناظر إليها في صدرها وعانتها زرقة الشرايين المنسفحة على الجلد كرعشة لازورديّة. الثنية الناتجة عن انحناء قامتها، مع طوق عنقها، وكشحاها الواسعان كالعالم، ونظرتها الصافية الكدرة التي تنبثق منها حين تكون عارية.

.. تكلّمت: قالت بصوت كصوت الحالم، باذلة المزيد أيضًا من هبتها العلويّة:

ـ لا أحد ـ وضغطت على هذه الكلمة بإلحاح يذكّر بشخص ما ـ لا أحد، اسمعني جيّدًا، سيعرف أبدًا، مهما حدث، ما فعلته هذا المساء.

وبعد أن أعطت عطاء أبديًا سرّها للمتعبّد الجاثم أمامها كضحية، ركعت أمامه. ولمست ركبتاها الوضيئتان المتألّقتان السجّادة البالية، وتمتمت، بعد أن اقتربت على هذا النحو، وقد أصبحت عارية حقًّا للمرّة الأولى في حياتها، واحمرّ لونها حتى دميت كتفاها، وأزهرت وازدانت بطهرها، بعبارات عرفان بالجميل غير مفهومة، وكأنّها كانت تشعر بأنّ ما تفعله كان فوق واجبها وأجمل منه، وبأنّها انبهرت منه هي نفسها.

وحين ارتدت ثيابها ودلفت في الظلمة إلى الأبد، وافترقا دون أن يجرؤا على النطق بكلمة واحدة، انتابني شكّ كبير. هل أصابت، هل أخطأت؟

ورأيت الرحل يبكي. وسمعته يتمتم:

الآن، لن أعرف كيف أموت!

- ١٢ -

الرجل الآن ما يزال متمدّدًا. إنَّهم يخطرون حوله باحتراس. هو يقوم بحركات صغيرة، يلفظ عبارات نادرة، يطلب أن يشرب، يبتسم، يلزم الصمت تحت تدفُّق أفكاره.

لقد أخذ، هذا الصباح، شكل الإرث، وضمّ يديه.

أحاطوا به، نظروا إليه.

ـ هل تريد كاهنًا؟

قال:

ـ نعم.. لا..

خرجوا. وبعد بضع لحظات، كان في الغرفة رجل داكن الثوب، وكأنَّه كان ينتظر خلف الباب. كانا وحيدين.

أدار المحتضر وجهه نحو القادم الجديد، وقال له:

ـ سأموت.

فقال الكاهن:

ـ ما دينك؟

ـ دين بلادي، أرثوذكسي.

ـ إنَّها هرطقة. عليك أولًا أن تجحدها. لا دين حقيقيًّا إلّا الدين الكاثوليكيّ الرومانيّ.

تابع:

ـ إعترف.. سأحلُّك من خطاياك وأعمّدك.

فلم يجب الآخر. فكرَّر الكاهن السؤال:

ـ اعترف. قل لي ما فعلته من شرّ ـ بالإضافة إلى ما اقترفته من أخطاء. سوف تندم وسيُغفر كلّ شيء لك.

ـ من شرّ؟

ـ تذكَّر.. أينبغي أن أساعدك؟

وأشار برأسه إلى الباب.

ـ هذه المرأة المقيمة معك.

فقال الرجل بتردُّد:

ـ إنَّني متزوِّج بها.

ولم يخفَ هذا التردُّد على الوجه المنحني عليه، بأذنيه المرهفتين. لقد اشتمّ الكاهن رائحة شيء ما:

ـ منذ كم؟

ـ منذ يومين.

ـ أوّاه! منذ يومين! وقبل، هل ارتكبت الخطيئة معها؟

فقال الرجل:

ـ كلّا.

ـ آه!.. افترض أنَّك لا تكذب. ولمَ لم ترتكب الخطيئة؟ هذا ليس بالشيء الطبيعيّ. وألحّ: «ذلك أنَّك، في النهاية، بشر..».

ولما طفق المريض يضطّرب، يخاف. قال الكاهن:

ـ لا تدهش، يا بنيّ، إذا كانت أسئلتي مباشرة وصريحة إلى حدّ تدفعك معه على الصياح. إنَّني أستجوبك بكلّ بساطة، وبحماية بساطة ثوبي الكهنوتيّ المهيب. فأجبني بالأسلوب البسيط نفسه. وأضاف بشيء من السذاجة: «وستتفاهم مع اللّـه».

قال الشيخ:

ـ إنَّها فتاة. مخطوبة. لقد آويتها في بيتي وهي ما تزال طفلة. لقد شاركتني متاعب حياتي الكثيرة الترحال، واعتنت بي. ولقد تزوَّجتها قبل أن أموت، لأنَّني غنيّ ولأنَّها فقيرة.

ـ ألهذا فقط؟ ألا يوجد أيّ شيء آخر، أيّ شيء؟

كان يحدِّق إلى الوجه الخصم بانتباه، مستجوبًا، ملحاح العين. ثم قال: «إيه؟» وهو يبتسم بفمه العاري وغامزًا بعينه غمزة تشجيع، بل تواطؤ.

قال الرجل:

ـ إنَّني أحبّها.

فهتف الكاهن:

ـ لقد اعترفت، أخيرًا!

وتابع، وعيناه في عينيِّ المحتضر، صادمًا إيّاه بلهاث كلماته:

ـ إذن، لقد اشتهيت تلك المرأة، جسد تلك المرأة، وارتكبت بالفكر، لمدّة طويلة، أليس كذلك! أجل، لمدة طويلة، الخطيئة؟..

«قل لي كيف كنتما تدبّران أمركما بالنسبة للغرف والأسرّة، في الفنادق، أثناء رحلاتكما المشتركة؟

«تقول إنَّها اعتنت بك. فماذا كانت تفعل لتعتني بك؟»

كانت هذه الأسئلة، التي كان الرجل المقدّس يحاول عن طريقها الدخول إلى شقاء ذلك المتهالك ههنا، تنفّره وكأنَّها شتائم. إنَّ كلًا منهما يحدِّق في وجه الآخر الآن، ويترصَّد كلّ منهما الآخر، وكنت أرى سوء التفاهم الذي يفصل بينهما يزداد عمقًا.

لقد انغلق المحتضر على نفسه، وأصبح صلبًا جاحدًا، أمام هذا الغريب ذي الوجه المبتذل، الذي تتّخذ كلمات اللّـه والحقيقة في فمه طابعًا هزليًا خشنًا، والذي يريد أن يفتح الآخر قلبه له.

ومع ذلك بذل جهدًا، وقال:

ـ إذا كنت قد أخطأت بالفكر، على حدّ تعبيرك، فهذا يثبت أنَّني لم أخطئ، ولِمَ أندم على ما لم يكن إلّا ألمًا لا أكثر ولا أقل؟

ـ أوّاه! دعنا من النظريّات. نحن لسنا هنا من أجل ذلك. إنَّني أقول لك أنا، أتسمع! أنا، إنَّ الخطيئة المقترَفَة بالفكر مقترفة بالنيّة، وإنَّها بالتالي خطيئة فعليّة تتطلّب الاعتراف بها والتكفير عنها. اروِ لي في أيّ ظروف حرَّضتك الشهوة على التفكير الآثم. وقل لي كم مرة حدث ذلك. أعطني تفاصيل.

أنَّ الرجل:

ـ لكنّي قاومت، هذا كلّ ما يمكنني أن أقوله.

ـ المقاومة لا تكفي. إنَّ الدنس ـ إنَّك مقتنع الآن، على ما افترض، بصحة هذه اللّفظة ـ إنَّ الدنس ينبغي أن يُغسل بالحقيقة.

فقال المحتضر:

ـ ليكن. إنَّني أعترف بأنَّني ارتكبت تلك الخطيئة، وإنَّني نادم عليها.

فأجاب الكاهن:

ـ ليس هذا باعتراف وهذا لا يكفيني. في أيّ ظروف، على وجه الدقّة، استسلمت لإيحاءات روح الشرّ، فيما يخصّ تلك المرأة؟

واهتزّ الرجل من فرط الغضب، فانتصب نصف انتصابة، واستند بمرفقه إلى السرير، محدِّقًا بالغريب الذي كان ينظر إليه هو الآخر، وعيناه في عينيه. وسأل:

ـ وما يدريك أنّ بي روح الشرّ؟

ـ إنَّه كامن في جميع البشر.

ـ إذن، فهو اللّـه الذي وضعه فيهم، ما دام اللّـه هو الذي خلقهم.

ـ آه! إنَّك لتحبّ النقاش، أنت! على رسلك. سأجيب. إنَّ الإنسان يملك روح الخير وروح الشرّ في آن واحد، أي يملك إمكانية فعل الخير أو الشرّ. فإذا ما سقط في الشرّ، كان ملعونًا، وإذا ما انتصر عليه، كوفئ. وكي تنقذ روحه، فعليه أن يستحقّ ذلك بنضاله من كلّ قواه.

ـ أيّ قوى؟

ـ الفضيلة، الإيمان..

ـ وإذا لم يكن لديه ما فيه الكفاية من الفضيلة والإيمان، أهي غلطته؟

ـ أجل، ومردُّ ذلك إلى كثرة الآثام والضلال في روحه.

فكرَّر الآخر:

ـ من وضع في روحه نصيبها من الفضيلة ونصيبها من الضلال؟

ـ لقد منحه اللّـه الفضيلة، وترك له إمكانية ارتكاب الشرّ. لكنَّه منحه في الوقت نفسه الخيار الحرّ الذي يسمح له بأن يختار بحسب إرادته الخير أو الشرّ.

ـ لكن، إذا كان فيه من الغرائز الشرّيرة أكثر ممّا فيه من الغرائز الصالحة، وإذا كانت الغرائز الأولى أقوى، فكيف سيكون بمقدوره أن يلتفت إلى ناحية الخير؟

فقال الكاهن:

ـ بعامل الاختيار الحرّ.

ـ إنَّ الاختيار الحرّ ما هو هو إلّا غريزة صالحة، وإذا..

ـ يستطيع الإنسان أن يكون صالحًا إذا شاء، هذا كلّ شيء. وإلّا لن ننتهي أبدًا من النقاش فيما لا يحتمل نقاشًا. كلّ ما نستطيع أن نقوله هو أنَّ الأمور ما كانت لتكون ما هي عليه لولا أنَّ اللعنة حلّت على لوسيفوروس، ولو لم يرتكب الخطيئة الإنسان الأول.

فقال المريض الذي أنعشه هذا الصراع، وإن كان سيصاب بنكسة عمّا قليل:

ـ ليس من العدل أن نتحمَّل وزر لوسيفوروس وآدم.

«لكن من الفظاعة، على كلّ حال، أن تحلّ اللعنة على هذين، وأن يُعاقبا. إذا كانا قد سقطا في التجربة، فهذا لأنَّ اللّـه قد أخرجهما من لاشيء، من لاشيء، أتفهم؟ أي أنَّه أعطاهما كلّ ما كان فيهما، أعطاهما من الرذيلة أكثر ممّا أعطاهما من الفضيلة. ولقد عاقبهما لسقوطهما حيث رمى بهما!».

فتح الرجل، الذي ما يزال مرتفعًا وذقنه في يده ـ نحيلًا أسود ـ فتح عينيه على سعتهما وشخص بهما إلى مخاطبه، وأصغى إليه إصغاء أبي الهول.

وردَّد الكاهن، وكأنَّه لا يفهم شيئًا من شيء:

ـ كان بمقدورهما أن يكونا نقيين، لو أرادا. هذا هو الخيار الحرّ.

كان صوته وديعًا تقريبًا. ولم يكن يبدو عليه أنّه تأذّى من سلسلة الأجاديف التي خرجت من الرجل الذي جاء ليساعده. كان لا يبالي بهذا النقاش اللّاهوتيّ، فلا يساهم فيه إلّا بكلمات لا بدّ من قولها، بعامل العادة. لكنّه ربّما كان ينتظر أن يتعب المتحدّث.

ولمّا كان هذا الأخير يلهث ببطء، منهكًا، فقد أسمعه، أبان له هذه الجملة الواضحة والباردة كنقش على حجر:

ـ الخبثاء تعساء. والصالحون أو التائبون سعداء في السماء.

ـ وعلى الأرض؟

ـ على الأرض، الصالحون تعساء كالآخرين، أكثر من الآخرين، ذلك أنّنا كلّما تألّمنا على هذه الأرض الدنيا، كانت مكافأتنا أكبر في السماء.

ونهض الرجل من جديد، وقد استولى عليه غضب جديد أنهكه كالحمّى، وقال:

ـ آه! إنَّ ألم الصالحين على الأرض لقباحة، رغم الخطيئة الأصليّة، رغم الحكم الإلهيّ. ولا شيء يبرّره..

كان الكاهن ينظر إلى المتمرّد بعين فارغة.. (أجل، كنت أراه جيّدًا، إنّه ينتظر!). وقال بهدوء كبير:

ـ كيف تمتحن النفوس بدونه؟

ـ لا شيء يبرّره! ولا حتى تلك الحجّة الصبيانيّة المتذرّعة بجهل اللّـه لنوعية النفوس الحقيقيّة. ينبغي للصالحين ألّا يتألموا، لو كانت العدالة موجودة في مكان ما. ينبغي لهم ألّا يتألّموا، ولو قليلًا، ولو لحظة من لحظات الأبديّة.

«ينبغي للمرء أن يتألَّم كي يكون سعيدًا». كيف حدث أنَّ ما من أحد قد وقف ذات يوم ليصيح ضدّ هذا القانون الهمجيّ؟

كان ينهك نفسه.. وكان صوته يُبحّ. وجسمه المضنى يلهث، وكانت هناك ثغرات في جمله.

ـ لا وجود لشيء يُردّ به على اتهام هذا الصوت. مهما قلبت وقلبت الطينة الإلهيّة في جميع الاتّجاهات، ومهما عجنتها واشتغلت فيها، فلن تمحو منها اللحظة التي يخلّفها فيها الألم غير المستحقّ.

ـ لكنّ السعادة المكتسبة بفضل الألم، إنَّما هي المصير الكونيّ، القانون المشترك.

ـ إنَّما لأنَّه قانون مشترك، يبعث على الشكّ باللّـه.

ـ إنَّ مقاصد اللّـه لا يمكن فهمها.

ألقى المحتضر ذراعيه الضامرتين إلى الأمام، وتجوّفت عيناه. وصاح:

ـ كذب!

قال الكاهن:

ـ كفى. لقد أصغيت بصبر إلى هذيانك الذي أُشفق عليه. لكنَّ المسألة ليست مسألة هذه الأفكار. عليك أن تتهيّأ للمثول أمام اللّـه الذي يبدو لي أنّك عشت بعيدًا عنه. إذا كنت قد تألّمت، فسوف تتعزّى بحضرته. وليكفك هذا.

كان المريض قد سقط من جديد ممدَّدًا، ولبث بعض الوقت بلا حراك تحت ثنايا الشرشف الأبيض، كتمثال من الرخام له وجه من البرونز ممدَّد فوق قبر.

ـ لا يستطيع اللّـه أن يعزّيني.

ـ بنيّ، بنيّ، ماذا تقول؟

ودبَّت الحياة في صوته:

ـ لا يستطيع اللّـه أن يعزِّيني، لأنَّه لا يستطيع أن يعطيني ما أرغب فيه.

ـ آه! يا ولدي المسكين، ما أظلم عماك.. وقدرة اللّـه اللّامتناهية، ماذا تصنع بها؟

فقال الرجل:

ـ واأسفاه، إنَّني لا أصنعها!

ـ ماذا؟ إنَّ الإنسان سيتخبّط طوال حياته، يعذِّبه الألم، ولن يكون هناك من عزاء له! بمَ تستطيع أن تجيب على هذا؟

فقال الرجل:

ـ مع الأسف، ليس هذا بسؤال.

ـ لِمَ استدعيتني؟

ـ كنت آمل، كنت آمل.

ـ ماذا؟ ماذا كنت تأمل؟

ـ لست أدري، إنَّ الإنسان لا يأمل إلّا بما لا يعرفه.

وجالت يداه في الفراغ ثم همدتا من جديد.

لبثا صامتين، لا يريمان.. كنت أحسّ أنَّ أفكارهما تدور حول وجود اللّـه بالذات. هل اللّـه غير موجود، هل مات الماضي والمستقبل؟.. رغم كلّ شيء، حدث شيء من التقارب، لم يدم أكثر من لمح البصر، بين هذين الكائنين اللذين تشغلهما فكرة واحدة، بين هذين المتضرّعين، بين هذين الأخوين في التباين.

قال الكاهن:

ـ الوقت يمضي.

وأضاف متابعًا الحوار من حيث انقطع قبل لحظات، وكأنَّ شيئًا لم يقل بعده:

ـ أخبرني بظروف خطيئتك الجسديَّة. قل لي.. حين كنت وحدك مع تلك المرأة، جنبًا إلى جنب، قريبًا منها، أكنت تتكلّم أم كنت تصمت؟

فقال الرجل:

ـ إنَّني لا أؤمن بك.

فقطَّب الكاهن حاجبيه:

ـ اندم، وقل لي إنَّك تؤمن بالدين الكاثوليكيّ الذي سينقذك.

لكنّ الآخر هزّ رأسه بقلق عظيم، نافيًا سعادته كلّها، وبدأ يقول:

ـ الدين..

فقاطعه الكاهن بفظاظة:

ـ لن تعاود من جديد! اسكت. إنَّني لأضرب بعرض الحائط كلّ ذلاقات لسانك. ابدأ بالإيمان بالدين، ثم سترى ما هو. إنَّك لن تؤمن به لأنَّه سيعجبك، على ما افترض؟ لهذا فإنَّ كل عباراتك هي في غير موضعها، ولهذا جئت، أنا، لأرغمك على الإيمان.

كانت مبارزة، صراعًا. كان الرجلان يتبادلان النظر على حافّة القبر كعدوّين.

ـ ينبغي أن نؤمن.

ـ لا أؤمن.

ـ ينبغي ذلك.

ـ أتريد أن تغيِّر الحقيقة بتهديدات؟

ـ أجل.

وألحَّ على صراحة وصيّته:

ـ سواء أكنت مقتنعًا أم لم تكن، فآمن. ليست المسألة مسألة برهان، بل إيمان. عليك أولًا أن تؤمن، وإلَّا فإنَّك تجازف بألّا تؤمن أبدًا. إنَّ اللّـه لا يتنازل ليقنع بنفسه الجاحدين. ولم يعد هذا الزمن بزمن المعجزات. إنَّ المعجزة الوحيدة إنَّما هي نحن، إنَّما هي الإيمان. «آمَن وستجعلك السماء تؤمن».

آمن! كان يرميه بالكلمة نفسها بلا انقطاع، كأنَّه يرميه بحجارة.

وتابع، بهيبة أكبر، واقفًا، ويده الضخمة المستديرة مرفوعة:

ـ يا بنيّ، إنَّني أطلب منك فعل إيمان.

فقال الرجل حاقدًا:

ـ اذهب من هنا.

لكن الكاهن لم يتحرَّك.

لقد أصبح لا يُروى له غليل، مشحوذًا بالعجلة، مدفوعًا بضرورة إنقاذ تلك الروح رغمًا عنها. قال:

ـ ستموت، ستموت. لم يبق أمامك إلَّا لحظات قليلة من الحياة. ارضخ.

فقال الرجل:

ـ كلّا.

فأمسك الرجل ذو الرداء الأسود بيديه:

ـ ارضخ. لا تسعَ إلى نقاش كالنقاش الذي أضعت فيه وقتًا ثمينًا. هذا كلّه لا أهمِّيَّة له، كقبض الرّيح.. إنَّنا وحدنا، أنت وأنا مع اللّـه.

وهزّ رأسه ذا الجبهة الصغيرة المحدّبة، والأنف المستدير المتقدّم، البارز من بين منخرين رطبين معتمين، والشفتين الرقيقتين الصفراوين اللّتين تربطان، وكأنّهما سيور، سنّين ناتئتين ومعزولتين في السواد. ووجهه المليء بالأخاديد على طول الجبين، بين الحاجبين، حول الفم، والمغطّى بطبقة رماديّة على الذقن والوجنتين. وقال:

ـ إنّني أمثّل اللّـه. أنت أمامي وكأنّك أمام اللّـه. قل ببساطة «إنّني أؤمن» وسأبرّئ ساحتك. «إنّني أؤمن»: كلّ شيء هنا. أمّا ما تبقّى فغير ذي أهمّيّة في نظري.

كان ينحني أكثر فأكثر، ويكاد أن يلصق وجهه بوجه المحتضر، ساعيًا إلى فرض غفرانه كأنّه يطعن.

ـ ردّد معي فقط: «أبانا الذي في السماوات». لن أسألك شيئًا آخر.

كان وجه المريض، المتشنّج بالرفض، يبدي حركة نفي: لا.. لا..

وعلى حين غرّة انتصب الكاهن، وعلى وجهه علائم الانتصار:

ـ أخيرًا! لقد قلتها.

ـ كلا.

فدمدم الكاهن من بين أسنانه:

ـ آه!

كان يشدّ على يديه، ولكأنّه يريد أن يأخذه بين ذراعيه ليعانقه، ليخنقه، ويودّ لو يقتله إذا ما كانت حشرجته اعترافًا ـ لقوّة رغبته في أن يقنعه، في أن ينتزع منه الكلمة التي جاء يبحث عنها على شفتيه.

وأبعد عنه اليدين الذابلتين، وذرع الغرفة جيئة وذهابًا كوحش مفترس، وعاد ليتسمّر أمامه. ووجّه كلامه إلى البائس متلعثمًا:

ـ فكّر في أنّك ستموت، ستتفسّخ.. عمّا قريب ستعود ترابًا. قل: «أبانا» هذه الكلمة فقط، لا أكثر.

كان منكفئًا عليه، مترصِّدًا فمه، منحنيًا وداكنًا كإبليس يترصَّد روحًا. انحناء الكنيسة كلّها على الإنسانيّة المحتضرة كلّها.

ـ قلها.. قلها.. قلها..

وحاول الآخر أن يتملَّص، وحشرج بحنق، بخفوت، بما تبقّى له من صوته: كلَّا.

فصاح به الكاهن:

ـ أيُّها السافل!

ـ ستموت وبين براثنك صليب على الأقل.

وأخرج صليبًا من جيبه، ووضعه على صدره، بتثاقل.

وتحرَّك الآخر باشمئزاز أصمّ، وكأنَّ الدين معدٍ، ورمى بالشيء أرضًا.

وانحنى الكاهن وهو يدمدم بشتائم: أيُّها النتن، تريد أن تفطس ككلب، لكنّي هنا!». والتقط الصليب، واحتفظ به في يده، وعينه تقدح شررًا، واثقًا من أنَّه سيعيش ويسحق، وانتظر للمرّة الأخيرة.

كان المحتضر يلهث، وقد أُنهكت قواه تمامًا، مستسلمًا. ووضع الكاهن من جديد الصليب على صدره، حين رآه تحت سيطرته. واحتفظ به الآخر، هذه المرّة، بعد أن لم يعد بمقدوره إلّا أن ينظر إليه بعين الحقد والكارثة. لكنَّ نظراته لم تسقطه.

وحين رحل الرجل الأسود في الليل، وثاب مخاطبه إلى رشده شيئًا فشيئًا، وتحرَّر منه، فكّرت بأن ذلك الكاهن كان على حقّ، كلّ الحقّ، في عنفه وخشونته. كاهن رديء؟ كلَّا، بل كاهن طيّب لم يكفّ عن الكلام بحسب ضميره وعقيدته، وكان يسعى فقط إلى تطبيق دينه، كما هو، دون تنازلات مرائية. جاهل، أخرق، فظّ ـ أجل، لكنَّه مستقيم ومنطقيّ حتى في جريمته البشعة. لقد حاول، طوال نصف الساعة التي

سمعته فيها، بشتّى الوسائل التي يستعملها الدين ويوصي بها، أن يمارس مهنته كجامع للمؤمنين وأن يعطي بركته. لقد قال كلّ ما لا يستطيع الكاهن ألّا يقوله. كانت العقيدة كلّها تتجلّى، واضحة صريحة، من خلال ابتذال الخادم، العبد، الفظّ. ولقد أنّ، في إحدى اللحظات، وقد أخذته الحيرة، بألم حقيقيّ: «ماذا تريد أن أصنع؟». إذا كان الرجل على حقّ، فالكاهن على حقّ. الكاهن، دابّة الدين.

... آه! ذلك الشيء الذي لا يتحرَّك، مستقيمًا، قرب السرير... ذلك الشيء الكبير العالي الذي لم يكن قبل لحظات، معترضًا سبيل لهب الشمعة الموضوعة قرب المريض، اللهب الوحشيّ..

أحدثتُ صوتًا، عن عدم انتباه، وأنا أستند، وأدار الشيء ببطءٍ شديد وجهه نحوي، بخوف أذعرني.

إنّني أتعرَّف هذا الرأس المضطرب.. أليس هو صاحب الفندق، رجل غريب الهيئة، لا يُرى كثيرًا..

كان قد تجوَّل في الممشى، منتظرًا اللحظة التي يصبح فيها المريض وحيدًا، في فوضى هذه الغرفة. وكان واقفًا قرب الرجل النائم أو الموهن من الضعف.

ومدّ يده نحو كيس موضوع قرب السرير. كان ينظر إلى المحتضر، وهو يفعل هذه الحركة، بحيث إنَّ يده أخطأت الهدف مرتين.

وحدثت طقطقة في الطابق العلويّ، وارتعدنا. وانصفق باب. وانتصب كأنَّه يريد أن يوقف صرخة.

.. فتح الكيس في بطء. وكنت أنا، أنا الذي بات لا يتعرّف نفسه، خائفًا من ألّا يتاح له الوقت..

وأخرج حزمة أحدثت حفيفًا خفيفًا. وحين نظر، في يده هو، إلى رزمة الأوراق النقديَّة، رأيت إشراقة فائقة الطبيعة تشعّ على وجهه. كانت جميع مشاعر الحبّ مرتسمة عليه: عبادة، صوفيّة، وحب وحشيّ أيضًا... نوع من الوجد الفائق، وكذلك سرور خشن يعانق أفراحًا مباشرة.. أجل، لقد انطبعت جميع أنواع الحبّ لهنيهة من الزمن على الإنسانيَّة العميقة لوجه السارق هذا.

.. كان أحدهم يترصَّد خلف الباب المنفرج.. ولمحت نداء ذراع.

وانصرف على أطراف أصابعه، ببطء، بسرعة.

إنَّني رجل مستقيم، أنا، ومع ذلك أمسكت أنفاسي معه. لقد فهمته... مهما أحاول أن أدافع عن نفسي: فإنَّني قد سرقت معه، باشمئزاز وفرح متآخيين مع اشمئزازه وفرحه.

جميع السرقات عاطفيَّة، حتى هذه السرقة التي هي سرقة جبانة ومبتذلة. (نظرته بما فيها من حبّ لا يُروى له غليل نحو الكنز الذي استولى عليه فجأة!) جميع الجنح، جميع الجرائم، هي محاولات إجراميَّة مرتكبة على صورة الرغبة العارمة في السرقة، تلك السيطرة التي هي ماهيّتنا بالذات وشكل روحنا العارية أن يكون لنا ما ليس لنا.

لكن في هذه هذه الحال، يتوجَّب أن نسامح السارقين، ولا يكون العقاب إلّا ظلمًا؟.. كلَّا، علينا أن نحمي أنفسنا منهم. ينبغي ــ ما دام مجتمع البشر قائمًا على الاستقامة ــ أن نضربهم كي نقضي عليهم بالعجز، وبخاصة كي نبهر الآخرين خوفًا ونوقفهم على عتبة العمل الشرّير. لكن، لا ينبغي، بعد أن تتّضح الغلطة، أن نبحث لها عن الأعذار الكبيرة، خشية أن نعذرها يومًا. ينبغي أن ندينها مسبقًا، باسم مبدأ بارد. على العدالة أن تكون جامدة كالجليد.

إنَّها ليست كما يبدو أنَّ اسمها يدلّ عليها، فضيلة. إنَّها منظمة فضيلتها، إنَّها غير حسّاسة. فهي لا ترغم على التفكير، ولا دخل لها بالتفكير. إنَّ دورها أن تشيد عبرًا: أن تحوّل المذنب إلى فزّاعة، أن تدفع ذاك الذي يتأرجح نحو الجريمة إلى التبصّر في حجّة قسوته. ليس لأحد، أو لشيء، الحقّ في فرض التكفير. وبالأصل ما من أحد يستطيع ذلك. فالانتقام منفصل انفصالًا كبيرًا عن الفعل، وهو يصيب، إن صحّ القول، شخصًا آخر. إنَّ التكفير إذن كلمة ليس لها من استعمال في العالم، مهما كان نوعه.

- ١٣ -

لم يكن يتحرّك. إنّه موهن، موهن. كان ثقل جسده المشؤوم يبقي عليه ممدَّدًا أخرس. كان الموت قد جرَّده من حركاته، من رعداته الظاهرة.

كانت الرفيقة الفاتنة قد أخذت مكانها في نظرة الرجل الساكنة، وجلست أمام قدم السرير، وجهًا لوجه. كانت ذراعاها ممدودتين أفقيًّا نحو خشب السرير، ويداها الجميلتان تعومان فوق حافته العليا. كان وجهها الجانبيّ يميل ميلًا خفيفًا، وجهها الجانبيّ بشكله الدقيق العذب، ككتابة مضيئة في طيبة الليل. وكانت العين، تحت قوس الحاجب المرهف، تختلج، وضّاءة، نقيّة، كسماء طفوليّة. وكانت نعومة جلد الوجنة والصدغ تشعّ شحوبًا، وشعرها المترفّ، شعرها الذي رأيته عاريًا، يطوّق بجدائله النضرة جبهتها حيث تكمن أفكارها لامرئيّة كاللّه.

كانت وحيدة مع الرجل الملقى به ههنا، كأنّه مدفون من الآن في أعماق حفرة ــ هي التي أرادت أن تكون، عن طريق رعشة وكينونة، أرملة عذراء له، إذا مات. ولم نكن، أنا وهو، نرى في العالم سوى وجهها. وفي

الحقيقة لم يكن هناك شيء آخر في ظلال المساء المدلهمّة: وجهها السامي بدون نقاب، ويداها الرائعتان اللّتان تشبهان المجد والحنان.

.. صدر من السرير صوت، تعرّفته بمشقّة. قال الصوت:

ـ لم أنتهِ من الكلام.

انحنت أنا على السرير وكأنَّها تنحني على حافّة نعش لتلتقط الكلمات التي تفوح للمرّة الأخيرة، بلا ريب، من الجسم الذي بلا حراك، وبلا شكل تقريبًا.

ـ هل سيتاح لي الوقت.. هل سيتاح لي..

كنت أسمع بصعوبة همسًا يكاد لا يغادر الفم. ثم اعتاد الصوت مرّة أخرى على الوجود، وأضحى مميّزًا:

ـ أريد أن أدلي لكِ باعتراف، يا آنا.

وتابع الصوت شبه المبعوث من الموت: «لا أريد أن يموت هذا الشيء معي. إنَّني أشفق على هذه الذكرى. إنَّني أشفق.. آه! ليته لا يموت.

«لقد أحببت امرأة قبلك.

«أجل.. لقد أحببت. صورة حزينة وديعة.. أودّ لو أنتزع من الموت هذه الفريسة. إنَّني أهبك إيّاها، ما دمت أنت هنا».

واستجمع نفسه كي ينظر إلى تلك التي يتكلّم عليها، وقال:

ـ كانت شقراء، صبيحة.

«لا داعي لأن تشعري بالغيرة، آنا (الإنسان يغار أحيانًا حتى عندما لا يكون عاشقًا). كان ذلك بعد أن ولدتِ ببضع سنوات. كنتِ طفلة صغيرة لا تلتفت إليكِ، في الشوارع، إلّا الأمهات.

«وعقدنا خطبتنا في حديقة أهلها الكبيرة. كانت لها جدائل شقراء مليئة بالشرائط. كنت أخبّ على الحصان أمامها، وكانت تبتسم أمامي.

«كنت آنذاك شابًا، قويًا، كلّي رجاء وبداية. كنت أعتقد أنّني سأفتح العالم، بل كنت أعتقد أنَّ بمقدوري اختيار الوسائل.. واأسفاه، لم أفعل شيئًا سوى أنّني عبرت مسرعًا على سطحه! كانت أصغر منّي أيضًا: غضّة العود، لم يمضِ عهد بعيد على تفتّحها، إلى حدّ أنّني شاهدت ـ إنّني لأذكر ذلك ـ دميتها على أحد مقاعد الحديقة التي كنّا جالسيْن فيها، غير بعيد عنّا، كنّا نقول: «سنعود كلانا إلى هذه الحديقة، حين نشيخ، أليس كذلك؟». كنّا نحبّ بعضنا بعضًا.. أتفهمين.. الوقت غير متوافر لي لأخبرك، لكنّك تفهمين، يا آنا، ما أجمل هذه البقايا القليلة من الذكرى التي أهبك إيّاها، إنّها لأجمل مما يمكن للمرء أن يظنّ!

«لقد ماتت في ذلك الربيع بالذات، في اليوم ـ لقد احتفظت بهذه الذكرى ـ الذي تحدَّد فيه موعد زواجنا رسميًّا، وقرّرنا أن نتخاطب بضمير المفرد. لقد وقعنا كلانا ضحيَّتين لوباء أحلّ الحزن في البلد. ولقد نهضت وحدي. أما هي فلم تجد القوة لتفلت من الوحش. كان ذلك منذ خمسة وعشرين عامًا. خمسة وعشرون عامًّا، يا آنا، بين موتها وموتي.

«وإليك أثمن سرّ: اسمها..».

وهمس به. فلم أسمعه.

ـ ردّديه على مسامعي، آنا.

فردَّدته، وكان عبارة عن مقاطع غامضة وصلت إليّ بشكل مبهم دون أن أستطيع توحيدها في كلمة، ذلك أنَّه لا بدّ من السماع بوضوح كبير جدًّا لالتقاط اسم على مجهول. إنَّ سائر أجزاء الجملة يتمّم بعضها بعضًا، وتتداعى، لكنّ الاسم وحيد ذاته.

وكرّر، وصوت ذكرياته يأفل كالنهار:

ـ إنّني أعهد إليكِ به لأنّكِ هنا. ولو لم تكوني هنا، لعهدت به إلى أيّ شخص كان، بشرط أن يدوم بعدي!

أضاف بصوت موزون لا لهجة له، كي يستطيع أن يستخدمه حتى النهاية:

ـ أريد أن أعترف بشيء آخر، بغلطة وتعاسة..

فسألت:

ـ ألم تعترف بالغلطة للكاهن؟

فاقتصر على الإجابة:

ـ لم أقل له شيئًا تقريبًا.

وتابع بصوته الهادئ جدًّا:

ـ كنت قد نظمت أشعارًا أثناء خطوبتنا، قصائد عنّا. وعنونت المخطوط باسمها. كنّا نقرأ معًا تلك الأشعار، وكنّا نحبّها ونعجب بها كلانا. كانت تقول وهي تصفّق بيديها، في كلّ مرّة اطلعها فيها على شعر جديد: «هذا جميل، هذا جميل!». وحين نكون معًا، كان ذلك المخطوط دومًا بمتناولنا ـ وكان أجمل كتاب كتب حتى الآن في نظرنا. كانت لا تريد أن تنشر تلك الأشعار ولا أن تخرج منّا. ولقد أبدت رغبتها هذه، ذات يوم، في الحديقة: «أبدًا! أبدًا» كانت تردّد مثل فتاة صغيرة عنيدة وشكسة هذه الكلمة، التي كانت تبدو كبيرة بالنسبة لها، وهي تهزّ رأسها الصغير الذي يتراقص عليه شعرها.

كان صوت الرجل قد أصبح في آن واحد معًا أكثر وثوقًا وأكثر ارتعادًا، وهو يكمل، يحيي هذه المعالم القليلة من القصّة القديمة.

ـ قالت لي ذات مرّة، في المصرى[١]، وكانت تمطر منذ الصباح مطرًا مدرارًا ساكنًا: «فيليب» ـ كانت تقول لي «فيليب» كما تقولين أنت.

---

١ ـ بناء من زجاج تستنبت فيه نباتات البلاد الحارّة.

وتوقّف، مدهوشًا من البساطة البسيطة جدًّا للجملة التي قالها.

ـ قالت لي: «هل تعرف قصّة الرسّام الإنكليزيّ روسيتي»، وروت لي هذه القصّة التي انفعلت لقراءتها انفعالًا عظيمًا: كان قد وعد السيّدة التي يحبّها بأن يترك لها مخطوط الكتاب الذي كتبه من أجلها، وبأن يدفنه معها في التابوت إذا ماتت. وماتت، ودفن، بالفعل، المخطوط معها. لكنَّه، فيما بعد، وقد عضّه حبّ المجد، اغتصب الوعد والقبر. «ستترك لي كتابك إذا متُّ قبلك، ولن تستعيده، يا فيليب؟» ووعدت ضاحكًا، وضحكت بدورها.

«وعادت إليّ صحّتي، ببطء. وحين بلغت ما فيه الكفاية من القوّة، علمت أنَّها ماتت. وحين استطعت الخروج، قادوني إلى القبر، ضريح أسرتها الرحب الذي يخفي في مكان ما التابوت الجديد الصغير.

«ما الفائدة من أن أروي حزن حدادي... كان كلّ شيء يذكّرني بها. كنت ممتلئًا بها، ولم تعد موجودة. ولمّا كانت ذاكرتي قد ضعفت، فقد كانت كل إشارة تذكّرني بذكرى. وكان حدادي تجديدًا مؤلمًا لحبّي. وذكّرتني رؤية المخطوط بالوعد، فوضعته في صندوق دون أن أعيد قراءته، مع أنَّني قد بتُّ لا أتعرّفه، بعد أن غسلت النقاهة ذاكرتي. واستطعت أن أقنعهم بإزاحة الحجر وبفتح القبر، كي أضع فيه المخطوط، بحسب إرادة الميّتة. وقد قال لي خادم شهد العملية:«لقد وُضع بين يديها».

«وعشت. واشتغلت. وحاولت أن أخلف أثرًا. فكتبت مسرحيّات وقصائد، لكن ما كان شيء ليُرضيني، وشيئًا فشيئًا، وجدت نفسي بحاجة إلى كتابنا».

«كنت أعرف أنَّه جميل وصادق، وكلّه صدى لقلبين كتباه بحبّهما، ولذلك حاولت بجبن، بعد ثلاث سنوات، أن أعيد كتابته ـ كي أريه للناس. آنا، ينبغي أن تشفقي علينا جميعًا!.. لكن يجب أن أقول لك:

إنَّها لم تكن فقط الرغبة في المجد، في مظاهر الإكرام، كما هو شأن الرسّام الإنكليزيّ، لم تكن هذه الرغبة هي التي تدفعني إلى أن أسدّ أذنيَّ دون الصوت الوديع والقويّ مع ذلك بعجزه، الذي كان يخرج من الماضي: «لن تستعيده منّي، يا فيليب..».

لم يكن ذلك فقط كي أنال الإعجاب في نظر الآخرين بفضل كتاب مفعم بالجمال الرائع لما كان. بل كان ذلك أيضًا كي أتذكّر كما يجب، باعتبار أنَّ حبّنا كلّه كامن في ذلك الكتاب.

«لم أتمكّن من إعادة كتابة بقية القصائد. كان الضعف الذي أصاب مواهبي بعد زمن وجيز من كتابتها، والأعوام الثلاثة التي انقضت والتي بذلت أثناءها جهدًا مخلصًا كي لا أبعث في فكري تلك الأشعار التي ينبغي ألا ترى الحياة من جديد، كان هذا كلّه قد محا الأثر فعلًا. وكنت أتمكن، بشقّ النفس، من تذكّر عناوين القصائد وبعض الأبيات، وأحيانًا أتمكّن من الإحساس مجدَّدًا بشيء من الرنين المبهم وبإشعاع من الذهول، وإن كان ذلك بعامل الصدفة دومًا. كنت بحاجة إلى المخطوط المدفون في القبر ذاته.

«...وذات ليلة، وجدت نفسي منقادًا إليه..

«وجدت نفسي منقادًا إليه، بعد تردُّدات ومعارك داخليّة لا أرى جدوى من روايتها باعتبار أنّها كانت غير مجدية.. وكنت أفكّر بالآخر، بالإنكليزيّ، بأخي الشبيه بي في البؤس والجريمة، وأنا أسير بحذاء جدار المقبرة، بينما كانت الريح تجمّد ساقيّ. كنت أردِّد في نفسي: «ليس الأمر واحدًا». وكانت عبارة الجنون هذه تكفيني لأتابع سيري.

«كنت قد تساءلت عمّا إذا كنت سآخذ معي نورًا: فسيتم الأمر بسرعة إن كان هناك نور، وسأرى الصندوق فورًا ولن ألمس سواه ـ لكنّي

سأرى كلّ شيء! ـ وفضّلت أن أتلمَّس طريقي تلمُّسًا.. كنت قد وضعت على وجهي منديلًا معطّرًا، ولن أنسى أبدًا كذب هذه الرائحة. كان أوّل شيء لمسته عليها لم أتعرّفه في البداية بسبب دوار الذعر.. عقدها.. عقدها المحجّر... رأيته حيًّا الصندوق! وإعادته إليّ الجثة في حفيف نديّ، ومسّني شيء ما، بوهن..

«كنت لا أريد أن أرمي إليك إلّا ببضع عبارات، يا آنا. كنت أظنّ أنَّه لن يتاح لي الوقت لأقول كيف جرت الأمور. ومن الأنسب لي أن تعرفيها تمام المعرفة. إنَّ الحياة التي كانت شديدة القسوة بالنسبة لي، عذبة عليّ في هذه اللحظة التي تستمعين إليّ، أنت الحيَّة، وإن تلك الرغبة في التعبير عمّا شعرت به، وفي إحياء الماضي، والتي جعلت منِّي ملعونًا أثناء الأيام التي أكلّمك عنها، لهي هذا المساء عمل صالح يذهب منِّي إليكِ وإليكِ منِّي».

وكانت المرأة الصبيَّة تنحني بانتباه نحوه. وكانت صامتة بلا حراك. ماذا كان بمقدورها أن تقول، ماذا كان بمقدورها أن تفعل شيئًا أعذب من انتباهها؟

ـ فيما تبقّى من الليل، قرأت المخطوط المسروق. ألم يكن عوني الوحيد لأنسى موتها وأفكّر بحياتها؟..

«وتبيّنت بسرعة أنَّ تلك الأشعار ليست كما كنت أعتقد.

«لقد أوحت إليّ القصائد إيحاء متعاظمًا بأنَّها مضطربة وفيها استطراد كبير. إنَّ الكتاب الذي طالما عبدته لا يفوق قيمة ما كتبته فيما بعد. كنت أتذكَّر خطوة إثر خطوة الديكور، والواقع، والحركة المتلاشية التي نسخت بها هذه الأشعار، ورغمًا عن هذا البعث، وجدتها ذات ابتذال ثقيل أو ذات بلاغة مبالغ فيها.

«واجتاحني يأس جليديّ بينما كنت أطأطئ الرأس أمام بقايا الأغاني تلك. كان يبدو أنَّ مقامها في القبر قد شوَّه قصائدي وأخمد أنفاس الحياة فيها. كانت لا تقلّ بؤسًا عن اليد البالية التي أخذتها منها. وما أشدّ ما كانت عذبة! لقد هتف الصوت الصغير السعيد مرارًا عديدة: «هذا جميل، جميل!» بينما كانت اليدان تتّحدان اتّحادًا رائعًا.

«ذلك أنَّ الصوت والقصائد كانت حيّة آنذاك، ذلك أنَّ حميّا الحب وهذيانه قد زانا قوافيّ بكلّ عطاياهما، ذلك أنَّ هذا كلّه يعود إلى الماضي، وإن الحبّ في الواقع قد اضمحل.

«كنت أقرأ النسيان في الوقت نفسه الذي أقرأ فيه كتابي.. أجل، لقد حدثت عدوى من الموت. أجل، لقد أقامت أشعاري طويلًا في الصمت وفي الديجور. واأسفاه، واأسفاه! لقد أقامت فيهما طويلًا أيضًا، تلك الراقدة هناك بهدوئها المرعب ــ في ذلك القبر الذي ما كنت لأجرؤ على دخوله لو أنّ حبّي قد احتفظ بها حيَّة. لقد ماتت فعلًا.

«وفكّرت بأنَّ عملي كان انتهاكًا لامجديًا للحرمات ــ وأنَّ كل ما نعد به وكلّ ما نقسم به على هذه الأرض الدنيا إنّما هو انتهاك غير مجدٍ للحرمات.

«لقد ماتت فعلًا. آه! لكم بكيتها تلك الليلة! لقد كانت ليلة حدادي الحقيقيَّة.. حين يفقد الإنسان مخلوقًا حبيبًا، فثمّة لحظة بائسة ــ بعد الصدمة الوحشيَّة ــ يبدأ فيها بأن يفهم أنَّ الأمر انتهى، وعندئذ يتعرّى اليأس، ويتجسّد في كلّ مكان، ويتّسع. وهكذا كانت تلك الليل، تحت سيطرة انفعال جريمتي وتهافت شعري، أكبر من الجريمة، أكبر من كلّ شيء!

«ورأيتها مرّة أخرى. ما أروع ما كان جمالها، بحركاتها الحيّة الوضّاءة التي تبذل فيها نفسها، ونضارتها المتّقدمة التي كانت تتألّق بها، وضحكتها

التي تحيط بها بلا انقطاع، ولاتناهي الأسئلة التي تطرحها عليك دومًا.. رأيت من جديد، من خلال شعاع من الشمس على أرض معشوشبة ذات لون أخضر حادّ، ثنية تنّورتها المخمليّة الحريريّة (من الساتان الورديّ الشديد الشحوب)، يوم كانت محنيّة تسوّي بيديها تلك التنّورة، وتنظر إلى قدميها الصغيرتين (كان هناك، على مسافة غير بعيدة، بياض قاعدة تمثال). ذات مرّة، حاولت أن أنظر إلى لونها عن قرب قريب لعلّي أجد فيه عيبًا: ولم أجد شيئًا من ذلك، فوق ذلك الجبين، تلك الوجنة، تلك الذقن، فوق كلّ ذلك الوجه بجلده الهشّ المصقول، الذي توقّف لحظة عن تحليقه الدائم كي يسهل لي تجربتي، وهمست، في حنوّ يقارب البكاء، دون أن أدري ما أقوله: «هذا أكثر مما ينبغي.. أكثر مما ينبغي..» كانت أميرة جميع من يرونها. كان أصحاب الدكاكين في البلدة يعتبرون أنفسهم سعداء بوجودهم على عتبة بابهم حين كانت تمرّ. وكان الجميع، حتى الشيوخ، يقتربون منها باحترام. ألم تكن تبدو كملكة على المقعد الحجريّ المنحوت في الحديقة، نصف ممدّدة، مستندة إلى ظهر المقعد العريض ـ ذلك المقعد الحجريّ الكبير الذي استحال الآن إلى ما يشبه قبرًا فارغًا..

«كنت قد احتفظت ببضعة أشياء منها: ومنها مروحة، ورحت أقلّب تلك المروحة الميّتة أمام عينيّ، وقفّازها الصغير، البارد، ورسائل كتبتها تكشف عنها دونما حياء.

«أوّاه! لقد عرفت، خلال لحظة من لحظات الأزمان، كم أحببتها، هي التي كانت حيّة وأضحت ميّتة، هي التي كانت شمسًا وصيحة، والراقدة الآن تحت التراب أشبه بينبوع مظلم.

«وبكيت أيضًا على القلب البشريّ. لقد فهمت، في تلك الليلة، سموّ ما شعرت به. ثم جاء ذلك النسيان المنطقيّ، جاءت تلك اللحظة التي أحزنني فيها أن أتذكّر أنّني بكيت».

«هذا هو الاعتراف الذي أردت أن أدلي إليك به، يا آنا.. إنَّني أودّ لو أنَّ قصّة الحبّ هذه التي مضى عليها ربع قرن من الزمن، لم تنته بعد. لقد كان حبًّا راجفًا حقيقيًّا، كان شيئًا كبيرًا، أرويه بكلّ بساطة للّتي لا تزال على قيد الحياة، لكِ أنت..

«ثم أحببتك، وإنَّني لأحبّك. إنَّني أقدِّم إليك، وكأنَّني أقدِّم إلى الملكة وإلى المتوحّدة، صورة المخلوق الصغير الذي سيظلّ دومًا في السابعة عشرة من العمر..».

تنهّد، وأفلت هذه الجملة التي أظهرت لي مرّة أخرى فقر مكانة الدين في القلب الإنسانيّ:

ـ إنَّني أعبدك وحدك، أنا الذي عبدها، أنا الذي كانت تعبدني. آه! كيف يقال إنَّ الممكن أن يوجد فردوس يستعيد فيه الإنسان السعادة..

صوته يرتفع، يداه الهامدتان ترتجفان. إنَّه يخرج لهنيهة من الزمن من السكون العميق.

آه! أنتِ، أنتِ! أنتِ وحدك!

وأطلق نداء كبيرًا يائسًا، لا حدود له.

ـ آه! آنا، آنا، لو كنت تزوَّجتك فعلًا، لو كنّا عشنا معًا كزوجين، لو كنّا أنجبنا أطفالًا، لو أنَّك كنت بجانبي كما أنتِ بجانبي هذا المساء، لكن إلى جانبي حقًّا!

وخارت قواه. كان قد صاح بصوت عالٍ جدًّا، حتى إنَّني كنت سأسمعه من غرفتي ولو لم يكن هناك هذا الشقّ في الجدار. كان يروي حلمه، الشامل، يهبه، يهبه لمن حوله، وهبًا تائهًا. وكان لهذا الصدق، اللّامبالي بكلّ شيء، دلالة حاسمة سحقت قلبي.

ـ سامحيني. سامحيني.. إنَّ ما قلته أشبه بتجديف.. لم أستطع منع نفسي..

توقّفت كلماته: كنت أشعر بإرادته تهدّئ وجهه، وبروحه تلزمه الصمت، لكنَّ عينيه كانتا وكأنَّهما تئنّان.

وردَّد بصوت أخفت، وكأنَّه يخاطب نفسه: «أنتِ.. أنتِ!..».

وغاب عن الوجود في هذه الكلمة: أنتِ..

لقد مات، هذه الليلة. رأيته يموت. وبعامل من صدفة غريبة، كان وحيدًا لحظة مات.

لم يحشرج، لم يحتضر، بالمعنى الحرفيّ لهاتين الكلمتين. كان يشدّ غطاءه بأصابعه، لم يصرخ، لم يتكلّم. لم يطلق تنهدة أخيرة، لم تأخذه إشراقة. لم يحدث شيء.

كان قد سأل آنا أن تقدّم له شرابًا. ولما كان الماء قد نفد، ولما كانت الممرّضة غائبة في تلك اللحظة بالذات، فقد خرجت مسرعة لتأتي إليه بماء. بل إنَّها لم تغلق الباب.

كان بصيص المصباح يملأ الغرفة.

نظرت إلى وجه الرجل وشعرت، لا أدري لأيّ سبب، بأنَّه كان غارقًا في الصمت في تلك اللحظة.

عند ذاك صحت به أنا، غريزيًّا، ولم أستطع منع نفسي من الصياح به كي لا يكون وحيدًا:

ـ إنَّني أراك!

ودلف صوتي الغريب، الذي فقد عادة الكلام، إلى الغرفة.

لكنَّه مات في اللحظة نفسها التي كنت أهبه فيها تلك الصدقة الجنونيَّة. كان رأسه قد تصلّب بعض الشيء إلى الوراء، وعيناه قد انقلبتا.

عادت آنا. ولا بدّ أنّها سمعتني بشكل ما، لأنّها كانت مسرعة.

رأته. أطلقت صرخة مذعورة، من كلّ قوتها، بكلّ طاقة جسمها الصحيح، صرخة نقيّة ومترمّلة فعلًا. وركعت أمام السرير.

دخلت الممرّضة على إثرها ورفعت ذراعيها إلى السماء. وساد الصمت، وبريق بؤس لا يصدّق، بؤس يهوي فيه الإنسان أمام الميّت، أيًّا كان، وأنّى كان. كانت المرأة الجاثية، والمرأة الواقفة تنظران إلى الممدّد هناك، الهامد وكأنّه لم يكن قطّ. كانت كلتاهما شبه ميتتين.

ثم بكت آنا كطفل. ونهضت، ومضت الممرّضة لتأتي بالناس. والتقطت آنا، التي كانت ترتدي قميصًا كاشفًا، بحركة غريزيّة الشال الأسود الذي تركته المرأة العجوز على أحد المقاعد واتّشحت به.

عجّت الغرفة، الكئيبة في الآونة الأخيرة، بالحياة وانتعشت.

أضيئت الشموع في كلّ مكان، واختفت النجوم التي كانت تبدو من خلال النافذة.

..ركعوا، بكوا، تضرّعوا. كان يفرض سيطرته. كانوا يقولون: هو. كانت هناك رؤوس خدم لم أرها بعد، لكنّه كان يعرفها، هو. كان يبدو أنّ جميع هؤلاء الناس يتسوّلون حوله، يتألّمون، يموتون، وأنّه هو الحيّ.

قال الطبيب للممرّضة بصوت خافت، في لحظة كان فيها على قرب قريب منّي:

ـ لا بد أنّه تألّم كثيرًا حين مات.

ـ بيد أنّه كان ضعيفًا جدًّا، هذا الرجل البائس!

فقال الطبيب:

ـ لكنّ الضعف لا يمنع من التألّم إلّا في نظر الآخرين.

أحاط، عند الصباح، بصيص شاحب بتلك الوجوه والأنوار المعذّبة. وشحب جوّ الغرفة، وتكدّر وتعكّر، بحضور النهار الطالع، اللطيف والبارد.

وقطع حبل الصمت الذي كان سائدًا منذ ساعات صوت خافت جدًّا، خجول:

ـ يجب ألَّا تفتح النافذة، وإلّا دبّ الفساد إلى جسمه سريعًا.

وهمست أصوات:

ـ الجوّ بارد..

وامتدّت يدان واتّشحتا بفروة.. نهض أحدهم، ثم جلس. وأدار آخر رأسه. وعبقت تنهدة.

ولكأنَّهم استفادوا من العبارات القليلة الملفوظة ليتحرَّروا من الهدوء الذي جمدوا فيه. ثم وجّهوا نظرة جديدة إلى الرجل الموضوع على النعش ـ بسكون، بسكون لا يلين، كالصنم المصلوب المعلَّق في المعابد.

أعتقد أنَّني غفوت فوق سريري، قبل لحظات.. لكن لا بدّ أنَّ الوقت باكر.. على حين غرّة، أسمع رنين جرس كنيسة آتيًا من السماء الرماديَّة.

بعد هذه الليلة المضنية، لا بدّ أن يكون للانفراج أثره رغم كلّ شيء بعد سكون انتباهنا الذي كان أشبه بجثّة هامدة، وأنَّني لأعرف أيّ عذوبة تعود بي، بالقوة، مع رنين الجرس، إلى ذكريات من الطفولة.. إنَّني أفكِّر بريف، وثيق الصلة بي، تغطّيه أصوات الأجراس بسماء مصغَّرة حسّاسة، أفكِّر بموطن هادئ كلّ شيء فيه طيّب، الثلج فيه يعني عيد الميلاد، والشمس فيه أسطوانة دافئة يمكن وينبغي للمرء أن ينظر إليها.. ووسط هذا كلّه، وسط كلّ شيء دومًا، الكنيسة.

لقد انقطع الرنين. دويُّ نوره ينطفئ بتؤدة، وصدى صداه.. هوذا رنين جديد: الساعة. الساعة الثامنة، ثماني دقات رنَّانة، منفصلة، ذات انتظام رهيب، وهدوء لا يقهر، بسيطة، بسيطة. إنَّك لتعدها، وحين تكفّ

عن ضرب الهواء، لا يمكنك إلّا أن تعدّها ثانية. الزمن الذي يمرّ.. الزمن الذي لا شكل له، والمجهود الإنسانيّ الذي يحدّده وينظّمه ويجعل منه ما يشبه العمل المصيريّ.

وأفكّر بالسمفونية الكبيرة لهذين اللّحنين السماويّين.

العلامات الوضيئة تبذر النور.. إنّها تضيق شيئًا فشيئًا، وأرى أديم السماء بنجومه ينقلب إلى فجر. الكنيسة تشعّ بالتوتّر الرحب الناعم الذي يدلف حتى إلى الجدران: فيأخذ جوّ الغرف المألوف المزيد من الحنوّ في عيون الناظرين، وتزداد الطبيعة جمالًا: إنَّ المطر على أوراق الأشجار، لآلئ، ونوع من الموصلين في السماء. الصقيع يطرّز زجاج النوافذ بوشي يبدو وكأنّ يدين أنثويتين قد نسجتاه. الرنين يتضاءل جرسه ويخفّف من وطأة الساعات والأيام. كل يوم يكفيه عمله. هذا الرنين يذكّر، عند تجدُّد الفصول، بالطريقة المختلفة التي يبدو بها كلّ فصل طيّبًا. إنَّه يطمئن الحلم إلى مصيره المستقبل. إنَّ كلّ إنسان راضٍ بحياته والجميع واجدون العزاء مسبقًا.

بعد الحشد المتنوّع المتعدّد الألوان الذي يشرف رقص الأجراس الأثيريّ على عيده بكامله وينظّمه، ها هو ذا قلب واحد، تصعد منه الصرخة. وهذه الصرخة بسيطة الحركة، لكنّك تشعر بأنّه لن تكون لها نهاية ولا حدود، وبأنَّ لها، إلى حدّ ما، شكل اللّازورد. إنّها تمزج تحليقها بتحليق الصوت الدينيّ. إنّها تصعد معه عند كلّ خفقة من دقّات الأجنحة الثلاث هذه، أو في رجفان من خفقات لا تحصى حين تتعالى في رنين متآلف.

لكنَّ ثمة شيئًا ههنا ننساه، شيئًا أرحب من الفرح، يشير بدقّات صمّاء إلى وجوده الذي لا يمكن اقتلاعه من جذوره. إنّك لتتوقّعه،

تسمعه، تحسّه. إنَّ الرقاص سيطرق الأحلام، سيفرض نفسه وهمًا بين الأوهام، غير شاعر بالملامسات الحانية المعاكسة، وستدخل كلّ طرقة مثل مسمار.

مهما كانت عظمة نشيد رنين الساعة، فإنَّ كلمة الساعات العليا تغلّفها بهدوئها. إنَّ هذه الكلمة تتعاظم بالأيام، بالأعوام، بالأجيال. إنَّها تطلّ على العالم كما تطلّ قبّة الجرس على القرية. وصرخة القلب تقاوم بحرارة. وإنَّها لوحيدة: فالنشيد الورع ليس مدعومًا من السماء دعم الظلام لنشيد الزمن. إنَّ الساعة إيقاع كبير رتيب يقطع كلّ إنذار رنّان منها الأمل الذي لا يكلّ والذي يصعد في حركة دائمة، لكنَّه أمل لا يتعرّض للّحن الخالد، للّحن البطيء الحاسم الذي يسقط من ساعة الحائط.. والنغم المحطَّم لا يستطيع إلّا أن يحوّل الحزن إلى جمال.

- ١٤ -

إنَّني وحيد هذه الليلة. ساهر أمام طاولتي. مصباحي يطنّ كالصيف في الحقول. أرفع عينيّ. النجوم تتباعد وتدفع السماء فوقي، والمدينة تغرق أمام قدميّ، والأفق يهرب أبدًا إلى جانبي. الظلال والأنوار تشكّل دائرة لامتناهية، ما دمت أنا هنا.

لست مطمئنًا هذا المساء: فقد استولى عليّ قلق واسع. لقد جلست وكأنَّني سقطت. ووجّهت وجهي، كما في اليوم الأول، نحو المرآة، وقد جذبتني نفسي: إنَّني أنقّب في صورتي، ولا يصدر عنّي، كما في اليوم الأول، إلّا صيحة واحدة: «أنا!».

أودّ لو أعرف سرّ الحياة. لقد رأيت بشرًا، مجموعات، حركات، ووجوهًا. لقد رأيت عيونًا مرتعدة في الغسق لكائنات عميقة كآبار. لقد رأيت الفم الذي كان يقول في ألق من المجد: «إنَّني أكثر حساسية من الآخرين، أنا!». رأيت صراع الحبّ والتفاهم: الرفض المتبادل بين متخاطبين وخصام عاشقين، العاشقين بابتسامتهما المعدية، العاشقين بالاسم فقط، العاشقين اللذين ينخران نفسهما بالقبل، يتعانقان جرحًا

لجرح علّهما يشفيان، اللذين ليس بينهما رابطة، والغريبين أحدهما عن الآخر، رغم وجدهما المشعّ خارج الظلّ، غربة القمر والشمس. لقد سمعت الذين لا يجدون القليل من السلام إلّا بالاعتراف ببؤسهما المخزي، والوجوه التي بكت، شاحبة، بعيون كالأوراد.

أودّ لو أعانق هذا كلّه دفعة واحدة. إنَّ جميع الحقائق لا تشكّل إلّا حقيقة واحدة (كان عليّ أن أعيش حتى هذا اليوم كي أفهم هذا الشيء البسيط للغاية). وإنّما حقيقة الحقائق هذه هي التي أنا بحاجة إليها.

ليس ذلك حبًّا بالبشر. فليس من الصحيح أنَّ الإنسان يحبّ البشر. فلا أحد أحبّ البشر، أو يحبّهم، أو سيحبّهم. إنّما ذلك من أجلي ـ من أجلي وحدي، أسعى إلى بلوغ تلك الحقيقة المليئة التي تعلو على الانفعال، تعلو على السلام، تعلو على الحياة نفسها، فكأنَّها ميّتة. إنَّني أريد أن أغرف منها اتّجاهًا، إيمانًا. أريد أن أستخدمها لخلاص نفسي.

إنَّني أنظر إلى الذكريات التي أسرتها منذ أن وجدت هنا. إنَّها كثيرة العدد حتى إنَّني أصبحت غريبًا عن نفسي، ولم يعد لي اسم تقريبًا. إنَّني أصغي إليها. إنَّني أتذكَّر نفسي، وأنا ممدود على منظر الآخرين. وامتلئ بهم مثل اللّـه، مع الأسف ـ وأحاول، بانتباه فائق، أن أرى وأسمع ما أنا عليه. ما أجمل أن أعرف ما أنا!

إنَّني أفكّر بجميع الذين سعوا قبلي ـ من علماء وشعراء وفنّانين ـ بجميع الذين تألّموا وبكوا، وابتسموا للحقيقة، قرب المعابد المربَّعة أو تحت القبّة المحدبة أو في الحدائق الليليّة التي لم تعد تربتها إلّا عطرًا أسود لدنًا. إنَّني أفكّر بالشاعر اللاتيني الذي أراد أن يبعث الاطمئنان في قلوب البشر، وأن يعزّيهم بإظهاره الحقيقة لهم لا يحوطها أيّ ضباب كتمثال. إنَّ جزءًا من مستهلّ قصيدته يخطر الآن لذاكرتي، بعد أن كنت

قد حفظته ثم نسيته وضيَّعته شأنه شأن كل ما تحمَّلت مشقّة تعلّمه حتى اليوم. إنَّه يقول بلغته البعيدة، الهمجيَّة وسط حياتي اليوميَّة، إنَّه يسهر طوال ليالٍ رائقة كي يبحث عن العبارات، عن القصيدة التي سينقل بها إلى البشر الأفكار التي ستحرِّرهم. إنَّ البشر بحاجة دومًا، منذ ألفي عام، للاطمئنان والعزاء. منذ ألفي عام، وأنا بحاجة دومًا لأن أحرِّر. ولم يغيِّر أيُّ شيء وجهة الأشياء. وما كانت تعاليم المسيح لتغيُّره حتى ولو لم يشوّهها البشر إلى حدّ لم يعد بمقدورهم معه أن يستفيدوا منها بشرف. فهلّا سيأتي، ذلك الشاعر الكبير الذي سيحدِّد الإيمان ويؤبِّده، الشاعر الذي لن يكون مجنونًا، ولا جاهلًا بليغًا، بل حكيمًا، الشاعر الكبير الذي لا تلين له قناة؟ لست أدري! رغم أنَّ الكلمات السامية التي فاه بها الإنسان الذي قضى هنا قد أعطتني الرجاء المبهم في مجيئه، والحقّ في عبادته من الآن.

لكن أنا، أنا! أنا الذي ليس شيئًا إلّا نظرة من القدر، كما التقطتها منه! إنَّني ههنا أتذكَّر. إنَّني أشبه رغم كلّ شيء شاعرًا على عتبة قصيدة، شاعرًا ملعونًا وعقيمًا لن يخلف مجدًا، أعارته الصدفة الحقيقة التي كان ينبغي للعبقرية أن تمنحه إيّاها. قصيدة هشّة ستنقضي معه، فانية ومنغلقة على الآخرين انغلاقها عليّ، لكنَّها قصيدة رائعة مع ذلك، ستظهر الخطوط الأساسيَّة للحياة وتروي مأساة المآسي.

ما أنا؟ أنا الرغبة في ألّا أموت. ولست كذلك هذا المساء، إذ تدفعني الحاجة إلى أن أبني الحلم المتين القويّ الذي أتركه بعد الآن، بل دومًا. إنَّنا، جميعًا، الرغبة في ألَّا نموت. إنَّها رغبة متنوِّعة لا يحصى لها عدد مثل تعقُّد الحياة، لكنَّها في صميمها ما يلي: الاستمرار في الحياة، وإغناء الوجود، والتفتُّح والدوام. إنَّ كل ما نملك من قوّة، من طاقة ومن صحو، موقوف على انتشاء الذات، بأيّ شكل كان. إنَّنا لننتشي

بالانطباعات الجديدة، بالإحساسات الجديدة، بالأفكار الجديدة. إنَّنا نبذل جهدنا كي نحصل على ما لا نملكه كي نضيفه إلينا. والإنسانيَّة إنَّما هي الرغبة في الجديد إزاء خوف الموت. هو ذاك: لقد أدركت ذلك أنا. إنَّ الحركات الغريزيَّة والصيحات الحرّة كانت موجَّهة دومًا في الاتّجاه نفسه كإشارات، وأكثر الكلمات تباينًا كانت في الحقيقة، متماثلة.

لكن وبعد.. أين الأموات الذين ينيرون الطريق؟ وإذا كان الأمر هكذا، فما الإنسانيَّة في العالم، وما العالم؟

إنَّني لأتذكَّر، إنَّني لأتذكَّر، كما لو أنَّني أستنجد.. وتد، صواة يحطّ عليها القلق المقدَّس: أهمِّيَّة كائن من الكائنات الإنسانيَّة بين الأشياء، تلك الأهمِّيَّة التي وقفت حياتي كلّها على فهمها..

لانهائيَّة كل واحد منّا: إنَّها العلامة الكبيرة الأولى في الظلام. صحيح أنَّ القلب يرتدي حداده أو يحتفل بعيده مع الطبيعة كلّها، وصحيح أنَّ النجوم قد شحبت في السماء البروفانسيَّة، في نظر أكثر المتأمِّلين تواضعًا، حين ظهرت ميراي[1] عند نافذتها الصغيرة.

إنَّني في قلب العالم. الكواكب تتوّجني. الأرض تحملني وترفعني. إنَّني أقف على ذروة العصور. إنَّني أشدّ كلّ شيء إليّ، أشياء الفكر والقلب العظيمة والصغيرة. إنَّني أصنع الليل، بوضعي يدي أمام عيون النهار، وأخفي عن نفسي الليل، ليلًا. وإذا أغمضت عينيّ، فإنَّ اللّازورد لن يستطيع أن يكون شيئًا. إنَّ جميع العظائم تصغر، بدءًا منِّي.

أسندت رأسي إلى يديَّ.

شعرت عندئذٍ أصابعي بعظام جمجمتي: المحجر، حفرة الصدغ، والفكّ. جمجمة..

---

(١) بطلة ملحمة شعريَّة للشاعر البروفانسي ميسترال. (المترجم)

جمجمة! لكنّي أعرفها! إنَّ جمجمتي شبيهة بسائر الجماجم.

لم أفكّر قطّ في هذا التشابه بيني وبين الآخرين. إنّني أراه. إنّني أرى، من خلال شيء من الظلّ، عظامي ورفاقي. إنّني أتعرَّف في ذاتي شبحي الأبديّ الترابيّ، هيكليّ العظميّ، كما أتعرَّف شخصًا ما. إنَّني ألمسه، أجسّه، ذلك المسخ القاتم الأبيض الذي أنا هو في الحقيقة..

لقد انهارت أحلامي في العظمة، ما دامت جمجمتي شبيهة بسائر الجماجم، بجميع الجماجم التي كانت.

كم جمجمة كانت؟ إذا كان تاريخ الإنسانيَّة يعود إلى مئة ألف عام، وهذا بلا ريب دون الحقيقة، ولمّا كان يعيش على الأرض مليار ونصف مليار من السكّان الذين يتجدَّدون كلّ ثلاثين عامًا، فهذا يعني أنَّ هناك أربعة آلاف وخمسمئة مليار من الجماجم التي عادت ترابًا بعد أن كانت بشرًا.

سأذهب إلى ما تحت الأرض. سينتابني مرض أو جرح يقضيان على أحد أجزاء جسمي بسرعة أكبر. سأموت بلا ريب من المرض، سيضمر أحد أعضائي أو يُقطع أو يُشلّ، فيقضي على سائر بدني. سأموت بمرض، ودمي كلّه في داخلي.. (أفضّل لو أمضي في أرجوان جرح..).

وأنا أيضًا، سأدفن كالآخرين، وإن بدا ذلك غريبًا. إنّني أتلطّخ بالغبار يوميًّا، وكأنّه إنذار من الوحل من الآن (كلمات الشاعر تتردَّد في خاطري وترهقني)، غبار أضطر إلى الاغتسال منه، أدافع عن نفسي ضدّه، أنتزع ذاتي منه: إنَّه ملاك الأرض المقطّب.

سيصبح جسدي، في النعش الهشّ، فريسة للحشرات، ولتكاثر يرقاتها الذي لا مرد له. يا للغزو العظيم اللّامحدود الذي يتضاعف أبدًا! لقد استطاع لينه أن يقول إنَّ ثلاث ذبابات تلتهم الجثّة بالسرعة نفسها التي يلتهمها فيها الأسد.

لقد فتحت كتابًا موجودًا معي هنا. إنَّني أغوص في تفاصيله. أتعلَّم منه ما ينتظرني، أنا! أتعلَّم منه قصّتي المستقبليَّة.

إنَّ حيوانات المقابر تتتالى مراحل. كلّ نوع يأتي في حينه، بحيث إنَّه يمكن معرفة عمر الجثّة من الحشد الذي يرعى فيها. وهكذا توجد في الأبدان المهجورة ثماني مراحل متتابعة من الاستيطان تتناسب مع المراحل الثماني من التخمُّر التعفُّنيّ الذي يستحيل باطن الجسم عن طريقه خارجيًا، شيئًا فشيئًا.

إنَّني أريد أن أعرفها، أن أرى مسبقًا ما لن أراه وأن أجسّ بما لن أشعر به.

ثمّة ذباب صغير، يقيم في الجسم قبل لحظات قليلة من الموت.. سأنتظره. إنَّ بعض الإفرازات تدلّه على احتمال حدوث حدث سيؤمِّن له وفرة عارمة من الغذاء ليرقاته، وهكذا يقبل، مثقلًا بالبيوض، على التفقيس في المنخرين، في الفمّ، وفي زوايا العينين.

ولا تكاد الحياة تنطفىء، حتى يتدفَّق ذباب آخر. وما إن تصبح رائحة الفساد البائسة محسوسة، حتى يتدفَّق ذباب آخر: الذبابة الزرقاء، والذبابة الخضراء، المعروفة علميًّا باسم (لوسيليا سيزار) والذبابة الكبيرة ذات القفص الصدريّ المخطَّط بالأبيض والأسود التي يطلق عليها اسم «أكّالة اللحم الكبيرة». ويمكن للجيل الأوّل من هذا الذباب الذي يهرع عند صدور الإشارة الفظيعة أن يكوّن وحده في الجثّة سبعة أجيال أو ثمانية تتراكم وتتكاثر طوال فترة تتراوح بين ثلاثة أشهر وستة أشهر. ويقول مغنان: «في كل يوم، تضاعف يرقات الذبابة الزرقاء وزنها مئتي ضعف..». ويكون جلد الجثّة آنذاك أصفر مائلًا بعض الشيء إلى الورديّ، وتكون البطن بلون أخضر فاتح، والظهر بلون أخضر داكن. أو على الأقلّ، هكذا ستكون الألوان، إن لم يحدث الأمر في الظلام.

ثم يغيّر التفسُّخ من طبيعته. إنَّه تخمُّر حمض السمن، الذي ينتج حوامض دسمة شاعت تسميتها باسم دهن الجثّة. إنَّه موسم العشا ـ وهي حشرات ضارية تنتج يرقات مجهّزة بوبر طويل ـ وموسم الفراشات المسماة أغلوسا. وتتميَّز يرقات العت وأساريع الأغلوسا بأنَّها تستطيع أن تعيش في مواد دسمة «تتكوَّن، كالشحم، في أسفل التوابيت». وسوف تتبلور بعض هذه الموادّ وتلمع، فيما بعد، كشذور الذهب، في التراب النهائيّ.

هي ذي الآن الجوقة الرابعة. إنَّها ترافق تخمّر الجبنين، وهي مؤلَّفة من: الذباب، المسمَّى بالقيحيات، الذي يعطي الجبن ديدانه ـ وهي ديدان معروفة يقفزاتها المميَّزة التي تنفِّذها ـ، ومن مغمّدات الأجنحة، الكورينيات.

ويستدعي التخمُّر الأمونياكي، وتميُّع اللّحوم الأسود، غزوًا خامسًا: ويقوم به ذباب متعدّد الأجناس، كاللونشياس والأوفيراس والفوراس، كثير العدد للغاية حتى لتبدو فضلات خادراتها المائلة إلى السواد، فوق الجثث المنبوشة في هذه الفترة «مثل قشارة الخبز فوق فخذ الخنزير» على حدّ تعبير طبيب قانونيّ، وتنطلق غيوم من الذباب من النعش إذا نُبش وفُتح أثناء هذه المرحلة. وتفضّل مغمدات الأجنحة، كالسيلفيدات والأنواع الجديدة من الدافئات، التفسُّخ الرطب الأسود.

لقد أنجز التعفُّن عمله الآن تقريبًا. والمرحلة القادمة هي مرحلة تيبس الجثّة وتحوُّلها إلى مومياء تحت الأكفان والملابس التي زاد وزنها بسبب سوائل المرحلة السابقة الهلاميّة. وكلّ ما تبقّى من المادة الرخوة، ومن المعجون العضويّ السريع التفتُّت والشبيه بالدقيق، ومن الصابون الآمونياكي، يلتهمه نوع آخر من الحيوانات: الجربيات، المستديرة والمعقوفة، التي لا تكاد العين المجرّدة تميُّزها، ويتضاعف عددها عشرة

أضعاف كلّ خمسة عشر يومًا: في البداية لا يتجاوز عددها العشرين، ويصبح بعد شهرين ونصف شهر مليونين.

وتحلّ محلّ الجربيات دفعة سابعة. إنَّها نوع من العتّ، الأغلوسا التي سبق لها أن جاءت في لحظة ذوبان الحوامض الدسمة ثم اختفت. إنَّ هذه الحشرات تقرض وتنشر وتفتّت الأنسجة الجلديَّة والألياف والعضلات ـ المتحوّلة إلى مادة صلبة تشبه الصمغ ـ وكذلك الشعر والوبر والقماش. ويصبح الجسم ذا لون ذهبيّ، برونزيّ، وتفوح منه رائحة شمعيَّة قويَّة.

وأخيرًا، بعد ثلاثة أعوام، تهجم آخر دفعة من العمّال. فماذا يلتهم هؤلاء؟ كل ما تبقّى، كلّ شيء، حتى بقايا الحشرات التي تكاثرت كيرقات فوق الجثّة. إنَّ المبيد الأعظم هو حشرة صغيرة من مغمّدات الأجنحة السوداء المعروفة علميًّا باسم «الديجور المظلم».

ولا يبقى من شيء بعده، إلّا ما لم يستطع أن يفترسه من بقايا البقايا حول العظام المبيّضة، وكتلة صغيرة كثيفة في أسفل الحجرة الجمجميّة. وهذا النوع من التراب البنيّ المحبّب الذي يعفّر الحجر الإنسانيّ والذي يظنّه الناس آخر خلاصة للّحم، ليس كذلك. إنّما هو تراكم المدرّعات والحوريّات والخادرات وفضلات الأجيال الأخيرة من الحشرات المفترسة.

لقد انقضت ثلاث سنوات. انتهى كلّ شيء. إنَّ المخلوق الذي طالما عَبد وعُبد قد عاد بكامله في ثلاثة أعوام إلى الطبيعة المعدنيّة. وتلاشت العفونة، وكانت هي آخر علامة من علامات الحياة. إنَّها تضمحل، واأسفاه، ولا يعود هناك من حداد.

وسيمرّ جميع سكّان العالم بهذا الطريق في غضون عدّة سنوات. إنَّ آلاف المخلوقات الإنسانيّة قد ماتت على سطح العالم، منذ اللحظة التي أخذت أفكّر فيها منذ ربع ساعة تقريبًا.

إنَّ أجسامهم المؤلّفة من تراكم الخلايا، وخلاياهم المؤلّفة من تراكم الذرات (أجزاء غير مرئية من المادة) ـ عرضة لتفاعلات جديدة. الخلية! إنَّ طول هذه الوحدة العضويّة يتراوح بين جزء من ألف وجزء من عشرة آلاف من الميلمتر. الذرّة! إنَّها عنصر مجهول وفرضيّ. وإذا ما نسبنا إليها حجمًا قريبًا من الواقع بالاستناد إلى صغر العناصر التشريحيّة، فإنَّنا نجد في دائرة مادة من الموادّ قطرها يعادل رأس دبوس رقمًا مؤلَّفًا من ثمانية يليها واحد وعشرون صفرًا. وإذا أردنا أن نحصي جميع العناصر الأساسيّة الموجودة في كمِّيَّة بحجم رأس الدبوس، بمعدل عنصر واحد في الثانية لكلّ إنسان، فإنَّ الإنسانيَّة ستستغرق، إذا ما انهمكت قاطبة في الإحصاء، مئتي ألف عام.

إنَّما من هذا الغبار صنعت الكرة الأرضيّة.

والكرة الأرضيّة نفسها ليست بشيء في الكون.

..على صفيحة من الورق، نقطة دقيقة، لا تكاد ترى، ونرسم حولها دائرة تأخذ اتساع الورقة كلّه. النقطة هي الأرض، والدائرة تمثّل الشمس: هذه هي النسبة. ونرسم على ورقة أخرى نقطة برأس الريشة الدقيق: إنَّها الشمس، العريضة للغاية على الورقة الموضوعة جانبًا. ونرسم دائرة جديدة تحتلّ رقعة الورقة كلّها: إنَّها النجمة كانوبوس: ونسبة الشمس إلى كانوبوس هي كمثل نسبة الأرض إلى الشمس. أما نجمة التنبل، تلك النقطة السماويّة اللّامعة التي كان أسلافنا يحبّونها كثيرًا، فإنَّ قطرها يبلغ طوله طول المسافة بين الأرض والشمس. وذلك الرماديّ على الورقة، ليس لونًا رماديًّا، بل إنَّه نقاط صغيرة متقاربة. إنَّ كل نقطة صغيرة نجمة، مثل الشمس، أو كانوبوس، أو أكبر.. وهذا كلّه جزء من خارطة السماء. جزء لامتناهي الصغر، لأنَّ عدد النجوم التي أمكنت رؤيتها يقدر بمئة مليون، ولأنَّ النجوم الموجودة على هذه الخارطة لا تتجاوز ثلاثة آلاف.

ونحن لا نرى أكثر من مئة مليون نجم إلّا لأنَّ الأدوات المكبّرة لا تستطيع أن تكبّر الرؤية أكثر من واحد وعشرين ضعفًا، ولا تسمح لنا بأن نرى من النجوم أكثر من سبعة عشر ألف ضعف ممّا تراه العين المجرّدة: لكن من يجرؤ على الزعم بأنَّ النجوم المغرقة في البعد ممّا نراه تحدِّد الكون؟ وعظمة النجوم، مهما تكن ضخمة، ليست شيئًا بالنسبة للمسافات الفارغة التي تفصل بينها. إنَّ أقرب نجمة إلينا بعد الشمس، نجمة «ألفا» من مجموعة قنطورس، تبعد عنّا عشرة آلاف مليار فرسخ. أما آرقتوروس فتقع على بعد ثلاثمائة وثمانين ألف مليار كيلومتر: تتحرّك آرقتوروس في الفضاء بمقدار ألفين وستمائة وأربعين مليون كيلومتر سنويًا ـ ومع ذلك لا يبدو أنّها قد تحرّكت، رغم أنّها تُراقب ويعيّن مكانها على الخارطات الفلكيّة منذ نحو ثلاثة آلاف سنة، ونجمة ١٨٣٠ في كاتالوج غرومبريدج تبعد ثمانمائة ألف مليار كيلومتر..

ويقلّل النور، بسبب سرعته الهائلة، الأرقام تقليلًا جنونيًا، ويجعل اتّساعها اللّامتناهي محسوسًا أكثر بالنسبة لنا.. إنَّ النور يجتاز الأثير بمعدل ثلاثمائة وثلاثين ألف كيلومتر في الثانية. وهو يستغرق نيّفًا وثماني دقائق للوصول من الشمس، بحيث إنَّ الصورة التي نراها عنها هي صورة الكوكب كما كان قبل ثماني دقائق من نظرنا إليه. وهو يستغرق أربع سنين وأربعة أشهر للوصول من أقرب النجوم، وستة وثلاثين عامًا للوصول من النجم القطبيّ.. ويستغرق عدّة قرون للوصول من بعض النجوم التي تبدو لنا بالتالي كما كانت منذ عدّة قرون. وإذا كانت هذه النجوم تنظر إلينا، فإنّها ترانا بعد تأخّر مماثل مدوّخ.. إنّنا لا نعرف شيئًا عن ذلك البرج الذي يتوّج المدينة الحيّة والمحتضرة بتاج حزين لأنّه أكبر مما ينبغي. وأكثر ما هنالك، نحن نشكّ في أنّ كلّ نقطة من نقاطه تتشابه بعض الشيء مع الشمس المتوقّدة، مع الكرة الناريّة الشائكة بألسنة كبيرة

كالمسافة بين الأرض والقمر. وإذا كانت عيون نجم من هاتيك النجوم أثقب من عيوننا، فماذا ترى في هذه الدنيا، في هذه اللحظة التي أتكلّم فيها؟.. إنّها ترى، بين الأشكال الأرضية التي لا تزال تتشنّج وترتجف من أزمة جيولوجيّة عظيمة، على مرتفع شاهق، كائنًا واحدًا يتملّص من الأرض التي تشدّ أطرافه الأربعة، ويتمطّى واقفًا وهو لا يزال يترنّح، وترى وجهًا واحدًا لا يزال حيوانيًّا ومذعورًا من الظلمة يرفع عينيه بغموض.. وتبادل النور بيننا وبين بعض النجوم الأخرى لم يتمّ بعد، منذ أن كانت، وحين سيصل مظهرها إلينا، فربّما ستكون قد انطفأت منذ آباد مؤبّدة..

وهذه الآباد ترغمني على التفكير بالزمن. منذ كم من الزمن وُجدت الأرض؟ ومنذ أن انفصلت الكتلة الغازية عن مدار السديم الشمسيّ، كم من مليارات القرون انصرفت؟ لا ندري. إنّنا نفترض أنّه كان لا بدّ من مرور ثلاثمائة وخمسين مليون سنة، كي تتمّ المرحلة الثانية من تحوّلها ـ وهي مرحلة أقصر بكثير ـ أي مرحلة الانتقال من الحالة المائعة إلى الحالة الصلبة.

الذرّة، أصغر عنصر في المادة. وهوذا الآن أكبر عنصر: عالم النجوم. لا المجموع الحقيقيّ وحتى لا المجموع المرئيّ من الفلك، وهو مجموع غير قابل للقياس، بل الجزء الذي قاسه العلم. إنَّ التنقيب العلميّ يقتصر على دائرة تبعد عن الأرض ثمانمائة مليار كيلومتر. وفيما وراء هذه الدائرة، التي لا تشمل إلّا أقرب الكواكب، لا تمثّل العوالم، بالنسبة لحركة الأرض، تنقّلًا ظاهرًا يسمح لنا بتقدير مسافتها، ولا يعود بين أيدينا من معرفة حول الأجواء الفلكيّة. على هذا، فإنَّ دائرة نصف قطرها ثمانمائة مليار كيلومتر تمثّل الكون الذي كشف الحساب مجاهله. والأعداد التي تحدّد هذه الدائرة هي أكبر أعداد يمكن تطبيقها على الواقع. إنّها تعطي، باعتبار الحجم، ألفين ومئة وخمسة وأربعين سكديسيليون من الأمتار

المكعبة. ولمّا كان عدد الذرّات الموجودة في متر مكعب هو، من جهة أخرى، وبالاستناد إلى البعد الفرضيّ الذي نسبناه إلى الذرة، ديسيليون واحد، فإنَّ النسبة بين أكبر شيء وأصغر شيء تشكّل عددًا أكبر من أن يستطيع العلم التعبير عنه. ولم يسبق قطّ لإنسان أن استخدم هذا العدد: وربما كنت أنا أوّل إنسان يفعل ذلك، بدافع من الحاجة الملحاح إلى الدقّة التي تعذّبني هذا المساء. وبمقتضى الاشتقاق اللّاتينيّ لأسماء الأعداد، فإنَّ هذا العدد العذريّ الذي يعبّر عمّا يحتويه الكون من ذرّات، ينبغي أن يُبدأ بلفظه على هذا النحو: أوكتوفيجانتليونان.. إنَّه مؤلّف من اثنين يتبعهما سبعة وثمانون رقمًا. لا شيء بمقدوره أن يعطي فكرة عن كبر هذا العدد، أن يعبّر عن الطبيعة بدءًا من أسسها إلى حدّها الأقصى الذي لا يمكن إدراكه.

ومع ذلك، ينبغي لنا أن نشوّه هذا الرقم ذا الوجه المرعب، وأن نضاعفه أيضًا بخمسين تريبليونًا[1]، أي بعدد مؤلّف من مئة رقم ورقمين، إذا ما قبلنا بنظرية نيو كومب التي تحدّد نظامنا الفلكيّ بكامله، بالاستناد إلى حركات الكواكب وسرعاتها بموجب قانون الجاذبية الثابت، بدائرة من الفضاء يبلغ قطرها ستين كانتليون من الكيلومترات، تسبح فيها بانسجام مئة وخمسة وعشرون مليون نجمة.

ماذا نستطيع أن نفعل ضدّ هذا كلّه؟

ماذا أستطيع أن أفعل، أنا، الموجود ههنا، المبهور بالأوراق التي أقرأها عند قدميْ هذا المصباح الذي يشكّل ظلًّا مثمّن الأضلاع يلامس محبرتي، والذي يضيء لي نوره الباهت بصعوبة السقف والنافذة، السوداء واللّامعة تحت ستائرها الخفيفة، ولا يبرز تقريبًا من العتمة جدران الغرفة..

(١) مليون بليون، والبليون ألف مليار. (المترجم)

إنَّني أنهض. أجول في الغرفة. ما أنا، ما أنا؟ آه! ينبغي، ينبغي أن أجيب على هذا السؤال، لأنَّ هناك سؤالًا معلّقًا به كتهديد: إلامَ سأصير!

تجاه المرآة الكبيرة المنتصبة على المدفأة، أحدِّق إلى صورتي، وأبحث في نفسي عما أستطيع أن أجيب به على صغاري. إذا كنت لا أستطيع أن أتملَّص منه، فإنِّي هالك.. هل أنا القليل الذي يبدو أنَّني أكونه، هل أنا محكوم عليّ باللّاحركة وبالاختناق في هذه الغرفة كما لو أنَّني في تابوت واسع بعض الشيء؟

وغريزيًّا، طرد حدس هادئ، بسيط مثلي، الذعر الذي يشلّني، وقلت في نفسي إنَّ هذا غير ممكن، وإنَّ هناك غلطة كبيرة في كلّ مكان.

ما الذي أملى عليّ ما فكّرت به؟ لأيّ شيء خضعت؟

لاعتقاد كوّنه فيّ الحسّ السليم، والدين، والعلم..

إنَّ هذا الحسّ السليم هو صوت الإحساسات، وهذا الصوت الضخم القريب أكثر ممّا ينبغي يردِّد بأنَّ الأشياء هي كما نراها. لكنِّي أعرف حقّ المعرفة أنَّ هذا، في الحقيقة، غير صحيح. إنَّما ينبغي أوّلًا أن نتملّص من تلك القشرة الغليظة، قشرة الحياة المعتادة.

إنَّ التناقضات التي يشتمل عليها الفهم المغتبط لما هو ظاهر، وأخطاء أحاسيسنا التي لا تُحصى، وإبداعات الحلم والجنون الخياليّة، لا تسمح لنا بالإصغاء إلى هذا التعليم الذي يستحقّ الرثاء. إنَّ الحسّ السليم حيوان نزيه لكنَّه أعمى. إنَّه لا يعترف بالحقيقة، التي تتهرّب من النظرات الخاطفة الأولى، التي هي، بحسب التعبير العظيم للحكيم القديم، «في هوّة».

العلم.. ما العلم؟ إن كان نظريًّا فهو ليس إلّا تنظيمًا للعقل يقوم به العقل نفسه، وإن كان تطبيقيًّا، فهو تنظيم لما هو ظاهريّ. إنَّ «الحقيقة»

العلميّة هي نفي شبه تامّ للحسّ السليم ولا وجود تقريبًا لتفاصيل ظاهريّة لا ينقضها التوكيد العلميّ المناسب. إنَّ العلم يقول إنَّ الصوت والضوء توتّرات، وإنَّ المادة مركّبة من قوى.. إنَّه يملي مذهبًا ماديًّا مجرّدًا. إنَّه يستبدل الظاهر الغليظ بصيغ، أو إنَّه يقبل به دونما فحص. وهو يثير، على مستوى أكثر تعقيدًا وصعوبة، التناقضات ذاتها التي تثيرها الواقعيّة السطحيّة. إنَّه مرغم، حتى في ميدانه التجريبيّ أو المنطقيّ، على استخدام معطيات خياليّة، افتراضات. وإذا ما دفعنا به إلى ناحية عظمة العالم أو إلى ناحية الصغر، فإنَّه يقف مقصّرًا. إنَّه يقف، في الأسفل، أمام مشكلة قابليّة المكان للقسمة، ويقف، في الأعلى، أمام إحراج اللّامعقول: «المكان لا ينتهي في أيّ مكان» أو «المكان ينتهي في مكان ما».

إنَّه لا يرى الحقيقة، شأنه شأن الحسّ السليم. وهو لم يخلق أصلًا من أجل ذلك، لأنَّه لا يهدف إلّا إلى التنظيم المجرّد أو التطبيقيّ للعناصر التي لا يناقش واقعها العميق.

الدين.. إنَّه يقول بحقّ: الحسّ السليم يكذب، والعلم لا يلزم بشيء. ويضيف: لن نتأكّد من شيء بدون ضمانة اللّـه. وهكذا أوقف الدين باسكال، بوضعه ماهيته المزدوجة بين الحقيقة وبينه. إنَّ اللّـه ليس إلّا جوابًا جاهزًا على السرّ وعلى الرجاء، وما من سبب آخر لواقع اللّـه إلّا رغبتنا فيه.

هذا العالم اللّامحدود الذي رأيته يرفع ضدّي، ألا يقوم على شيء إذن؟ فما الأكيد، في مثل هذه الحال، ما الموثوق؟

وكي أساعد نفسي، أتذكّر من جديد المخلوقات الحيّة التي لي ثقة بها، المخلوقات التي رأيت أوجهها تتألّق ونظراتها تفلت من قيودها، هنا.

إنّني أرى من جديد أوجهًا تسبح في أعماق المساء، مثل انتصارات فائقة. أحدها يشتمل على الماضي. وآخر يتلوّن باللّازورد، واهتمامه كلّه متوتّر نحو النافذة. وآخر يفكّر بالشمس كشمس، في سواد الضباب الرطب. وآخر، متأمّل وممدّد، مليء بالموت الذي يفترسه. وكلّها مطوّقة بعزلة تبدأ في هذه الغرفة، غير أنّها لا تنتهي.

وأنا الذي مثلها، أنا الذي أشتمل في داخل فكري على الماضي الذي لا يُروى له غليل وعلى المستقبل المحلوم به، وعلى عظمة الآخرين. أنا الذي يتحسّر، الذي يريد، والذي يفكّر، بوجهي الممدّد الذي لا يشفى ـ أنا، هل سيحوّلني حلم النجوم الذي رأيته إلى غبار؟ أَمن الممكن ألّا أكون شيئًا، مع أنّه يخيَّل إليّ في بعض اللحظات أنّني كلّ شيء؟ أأنا لا شيء، أأنا كلّ شيء؟

عندئذ، أبدأ بالفهم.. إنّني لم آخذ الفكر بعين الاعتبار في تأمُّلي عن نظام الأشياء. لقد اعتبرته حبيسًا في الجسم، لا يستطيع أن يتجاوزه، ولا أن يضيف شيئًا إلى الكون. إنَّ روحنا ليست إلّا نفحة فينا كالنفحة الحيويّة، عضوًا. فهل سيظلّ مكاننا هو هو، أحياء وأمواتًا؟

كلا! وإنّما هنا أضع يدي على الغلط.

إنَّ الفكر هو منبع كلّ شيء. إنّما به ينبغي أن نبدأ، دومًا.. فتعود الحقيقة إلى قاعدتها.

والآن أقرأ علامات الجنون في تأمُّلي قبيل لحظات. لقد كان هذا التأمُّل وأنا شيئًا واحدًا. إنّه يثبّت عظمة الفكر الذي كان يفكّر به، ومع ذلك فإنّه يقول إنَّ الكائن المفكّر ليس شيئًا. إنّه يلاشيني، أنا الذي كان يخلقه!

..لكن ألست فريسة وهم؟ إنّني أسمعني أعترض على نفسي: إنَّ الذي فيّ، هو صورة، انعكاس، فكرة الكون. إنَّ الفكر ليس إلّا شبح

العالم المعار إلى كلّ منّا. إنَّ الكون موجود من نفسه خارجًا عنّي، مستقلًا عنّي، موجود وجودًا لامحدودًا حتى إنّني بتُّ عدمًا وميتًا من الآن. ومهما حاولت ألّا أكون أو أن أغمض عينيّ، فإنَّ الكون سيكون مع ذلك.

ثمّة قلق، جرح بادئ يلوي أمعائي.. ثم ها هي صيحة تصعد فيّ، صيحة صاحية، واعية، لا تنسى كتناغم مدهش للموسيقى كلّها: «كلا!».

كلا. ليس الأمر هكذا. لست أدري إن كان للعالم واقعٌ ما خارجًا عنّي. ما أعرفه هو أنَّ واقعه لا يوجد إلّا بوساطة فكري، وإنَّه لا يوجد، قبل كلّ شيء، إلّا عن طريق الفكرة التي لي عنه. إنّني من رفع النجوم والقرون، ولفّ السماء في رأسه. إنّني لا أستطيع أنْ أخرج من فكري. ليس لي الحقّ في أن أفعل ذلك، دونما خطأ ولا كذب. لا أستطيع. مهما حاولت أن أتخبّط وكأنّني أريد أن أهرب من نفسي، لا أستطيع أن أمنح العالم واقعًا آخر إلّا واقع خيالي. إنّني أؤمن بنفسي وأنا وحيد، ما دمت لا أستطيع خروجًا من نفسي. كيف أستطيع أن أتصوّر، إن لم أُجنّ، أنّني أستطيع خروجًا من نفسي؟ كيف أستطيع أن أتصوّر، إن لم أجنّ، أنّني لست وحيدًا؟ من يستطيع أن يثبّت لي أنَّ للعالم وجودًا منفصلًا عنّي، فيما وراء هوّة الفكر؟

إنّني أصغي إلى الميتافيزيقا (إنَّها ليست علمًا: فهي واقعة خارج البرنامج العلميّ، إنَّها بالأحرى أشبه بالفنّ، لارتباطها مثله بالحقيقة الحقّة: ذلك أنَّ اللوحة إن كانت قويّة والقصيدة جميلة، فهذا بسبب الحقيقة). إنّني أتصفّح الكتب، أستشير العلماء والمفكّرين، وأجمع كلّ ترسانة اليقينيات التي جمعها الفكر الإنسانيّ، وأصغي إلى الصوت الكبير لذاك الذي مرّر جميع المعتقدات وجميع الأنظمة على غربال عقله الرهيب، وأقرأ هذه الحقيقة بالذات التي تفرض نفسها عليّ: نحن لا نستطيع أن ننفي الفكرة التي لنا عن العالم، لكنّنا لا نستطيع أن نتيقّن من أنّه موجود خارج الفكرة التي لنا عنه.

والآن، وقد بتُّ أملك هذا الإثبات الحبيس، بدقّة، فعليًا، في الكلمات، الآن وقد بتُّ أمسك بهذه الثروة الرائعة، فإنّني لم أعد أستطيع أن أتجنّب معجزة التبسيط التي تحملها هذه الثروة.

كلا، ليس من المؤكّد أنّ الحقيقة التي تبدأ فينا تستمرّ في مكان آخر. وبعد أن قال الفيلسوف تلك العبارة التي لم يستطع أيّ إنسان بعده حتى أن يفكّر بنفيها: «أنا أفكّر، فأنا موجود»، وحين حاول، استدلالًا بعد استدلال، أن ينتهي إلى شيء ما واقعيّ خارج الذات المفكّرة، خرج خطوة خطوة من اليقين. ومن كل الفلسفة الماضية، لم تبق إلّا هذه البديهيّة التي تضع في كلّ منّا مبدأ كلّ شيء: لم يبق من البحث الإنسانيّ إلّا ذلك الكتاب الذي يتكلّم على التجدُّد ووحدة كلّ وجه. إنَّ العالم، كما يبدو لنا، لا يثبّت شيئًا سوانا، نحن الذين نظنّ أنّنا نراه. إنَّ العالم الخارجيّ، أي الكرة الأرضيَّة بحركاتها الإحدى عشرة في الفضاء، وآفاقها وجزر البحر ومدّه، وملياراتها الألف من الكيلومترات المكعبة، وأنواعها النباتية البالغ عددها مئة وعشرين ألف نوع وأنواعها الحيوانيَّة البالغ عددها ثلاثمائة ألف نوع، وكلّ العالم الشمسيّ والنجميّ بتحوُّلاته وتاريخه، وبأصوله ودروب مجرّاته ـ لهو سراب وهلوسة.

ورغم الأصوات التي تصرخ، حتى من أعماقنا، ضدّ ما جرؤت لتوّي على التفكير به، صراخ العوام ضدّ الجمال، رغمًا عن العالم الذي يعترف بأنَّ العالم هلوسة، ويضيف بدون برهان، أنّه «هلوسة حقيقيّة» ـ أقول إنَّ لانهاية للعالم وأزليّته هما إلهان مزيّفان. إنّما أنا الذي أعطي الكون هذه الخواص المشتطة، الموجودة فيّ (لا بدّ أنّني أعطيته إيّاها، لأنّه حتى ولو كان يملكها، فإنّني لن أستطيع أن ألاحظ فيه ما لا تمكن ملاحظته، إنّما سآخذها من ثروتي الخاصة لأضيفها إلى الصورة المحدودة التي أملكها عنه). ولا شيء يستطيع التغلّب على المطلق الذي يدفعني إلى القول بأنّني

موجود وأنّني لا أستطيع الخروج من ذاتي، وأنَّ كلّ شيء: الزمان، والمكان، والمنطق، ليس إلّا قدرة من القدرات الغامضة التي أتفوَّق بها عليه.

لقد أخذتني رعدة عجيبة حين اكتشفت في الكتاب المتزمّت هذا التعبير عن صرخات الإنسانيّة التي بلغت مسامعي. إنَّ القلب الإنسانيّ لينزف وينبسط من خلال السطور الباردة والمحسوبة التي خطّها الكاتب الألمانيّ. وقد لا يكون هناك مفرّ من وقار معيّن للتحرّر من الظواهر ولفهم الصيغ العظيمة للحقيقة التي تطهّرت على هذا النحو. لكنّي أقول إنَّ هذه العبارات هي أروع عبارات أمليت على البشر حتى الآن، وإنَّها تجعل من كتاب فيلسوف كونيجسبرغ أول مولّف يتقرّب من التوراة الحقيقيَّة. إنَّ كلمات يسوع المسيح، التي قيلت لتربية المجتمع بحسب الأسس النبيلة، تبدو إلى جانبه سطحيّة ونفعيّة.

إنَّه لشيء خطير، إنَّه لشيء جليل ومهمّ، انتزاع الكلمات الحقيقيَّة من الصمت، ووضع العقل في مكانه، وإعادة الاعتبار للحقيقة. وليست المسألة مسألة نقاش نظريّ غير مجدٍ، بل هي مسألة مشكلة شخصيّة رهيبة تنال اهتمامي كلّيًا، مسألة حياة أو موت بالنسبة لي، مسألة حكم خطير لا استئناف فيه يعنيني شخصيًّا.

كلّ شيء فيّ، ولا وجود لقضاة، لا وجود لحدود، لا وجود لنهايات بالنسبة لي. إنَّ نشيد «من الأعماق»، الجهد من أجل عدم الموت، سقوط الرغبة مع صرختها التي تعلو، إنَّ هذا كلّه لم يتوقّف. إنَّ آلة القلب البشريّ دائبة على أداء عملها المستمرّ من خلال الحرّية اللّامحدودة (دومًا شيء آخر، دومًا!). وهذه الحركة الدائبة تأخذ اتّساعًا عظيمًا حتى إنَّ الموت نفسه يمّحي. إذ كيف أستطيع أن أتخيَّل موتي، إن لم أخرج من ذاتي وأنظر إليها وكأنَّني لست ذاتي، بل إنسان آخر؟

إنَّنا لا نموت.. إنَّ كل كائن وحيد في العالم. وقد يبدو أنَّ من اللّامعقول، أنَّ من التناقض التلفُّظ بمثل هذه الجملة. ومع ذلك، فهكذا

هي الحال.. لكن، هناك كائنات عدّة مثلي.. كلّا، لا يمكنني أن أقول ذلك. فقولي ذلك، يعني أنّني أصف نفسي إلى جانب الحقيقة عن طريق نوع من التجريد. إنّني لا أستطيع أن أقول إلّا شيئًا واحدًا: إنّني وحيد.

ولهذا لا نموت.

في تلك اللحظة، كان الرجل، المنحني في الظلام، قد قال: «ستستمرّ الحياة، بعد موتي. ستظلّ هناك جميع تفاصيل العالم التي ستحتلّ باطمئنان أماكنها ذاتها. وستكون هناك جميع آثار مروري التي ستموت شيئًا فشيئًا، وسيكون هناك فراغي الذي سينغلق من جديد».

لقد أخطأ. أخطأ بكلامه على هذا النحو. لقد حمل الحقيقة كلّها معه. إلّا أنّنا، نحن، قد رأيناه يموت. لقد مات بالنسبة لنا، أما بالنسبة له فلا. إنّني أشعر أنَّ هنا حقيقة عصيّة على الفهم بشكل مخيف، أشعر أنَّ هنا تناقضًا رهيبًا، لكنّي أمسك بحدّيْه، ساعيًا كالأعمى إلى معرفة أي لجلجة مشوَّهة ستنتج عن ذلك. شيء ما مثل: «كل كائن هو الحقيقة كلّها..». إنّني سأعود إلى العبارة التي لفظتها توًّا: إنّنا لا نموت، لأنّنا وحيدون. إنّهم الآخرون الذين يموتون. وهذه الجملة التي تنداح مرتجفة على شفتيّ تعلن أنَّ الموت إله مزيّف.

لكن ما دون ذلك؟ حتى ولو كنت حكيمًا حكمة فائقة الطبيعة، بحيث أستطيع أن أتخلّص من سيطرة موتي الخاصّ، فسيظلّ هناك موت الآخرين وموت الكثير من العواطف والعذوبة. ليس مفهوم الحقيقة هو الذي سيغيّر الألم، ذلك أنَّ الألم، كالفرح، مطلق.

ومع ذلك!.. إنَّ عظمة بؤسنا اللّامتناهية تمتزج بالمجد بل بالسعادة ـ بالسعادة المترفّعة الباردة. ترى أكبرياء أم فرحًا، طفقت ابتسم مع أشعة الفجر البيضاء الأولى، قرب المصباح المحاصر باللّازورد، كلّما رأيت نفسي وحيدًا في الكون أجمع!..

- ١٥ -

إنَّها المرَّة الأولى التي تتبدّى لي فيها في ثياب الحداد، وأنَّ شبابها ليسطع في هذا السواد أكثر من أيّ وقت مضى.

الرحيل قريب. إنَّها تنظر، متلفّتة، إن كانت قد نسيت شيئًا ما في الغرفة التي أعيدت إلى حالة تستطيع معها استقبال ضيوف آخرين، الغرفة التي تشوّهت، هُجرت من الآن.

انفتح الباب، وفي اللحظة التي رفعت فيها المرأة الشابّة، وقد توقَّفت عن شاغلها البسيط، رأسها، ظهر رجل عند فرجة الباب المشمسة. وصاحت:

ـ ميشيل! ميشيل! ميشيل!

مدّت ذراعيها، ولبثت بضع ثوانٍ ساكنة بلا حراك في النور، وبادرتها عائمة، ووجهها مثبت عليه.

ثم، رغمًا عن المكان التي هي فيه، ورغمًا عن نقاء قلبها، وحياء حياتها كلّها، اختلجت ساقاها العذراوان وترنّحت.

رمى بقبّعته على السرير بحركة رومنطيقيّة كبيرة. لقد ملأ الغرفة بحضوره، بثقله. خطاه تجعل أرضها تصرّ. لقد ألقى بنفسه عليها، وحضنها. ورغم طولها، فقد كان يفوقها طولًا برأسه كلّه تقريبًا. أساريره المشدودة قاسية مدهشة. وجهه، الذي يعلوه شعر أسود ثقيل، وضيء، مشرق، كأنّه جديد. شاربان سوادهما عميق، متهدّلان بعض الشيء، يظلّلان فمه الأحمر الحارّ، الظافر، وكأنّه جرح طبيعيّ جميل. يضع يديه على كتفيّ المرأة الشابّة، ينظر إليها، مهيّئًا، فاتحًا عناقه الجائع.

إنّهما يتلاحمان، مترنّحين.. لقد قالا معًا في وقت واحد كلمة واحدة: «أخيرًا!». هذا كل ما قالاه، لكنّهما ردّدا هذه الكلمة بصوت خافت، فترة من الزمن، أنشداها. عيونهما تهتف بالصيحة العذبة، فيتناقلها صدراهما. لكأنّهما يتّصلان بهذه الكلمة ويتشبّعان بها. أخيرًا! لقد انتهى فراقهما الطويل، انتصر حبّهما. أخيرًا، إنّهما هنا معًا!.. وأراها ترتجف من رقبتها إلى كعبيها، أرى كيف يستقبله جسدها كلّه، بينما عيناها تنفتحان، ثم تنطبقان عليه.

إنّهما يحاولان الكلام بمشقّة كبيرة، ما دام لا مفرّ من الكلام.. وأشلاء الكلمات التي يتبادلانها ترغمهما على الوقوف لحظة. إنّه يتمتم تائهًا:

ـ يا للانتظار، يا للأمل! لقد فكّرت دومًا بك، رأيتك دومًا!

ويضيف بصوت أكثر خفوتًا، أشدّ حرارة:

ـ كان اسمك، الذي يُلفظ أحيانًا على حين غرّة أثناء مناقشة عاديّة، ينقضّ منقّبًا في قلبي.

صوته، الأصم، يلهث. يصدر عنه رنين مفاجئ، متفجّر. يبدو أنّه لا يعرف كيف يتكلّم بخفوت.

ـ كم من مرّة جلست على حاجز القرميد، فوق سطح المنزل، من جهة المضيق، ورأسي بين يديَّ. لم أكن أعرف حتى في أيّ جهة من العالم أنتِ، ورغم بعدي السحيق عنكِ، لم أكن أستطيع ألَّا أراكِ.

فقالت، مطرقة برأسها:

ـ كثيرًا ما وقفت، في الأمسيات الحارة، بسببك، عند النافذة المنفرجة. كان الهواء، أحيانًا، عذبًا عذوبة خانقة ـ كما كان منذ شهرين في فيلّا الورد. كانت الدموع في عينيَّ.

ـ أكنت تبكين؟

فأجابت بصوت خافت؟

ـ أجل، كنت أبكي فرحًا.

تلاحم فماهما، فماهما الصغيران القرمزيّان، بلونهما المتماثل بدقّة. إنَّهما يكادان لا يتميَّزان، في توتّر القبلة الخلّاقة، الذي يربط بينهما داخليًّا، ويجعل منهما نهرًا جسديًّا واحدًا داكنًا.

ثم تراجع عنها قليلًا ليراها بشكل أفضل. أخذها من وسطها، بإحدى ذراعيه، المشدودة، جنبًا إلى جنب، ورأسه ملتفت نحوها. عندئذ وضع يده الحرّة على بطنها. إنَّني أرى شكل ساقيها وبطنها، إنَّني أراها كلّها من خلال الحركة الوحشيّة الرائعة التي ينحتها بها.

كلماته، المتقطّعة، تنهال عليها، وقد ازدادت ثقلًا.

ـ هناك، بين بساتين الشاطئ التي لا يُحصى لها عدد، كنت أريد أن أدفن أصابعي في الأرض الداكنة. كنت أحاول، تائهًا، أن أتخيَّل شكلك، وأفتّش عن أريج جسدك. وكنت أمدّ ذراعيّ إلى الفضاء الطلق، كي ألمس أكثر ما يمكنني من شمسك.

فقالت بتناغم أكثر عذوبة، لكنَّه عميق أيضًا:

ـ كنت أعرف أنَّك تنتظرني وأنَّك تحبّني.. كنت أرى حضورك، في غيابك. وغالبًا ما كنت أفكِّر، حين يدلف شعاع من الشفق إلى غرفتي ويمسّني، بأنَّني قربان لحبّك، وأمدّ عنقي للشمس.

ثم قالت:

ـ كنت، والمساء في غرفتي، أحيانًا، وأنا أفكِّر بك.. أتأمَّل نفسي معجبة..

وابتسم، راجفًا.

كان يردِّد دومًا الفكرة المسيطرة عليه بكلمات لا تكاد تتغيَّر: وكأنَّه لا يعرف شيئًا أكثر من ذلك. كان ذا روح صبيانيّة وفكر محدود، خلف تمثال جبينه وعينيه السوداوين الواسعتين اللّتين أرى فيهما بوضوح وجه المرأة القريبة الأبيض يعوم كبجعة.

كانت تصغي إليه بورع، منفرجة الفم، مقلوبة الرأس قليلًا إلى الوراء. ولو لم يمسكها، لخرّت على ركبتيها أمام هذا الإله الذي يعادلها جمالًا، وكانت أجفانها قد تجرّحت من حضوره القويّ.

ـ كانت ذكراك تحزن أفراحي، لكنَّها كانت تعزّي أتراحي.

لم أدرِ أيَّهما همس بهذا.. وتعانقا بعنف. كانا يدوران يدوران. ولكأنَّهما شعلتان عاليتان.

كان وجهه يحترق.

ـ أريدك.. آه! لكم كانت وحدتي مصلوبة، في ليالي الأرق والشهوة، وأنا ممدَّد، مفتوح الذراعين أمام صورتك!

ـ كوني لي، أنا!

كانت تريد. تريد. كانت، كلّها، قبولًا مشعًّا. إلّا أنَّ نظرتها المتخاذلة جالت في الغرفة. وهمس لهاث صوتها:

ـ لنحترم هذه الغرفة..

ثم خجلت من رفضها. وتمتمت حالًا: عفوًا!

كان شعرها وتنّورتها، المنحلان، يتدفّقان وينسابان حولها.

أجال الرجل نظره في الغرفة، وقد أوقف في ذروة شهوته العارمة. وتجعّد جبينه بغضن ريبة عاصفة، وحشية، وبرق في عينيه نظير العرق.

ـ أهنا.. الموت؟..

فقالت، جاثمة عليه:

ـ كلّا.

كانت المرّة الأولى التي يرد فيها ذكر الموت في بساطة تقاربهما. فالعاشق لم يكن حتى الآن قد تكلّم، مدفوعًا بعشقه، إلّا عن نفسه.

إنّها لا تستسلم فحسب، بل تحاول أيضًا أن توائم حركاتها مع حركاته، أن تفعل ما يريد، متأرجحة، منهالة عليه، منتبهة لشهوة الرجل فيه. لكنّها لا تعرف سوى أن تتهالك عليه وتجذبه، وهذا المشهد الصامت أكثر شجًى من الكلمات الفقيرة التي يتبادلانها.

وفجأة، رأته وقد خلع نصف ثيابه، وتغيّر شكل جسمه. واحمرّ وجهها احمرارًا شديدًا حتى إنّه خيّل إليّ لحظة من الزمن أنّه امتلأ بالدم، لكنّ عينيها كانتا تبتسمان أملًا مذعورًا وتقبلان. إنّها تعبده، تعجب به بكامله، تريده. يداها تعصران ذراعيّ الرجل. كل الإغراء الغامض المظلم يخرج منها ويصعد إلى النور. إنّها تعترف بما يسكت عنه الصمت العذريّ. إنّها تظهر حبّها الوحشيّ.

ثم شحبت، ولبثت لحظة بلا حراك وكأنّها ميّتة متشبّثة. إنّني أشعر بها فريسة لقوّة علويّة تارة تجمّدها وطورًا تحرقها.. وجهها، الذي هو من أجمل زخارف العالم، المضيء بقوّة وكأنّه يتقدّم إلى النظر، يتقلّص

متشنِّجًا، ويضطرب، تخفيه التواءة. تناغم حركاتها الواسع البطيء، يتيه ويتمزَّق.

لقد حمل إلى السرير الصبيّة الحلوة، الممشوقة القد.. إنَّني أرى ساقيها المتباعدتين فاتحتين عري جنسها الهشّ الحسّاس.

لقد انكبَّ عليها، التصق بها، مزمجرًا، ساعيًا إلى جرحها، بينما هي تنتظر، واهبة نفسها بكل ثقلها.

إنَّه يريد أن يمزِّقها، يجثم فوقها، ورأسه يشعّ بشراسة قاتمة قرب الرأس الشاحب ذي العينين المغمضتين المزرقّتين، والفم المنفرج عن الأسنان كأنَّما ينفرج عن أهداب الهيكل العظمى. لكأنَّهما ملعونان حكم عليهما بأن يتعذّبا عذابًا رهيبًا، في صمت لاهث ستعلو منه صرخة.

وأنّت بصوت خافت: «أحبّك». وكانت هذه الكلمة نشيدًا كاملًا من أفعال النعمة. وبينما كان لا يراها، رأيت أنا، أنا وحدي، يدها البيضاء النقية ترشد الرجل إلى وسط جسدها الدامي.

وأخيرًا انبثقت الصرخة من فعل الاغتصاب هذا، من هذا الاغتيال لمقاومتها السلبيّة، مقاومة المرأة العذراء المغلقة.

وصاح بفرح ظافر عصبيّ:

ـ أحبّك!

وصاحت: «أحبّك!» بصوت عالٍ جدًّا حتى إنَّ الجدران تحرَّكت حركة وئيدة.

إنَّهما يغوصان أحدهما في الآخر، والرجل يسرع نحو اللّذة. إنَّهما يرتفعان كالأمواج. إنَّني أرى أعضاءهما مخضّبة بالدم. إنَّهما لا يباليان بكلّ أشياء العالم، لا يباليان بالحياء، بالفضيلة، بذكرى الراحل المقبضة، ساحقين كلّ شيء، راقدين فوق كلّ شيء.

رأيت الكائن المتضاعف المسخ الذي يشكّلانه. لكأنّهما يسعيان إلى إذلال كل ما كان فيهما جميلًا، وإلى التضحية به. فهاهما يتشنّجان وهما يتقدّمان للعضّة، وعلى جبهتيهما ترتسم خطوط سود من الحنق والجهد اليائس. إحدى الساقين الرائعتين تمتدّ خارج الفراش، القدم تتشنّج، الجورب ينساب عن لحم الرخام الذهبيّ الجميل، الفخذ ملطّخة بالزبد والدم. المرأة الشابّة تبدو وكأنّها كلّها تمثال سقط عند قدميّ قاعدته وتشوّه. والوجه المذكور، ذو العين المحتقنة، يبدو وكأنّه وجه مجنون مجرم تلطّخت يده بالدم.

إنّهما متقاربان أقصى ما يمكنهما: إنّهما متّحدان باليدين، بالفم، وبالبطن، يشدّ كل منهما وجه الآخر إليه حتى أنّهما باتا لا يريان بعضهما، وقد عميت عيونهما التي تقاربت أكثر مما ينبغي، ثم لويا عنقيهما، وأشاحا عيونهما في اللحظة التي كان كلّ منهما فيها بأشد الحاجة إلى الآخر.

إنّهما، من قبيل الصدفة، سعيدان في الوقت نفسه، وقد تباطأ عند لحظات النشوة الطويلة المتوافقة. الدائرة التي يرسمها فم المرأة نديّة كلّها، تقدح شررًا، وكأنّ القبل تسيل منها وتشعّ.

وغنّت، وهدلت، وحشرجت:

ـ آه! أحبّك، أحبّك!

ثم كانت أصوات غير ملفوظة، تركتها تسقط فيما يشبه القهقهة. قالت: «حبيبي، حبيبي، حبيبي الصغير!». إنّها تتلعثم بصوت مهشّم وكأنّها تبكي: «جسدك، جسدك»، وتلتها دفعة من جمل غير متلاحمة، لا أجرؤ حتى على تذكّرها.

وبعد ذلك، نهضا بتثاقل، كالآخرين، كما هي الحال دومًا، كما سيفعلان هما بالذات في المستقبل القريب، وقالا: «ماذا فعلنا!». إنّهما لا يعرفان ما فعلا. إنّ عيونهما تنطبق قليلًا ـ تشيح نحوهما هما وكأنّهما لا يزالان يمتلك أحدهما الآخر. إنّ العرق يسيل كالدموع ويحفر أخاديده.

إنَّني لا أتعرّفها. باتت لا تشبه نفسها. وجهها ذابل متهدِّل. باتا لا يعرفان كيف يعاودان الكلام على الحبّ. ومع ذلك فقد تبادلا النظر، وفي عيونهما كبرياء ومذلّة، لأنَّهما اثنان. تبلبل المرأة أشدّ من تبلبل الرجل، رغمًا عن تساويهما: فهي قد وصمت إلى الأبد، وما فعلته أعظم مما فعله هو. إنَّها تشدّ وتضمّ ضيف جسدها، يحيط بهما بخار لهاثهما وحرارتهما.

الحب! لم يكن هناك، هذه المرّة، مقوٌّ مبهم، ليدفع بهذين الكائنين أحدهما فوق الآخر. لم يكن هناك حجاب، ظلام، رقّة آثمة. لم يكن هناك إلّا جسدان شابّان جميلان كحيوانين مذكّرين عظيمين، تلاحما من خلال الصيحات البسيطة والحركات المعهودة.

إذا كانا قد اغتصبا ذكريات وفضائل، فإنَّما ذلك بقوّة حبّهما بالذات، ولقد طهّرت حميّتهما كل شيء وكأنَّها محرقة. لقد كانا بريئين في الجريمة والقباحة. إنَّهما، هذين، لا يشعران بندم، بتأنيب ضمير. إنَّهما غارقان في انتصارهما. لا يعرفان ما فعلا. يعتقدان أنَّهما قد اتّحدا.

جلسا على حافّة السرير. ورغمًا عنّي، باعدت رأسي، إذ رأيتهما قريبين منّي إلى هذا الحدّ، مخيفين إلى هذا الحدّ. إنَّني أخاف من الكائن الفخم الفائق القوّة، الذي سيسحقني إذا عرف أنَّنا متواجهان.

قال لها، ورأسه مشغول بالفعل الذي أنجزاه، كاشفًا من خلال ملابسه المنفرجة، عن صدره المرمريّ الواسع، وقد ضمّ في يده الداكنة اليد العذبة المطمئنة، الناعمة:

ـ الآن أنت لي إلى الأبد. لقد جعلتني أعرف الوجد الإلهي. أملك قلبك وتملكين قلبي. أنت زوجتي الأزليّة.

قالت: أنت كلّ شيء.

واستند كلّ منهما إلى الآخر بتثاقل أكبر، رازحين تحت وطأة العبادة المتزايدة الملحاح.

وكما أنَّهما لم يعرفا ما فعلاه، فإنَّهما لا يعرفان ما يقولانه، بفيهما اللذين يبلِّل كلّ منهما الآخر، وبعيونهما الشاخصة المنبهرة التي لا تفيدهما إلّا للعناق، وبرأسيهما المليئين بكلمات الحبّ.

إنَّهما ينطلقان نحو الحياة كزوجين أسطوريّين، شعريّين وقرمزيّين: الفارس الذي لا يرى من ظلمة إلّا رخام شعرها الأسود، والذي يرفع على جبهته جناحين حديديين أو عفرة حيوانيَّة، والكاهنة الغامضة، بنت الآلهة الوثنيّة، ملاك الطبيعة.

إنَّهما يسطعان تحت الشمس. لن يريا شيئًا حولهما، ولن يكابدا من عراك إلّا عراك جسديهما، في غضب هواهما الرائع، أو إلّا من كمين غيرتهما، ذلك أنَّ العاشقين هما بالأحرى عدوَّان أكثر منهما صديقين. لن يشعرا بألم، إلّا ألم توتّر شهوتهما الحادّ، حين سيلفّ المساء جسديهما ببرودة قارسة كبرودة الفراش.

يُخيَّل إليّ أنَّني أتبعهما بعينيّ، من خلال مظاهر الديكور والعصر، عبر الحياة التي ليست بالنسبة لهما إلّا سهولًا، أو جبالًا، أو غابات. انظر إليهما يحجبهما نور، بمنأى لبعض الزمن عن الذكرى والفكر الرهيب، بمنجى من خطورة الظلام والفخاخ اللّامتناهية التي ينصبها القلب الكبير الذي يحملانه رغمًا عن كلّ شيء.

إنَّني لأقرأ مستهل مصيرهما هذا، بدءًا من هذا الالتحام الأول، الذي احترم تأمُّلي العالي كلّ تفاصيله، والذي رأيته في عظمته وفي صغاره، والذي أحسنت صنعًا بأن رأيته.

ثمّة شكل نسويّ في صدر الغرفة الرماديَّة. امرأة أخرى؟ يخيَّل إليَّ أنَّها هي هي دومًا..

لقد تعرّت، في الظلّ، بيضاء، شاحبة، وعلى مقربة منها أربطة بيضاء. إنَّها تنزف، حانية الظهر، مطرقة الرأس.. إنَّها تنظر إلى نفسها تنزف، منتبهة إلى ضعفها، محزونة، وكأنَّها مبولة مائلة.

لم أشعر قط كما أشعر الآن ببؤس الكائنات الإنسانيَّة المقدّس. إنَّه ليس مرضًا، بل جرحًا، تضحية. إنَّه ليس مرضًا، كما أنَّ قلبها ليس بمريض. ومع ذلك فإنَّها مصطبغة بسببه بلون أرجوانيّ كأمبراطورة.

..لأوّل مرّة منذ وجودي هنا، ترغمني بادرة شفقة على إشاحة نظري.

إنَّ لملكوت المؤمن الغامض مكافأته. إنَّنا نعجب بكلّ ما نتحمّل مشقّة الغوص فيه. أمّنا ليست، بالنسبة لكلّ منّا، إلّا امرأة نفهمها أكثر من غيرها.

بتُّ لا أنظر. إنَّني أجلس وأستند إلى مرفقي. أفكّر بنفسي. أين أنا الآن؟ إنَّني لوحيد. ضاع مركزي. وعمّا قريب لن يبقى لديّ مال. ماذا سأصنع في الحياة؟ لست أدري. سأبحث. لا بدّ أن أجد.

وباطمئنان، ببطء، رحت آمل.

...عليَّ بعد الآن أن أتجنَّب كلّ حزن، أن أتجنَّب القلق والحمّى... سأعيش بعيدًا، بعيدًا عن كلّ هذه الأشياء الفظيعة الخطيرة، التي يصعب تحمّل مرآها بشكل رهيب، إذا ما انصرم ما تبقّى من عمري في الهدوء، في السلام!

سأحيا في مكان ما حياة عاقلة، ممتلئة بالمشاغل ـ وسأكسبها بشكل منظّم.

وأنتِ، ستكونين هنا، يا أختاه، يا ابنتي، يا زوجتي.

ستكونين فقيرة كي تشبهي سائر النساء. وسأشتغل، كي نستطيع الحياة، طوال اليوم، وسأكون عن هذا الطريق خادمك. ستعملين بعطف من أجلنا في هذه الغرفة، حيث لن تجدي على مقربة منك، أثناء غيابي،

إلّا حضور آلة الخياطة المحض.. ستؤدين واجبك المنزليّ على أكمل وجه، دون أن تنسي شيئًا، وصبرك طويل كالحياة، وأمومتك ثقيلة كالعالم.

سأعود، سأفتح الباب في الظلمة. وسأسمعك تقبلين، من الغرفة المجاورة التي ستأتين منها بالمصباح: إنَّ فجرًا سيعلن عنك. وستروّحين عن نفسي باعترافك الهادئ، دون أن يكون لك من هدف سوى أن تهبيني كلمتك وحياتك، بما لم تفعليه أثناء عدم وجودي في البيت. ستروين لي ذكريات طفولتك. لن أفهمها تقريبًا، لأنَّك لن تستطيعي، رغمًا عنك، إلّا أن تسردي لي تفاصيل ناقصة عنها. لن أعرفها، لن أستطيع معرفتها، لكنّي سأحبّ تلك اللغة الأجنبيّة العذبة التي ستهمسين بها.

سنتحدَّث عن الطفل القادم، وستحنّين، على هذه الرؤية، جبينك وعنقك الأبيضين كاللبن، وسنسمع مقدمًا السرير يهتزّ كخفق الأجنحة. وسنحلم، متعبين، بل هرمين، بأحلام غضّة مع شباب طفلنا.

وبعد هذا الحلم، لن يشطّ بنا الفكر بعيدًا، بل سنفكّر بحنان. عند المساء سنفكّر بالليل. ستكونين ممتلئة بفكرة سعيدة. وستكون الحياة الداخليّة مرحة وضّاءة، لا بسبب ما سترينه، بل بواسطة قلبك. ستشعّين كأعمى.

سنسهر وجهًا لوجه. لكن رويدًا رويدًا، مع تقدّم الساعات، ستصبح الكلمات أكثر غموضًا، أكثر تبدُّدًا. إنَّه النعاس الذي سيلامس روحك. ستنامين على الطاولة، وستشعرين بي وأنا ساهر أكثر فأكثر..

إنَّ الحنان أكبر من الحبّ. إنَّني لا أعجب بالحبّ الجسديّ، حين يكون وحيدًا عاريًا. إنَّني لا أعجب بتأجُّجه الفوضويّ الأنانيّ، القصير العمر إلى حدّ لامتناهٍ. ومع ذلك، فإنَّ الارتباط بين كائنين من الكائنات يظلّ دومًا موهنًا بدون الحب. ينبغي أن ينضاف الحبّ إلى الحدب، ينبغي أن يؤدّي إلى اتّحاد، اتّحاد من التقارب والبساطة، ينافي كل ما هو غريب عنه.

- ١٦ -

مضيت في الشوارع كمنفيّ، أنا الإنسان العاديّ، أنا الذي يشبه جميع الآخرين كثيرًا، أنا الذي يشبههم أكثر مما ينبغي. لقد اجتزت الشوارع، عبرت الساحات، وعيناي شاخصتان إلى ما يفلت منّي. يبدو عليّ أنّني أمشي، لكنّي أهوي، من حلم إلى حلم، من رغبة إلى رغبة.. باب منفرج، نافذة منفرجة، نوافذ أخرى تكتسي بلون برتقاليّ على الواجهات المبهورة بالمساء، تقلقني.. تمسّني عابرة سبيل: امرأة لا تقول لي شيئًا مما سيتوجّب عليها أن تقوله لي.. إنّني إنّما أحلم بمأساتنا هي وأنا. لقد دخلت إلى منزل، اختفت، ماتت.

.. إنّني ماكث هنا، وبدني مبهور بأريج آخر قد ولى هاربًا، محاصرًا بألف فكرة، مختنقًا، تحت رداء المساء.. ثمة لحن هرمونيّ يرتفع، من النافذة المغلقة لطابق أرضيّ، وجدت نفسي بجانبه. إنّني أدرك، كما لو أنّني أدرك عبارات إنسانيّة واضحة، جمال السوناتة، بحركتها العميقة. وأصغيت، لهنيهة من الزمن، إلى ما يسارّ به ذلك البيانو من حوله.

ثم جلست على مقعد. في الجانب الآخر من الشارع الذي تخترقه الشمس الآفلة، مقعد آخر جلس عليه رجلان. إنَّني أراهما بوضوح. يبدو عليهما كليهما أنَّهما مرهقان تحت وطأة مصير واحد، يجمع بينهما حنان متشابه: من الجليّ أنَّهما متحابّان. الواحد يتكلّم، والآخر يصغي.

إنَّني أتخيَّل مأساة ما سرّية تتبدّى للنور.. لقد تحابّا في شبابهما حبًّا لا حدود له، وكانت أفكارهما متماثلة، متبادلة بينهما. ثم تزوَّج أحدهما. إنَّه الذي يتكلَّم ويبدو كأنَّه هو الذي يغذّي الكآبة المشتركة. وتردّد الآخر بحذر على المنزل الزوجيّ، وربما اشتهى المرأة الشابّة اشتهاء مبهمًا، لكنَّه احترم طمأنينتها وسعادتها. وهذا المساء، يروي له صديقه أنَّها باتت لا تحبّه، بينما هو لا يزال يعبدها بكلّ جوارحه. إنَّها لا تهتمّ له، تشيح عنه. لا تضحك ولا تبتسم إلّا في كلّ مرة لا يكونان فيها وحيدين. إنَّه يعترف بهذه الشدّة، بهذا الجرح الذي ألم بحبّه، بحقّه. حقّه! كان يعتقد أنَّ له حقًّا عليها، ويعيش في هذا التصوُّر اللّاشعوريّ. ثم سدّد نظره، ورأى أنَّه ليس له من حقّ عليها.. وفكّر الصديق، عندئذٍ، بكلمة مختارة قالتها له، بابتسامة أبدتها نحوه. ورغم أنَّه كان طيّبًا، أبيض القلب، نقيًّا كل النقاء بعد، إلّا أنَّ أملًا حنونًا، أملًا دافئًا لا يقاوم، راح يتغلغل فيه. ورويدًا رويدًا، طفق وجهه يرتفع ويبتسم لتلك المرأة، وهو يستمع إلى الاعتراف اليائس!.. ولم يستطع شيء أن يمنع المساء، الرماديّ الآن، الذي يحيط بهذين الرجلين، أن يكون نهاية وبداية في آن واحد.

عاشقان، رجل وامرأة ـ المخلوقات المسكينة تعيش دومًا تقريبًا زوجًا زوجًا ـ يأتيان، يمرّان، ويذهبان. والإنسان يُرى المسافة الفارغة التي تفصل بينهما: الانفصال هو الشيء الوحيد الذي يرى، في مأساة الحياة. لقد كانا سعيدين وما عادا كذلك.. لقد شاخا تقريبًا من الآن. إنَّه لا يحرص عليها، لكنَّه يعلم مع ذلك أنَّ لحظة ضياعها منه تقترب.. ماذا

يقولان؟ إنَّه يعترف له، في لحظة من الخذلان، مستسلمًا للهدوء العميق الماثل، بالغلطة القديمة التي أخفاها حتى الآن، بورع، بخشوع دينيّ.. واأسفاه! إنَّ كلماته تحفر هوة لا قرار لها: فالماضي يبعث حيًّا، والأيام المنصرمة التي كانت تبدو سعيدة تصبح حزينة، والحداد يلفّ كلّ شيء.

ويمحو هذين العابرين عابران آخران، إلّا أنَّهما شابّان، أتخيَّل محادثتهما هما أيضًا. إنَّهما مبتدئان سيتحابّان.. قلب كلّ منهما يأخذ طريقه إلى قلب الآخر بحياء عظيم! «هل تريدين أن أذهب في تلك الرحلة؟ هل تريدين أن أفعل هذا أو ذاك؟». فتجيب: «كلا». إنَّ شعورًا من الحياء الفائق الوصف يغلّف الاعتراف الأول، الملتمس بتواضع كبير، بإهاب نكران.. لكنّ الفكر يكون قد أخذ يتمتّع، سرًّا، بجرأة، بالحبّ الحبيس في الثياب.

وغيرهما، وغيرهما.. أما هذان.. إنَّها صامتة، أما هو فيتكلّم. إنَّه لا يتوصل إلى أن يكون سيّد نفسه إلّا بمشقّة وألم. إنَّه يتوسّل إليها أن تخبره بما تفكّر به! فتجيب ويصغي الآخر، ثم يتوسّل من جديد، بإلحاح أكبر، وكأنَّها لم تقل شيئًا. إنَّه ههنا، متردّدًا، متعثّرًا بين الليل والنهار. ليس عليها إلّا أن تقول كلمة واحدة، بشرط أن يصدّقها. إنَّني أراه، في المدينة اللّامحدودة، متشبّثًا بذلك الجسد وحده.

وبعد بضع ثوانٍ، انفصلتُ عن ذينك العاشقين اللذين يفكّران، عن ذينك العاشقين اللذين يتبادلان النظر والاضطهاد.

الرجل والمرأة يظهران، من كل صوب، وينتصب أحدهما ضدّ الآخر: الرجل الذي يحبّ مئة مرّة، والمرأة التي تملك القوّة على الحبّ الكثير والنسيان الكثير.

وأستأنف سيري. أذهب وأجيء وسط واقع عار. إنَّني لست رجل الأشياء الغريبة والاستثناءات. إنَّني أتعرَّف نفسي في كل مكان، مشتهيًا،

صارخًا، مناديًا. إنّني أعيد، مع جميع الناس، بناء الحقيقة المتناثرة في الغرفة المفجوءة، الحقيقة التالية: «إنّني وحيد، وأريد ما ليس عندي وما لم يعد عندي». إنّما بهذه الحاجة نعيش، ومنها نموت.

أمرّ قرب دكاكين واطئة. أسمع صراخًا، عواء: «نعم! لا!». أقف، مدهوشًا من قوّة هذه اللهجة. أميّز، في أحد الأقفاص، بعضًا من ظل يضطرب. إنّه ببغاء، والصيحة التي سمعتها ليست إلّا ضجيجًا عظيمًا أعشى، صوتًا صدر عن جماد..

لكنّها تذكّرني، لأنّها خارج الإنسانيّة، ولأنّ شكلها إنسانيّ في الوقت نفسه، بأهمّيّة صيحة البشر. إنّني لم أفكّر قطّ بمثل هذه القوّة بكلّ ما يمكن أن يشتمل عليه التأكيد أو النفي الذي يخرج من فم مفكّر: عطاء أو رفض الكائن الإنسانيّ الذي يتراءى لي قلبه المظلم بلا انقطاع أمام عينيّ المؤمنتين، ليشدّني ويرشدني في النور، ووجهه في الظلام.

لكن لا شيء لي. لقد تعبت، الآن، من أنّني اشتهيت كثيرًا. إنّني أشعر بنفسي هرمًا فجأة. لن أشفي أبدًا هذا الجرح الذي في صدري.. وحلم الهدوء الذي حلمت به لتوّي لم يجذبني ويغرّني إلّا لأنّه كان بعيدًا عنّي. ولو عشته لحلمت بحلم آخر، ما دام قلبي حلمًا آخر.

الآن، أبحث عن كلمة. هؤلاء الناس الذين يعيشون حقيقتي، ماذا يقولون، حين يتحدّثون عن أنفسهم؟ هل يخرج من فمهم صدى ما أفكّر به، أم يخرج منه غلط أو كذب؟

الليل أرخى سدوله. إنّني أبحث عن كلمة شبيهة بكلمتي، كلمة أعتمد عليها، أستند إليها. ويخيّل إليّ أنّني أتقدّم متجسّسًا طريقي وكأنّ أحدهم سيبرز، في زاوية شارع من الشوارع، ليقول لي كلّ شيء!

لن أعود إلى غرفتي، هذا المساء. لا أريد هذا المساء أن أترك زحام البشر. إنّني أبحث عن مكان حيّ.

دلفت إلى مطعم كبير كي أحيط نفسي بالأصوات. وما إن تخطّيت الباب الكبير المترأرئ ـ الذي يفتحه ويغلقه خادم باستمرار ـ حتى أحدق بي ألف لون، ألف عطر، ألف همسة. وخيّل إليّ أنّ الحضور المتأنّقين ـ رسوم واضحة متقنة من الثياب السود، ظلال لامعة متنوّعة بدون داع من التسريحات النسائيّة ـ يقيمون مراسيم احتفال ثمين في هذه الردهة المترفة ذات السجّاد الأحمر. مصابيح في كلّ مكان، مزدانة بأزاهير من الفضّة، بشذرات من الذهب، بعاكسات للنور برتقاليّة، تؤلّف هالات صغيرة وسط كلّ مجموعة من الآكلين.

القليل من الأمكنة شاغر. جلست في إحدى الزوايا، بجانب مائدة يحتلّها ثلاثة آكلين. كنت مشدوهًا بالإضاءة الصاخبة، وكانت روحي، المتعوّدة والمتمرّنة بصبر على الأشياء الليليّة الكبيرة، أشبه ببومة أبعدت عن اللّازورد الأسود الرحب ورميت بسخرية وسط أسهم ناريّة.

كنت على وشك أن أحاول التدفؤ بهذا النور الباهر.. وبعد أن طلبت عشائي، بصوت اضطّررت إلى توكيده، أردت أن أهتمّ بملامح الوجوه. لكن كان من الصعب أن ألتقط الوجوه التي تحيط بي. فقد كانت المرايا تضاعف من عددها كما يضاعفه الديكور في الوقت نفسه: كنت أرى الصفّ نفسه، من الأمام ومن الجانب، ساطعًا.. أزواج، جماعات تنسحب بين استعجال الخدم الذين يمسكون بأطراف أيديهم أردية أو معاطف هشّة، معقّدة كالنساء. وكان يحضر قادمون جدد. ولاحظت أنّ النساء يبدين، للوهلة الأولى، ساحرات الجمال، متشابهات جميعهنّ أصلًا بوجوههنّ المبيّضة وأفواههنّ التي على شكل قلوب. وكلّما تقدمن، ظهر فيهن عيب أو أكثر، ومحا تلك الفتنة المثاليّة التي أضفتها عليهنّ النظرة

الأولى. وكان معظم الرجال، بحسب الموضة الشائعة في تلك اللحظة من الزمن، حليقين تمامًا، يرتدون قبّعات مسطّحة الحفاف، وسترات متهدِّلة الأكتاف.

وبينما كانت عيني تتّبع آليًّا اليد المغلقة بقفّاز من النسيج الأبيض، والتي تصبّ في صحفتي الحساء المقدّم في قصعة من الفضّة، أعرت سمعي ضجيج الأحاديث التي تطوّقني.

لم أكن أسمع إلّا ما يقوله جيراني الثلاثة. كانوا يتكلّمون على أشخاص يعرفونهم في القاعة، ثم على أصدقاء عدّة، بلهجة فاجأني ما فيها من هزء وتهكّم.

لم أكن أجد شيئًا فيما يقولونه. وهذه السهرة ستكون غير مجدية كسائر السهرات.

بعد بضع لحظات، وبينما كان رئيس النزل يقتطع شرحات من سمك الموس السابح في مرق دبق ورديّ اللون في صحفة معدنيّة مستطيلة، أشار لي بحركة من رأسه وبغمزة جانبيّة من عينيه إلى أحد الآكلين، وسارّني بكبرياء:

ـ إنّه السيّد فيليه، الكاتب المشهور.

كان هو، بالفعل. كان يشبه كلّ الشبه صوره ويتّشح بأناقة بمجده الفتيّ.

وحسدت هذا الرجل الذي يعرف كيف يكتب وكيف يقول ما يفكّر به. ونظرت بشيء من الإعجاب إلى نجابة وجهه الدنيويّ، وإلى الخطّ الجميل الحديث الناعم الذي يرسمه محيّاه الجانبيّ الضائع، والذي تخرج منه أهداب شاربه الحريريّة، وإلى منحنى كتفه المكتمل، وإلى جناح الفراشة على ربطة عنقه البيضاء.

كنت أرفع إلى شفتيَّ قدحي ـ الهشّ جدًّا حتى إنَّ النسيم لو مسّه لحطّمه ـ حينما توقفتُ فجأة وأحسست بدمي كلّه يتدفّق إلى قلبي.

كنت قد سمعت هذا:

ـ عمّ تدور روايتك القادمة؟

فأجاب بيير فيليه:

ـ عن الحقيقة.

فقال الصديق:

ـ ماذا؟

ـ استعراض لمخلوقات فوجئت كما هي.

فسئل:

ـ والموضوع؟

كانوا يصغون إليه. وكان شابّان يتناولان عشاءهما على مقربة منه، يلتزمان الصمت، في سيماء من اللّااهتمام، لكن كان من الواضح أنّ آذانهما مرهفة للسمع. وكان رجل يرتدي زيًّا للسهرة رسميًّا، جالسًا في زاوية أرجوانيَّة بهيّة، يدخّن سيجارًا غليظًا، متعب النظرة، مشدود الأسارير، وحياته كلّها متجمّعة في موقد النار الفوّاح الرائحة، وكانت رفيقته، المسندة مرفقها إلى الطاولة، المحاطة بالعطور وبالمجوهرات المتلألئة، والمرهقة تحت ثقل المملكة الاصطناعيَّة النفيسة، تدير نحو المتكلّم وجهها الطبيعيّ المقمر.

قال بيير فيليه:

ـ إليكم الموضوع الذي يتيح لي أن أكون مسليًّا وحقيقيًّا في آن واحد: يثقب رجل ثقبًا في جدار غرفة فندق وينظر إلى ما يجري في الغرفة المجاورة!

اضطّررت في تلك اللحظة إلى النظر إلى المتخاطبين بعين تائهة مشفقة... ثم خفضت رأسي بسرعة كما يفعل الأطفال بسذاجة حين يخافون من أن يراهم أحد..

كانوا قد تكلَّموا عليَّ، وشعرت أنَّ ثمة حولي مكيدة بوليسيَّة غريبة. ثم سرعان ما تلاشى هذا الانطباع الذي استولى على حسّي السليم بكامله. بديهيّ أنّها مصادفة. لكنّي كنت لا أزال أشعر شعورًا مبهمًا بأنّهم سيتبيّنون أنّني أعرف، وبأنّهم سيتعرّفونني.

وتابعوا الكلام على الفكرة المعرب عنها.. وتعلَّقت بحديثهم كطفيليّ، وقد فقدت كل إحساس بما دون ذلك، متوتّرًا بجهدي الوحيد الذي أبذله كي أسمعهم من دون أن يبدو عليّ أنّني أسترقّ السمع إليهم.

ورجا الروائيّ أحدُ أصدقائه أن يفصّل الكلام عن كتابه. فقبل.. إنَّه سيقول ذلك أمامي!

وسرد قصّة الكتاب الذي سيكتبه. ورسم أمام أنظار مستمعيه، بفنّ كلاميّ معجب، وبحركات وتحذلق، وبأناقة هازلة حادّة، سلسلة من المشاهد اللّامعة، الصاخبة، غير المتوقّعة. وبفضل موضوعه المبتكر، الذي يوشّح جميع المشاهد بالكثير من البروز والكثافة، عرض مقالب مضحكة، ومفارقات مسلّية، وأكثر من التفاصيل المتفنّنة الجذّابة، ومن أسماء العلم النموذجيَّة الفكهة، وركّب مواقف حاذقة، مغلّفًا إيَّاها بجاذبيّة لا تقاوم، وكلّ ذلك على أحدث طراز. كانوا يقولون:

«آه!»، «أوّاه!». ويجحظون الأعين.

ـ مرحى! نجاح كبير مؤكّد. الموضوع غريب للغاية.

ـ جميع أولئك السذّج الذين يمرّون أمام الرائي يبعثون على التسلية، حتى ذاك الذي انتحر! لم تنسَ شيئًا! إنّها الإنسانيّة كلّها!

لكنّي أنا لم أتعرَّف شيئًا في كلّ ما رواه.

كان الذهول ونوع من الخجل يرهقانني، كلّما سمعت هذا الرجل يفتّش عن اللّعبة التي يستطيع أن يستخرجها من المغامرة القاتمة التي تعذّبني منذ شهر.

وتذكّرت الصوت الكبير، الذي انطفأ الآن، والذي أعلن بلهجة حاسمة قويّة أنَّ كتّاب اليوم يقلّدون رسّامي الكاريكاتور. لم أكن، أنا الذي دلف إلى قلب الإنسانيّة وعاد منه، أجد أيّ شيء إنسانيّ في هذا الكاريكاتور الذي يتراقص! إنَّه مغرق في السطحيّة حتى إنَّه ليبدو كالكذب.

كان الشاهد الرهيب يقول أمامي:

ـ الإنسان المتحرِّر من الظاهر الكاذب، هذا ما أريد أن يراه الناس. إنَّ غيري هم الخيال، أما أنا فالحقيقة.

ـ إنَّ ما تقوله له أيضًا مدى فلسفيّ.

ـ ربما. على كلّ حال، إنَّني لم أسعَ إليه! شكرًا لله، إنَّني كاتب، ولست بمفكِّر!

وتابع تزويره للحقيقة، دون أن أستطيع شيئًا ـ الحقيقة. ذلك الشيء العميق، الذي يرنّ صوته في أذنيّ، ويخطر ظلّه أمام عينيّ، ويقبع طعمه في فمي.

أأنا مهجور إلى هذا الحدّ.. ألن يتصدّق عليّ أحد؟

ومضيت، بين مرايا الأبواب الكبيرة. ودلفت إلى مسرح تمثَّل فيه مسرحية استُقبلت بحماسة، قبل ثمانية أيام، كحدث هامّ، وقد تبقّى في ذاكرتي، من هذا النجاح، صدى قليل. العنوان «حقّ القلب» يغريني، يناديني.

احتللت مقعدًا، وهأنذا في وسط صالة المسرح الكبيرة، تتقاذفني أمواج الجمهور المضيئة.

يرتفع الستار، فيبعث بين الحضور نفحة كبيرة، فيتحرّك كلّ منهم في نوع من الرجاء، في انتظار الكائنات التي ستعيش ههنا عمّا قليل.

أنظر إلى المسرح، تمامًا كما نظرت إلى الغرفة. أسترقّ السمع، أسجّل كلّ كلمة، أتهجّاها..

.. النحّات الشاب جان دراسي، القادم من روما، بأحلامه الرخاميَّة، يقضي السهرة لدى صاحب المصرف لوفيس. مدعوّون لامعون تغصّ بهم الردهات الذهبيَّة. أعضاء من الأكاديميّة، يحملون وسام جوقة الشرف، يقفون بجانب أصحاب المليارات. جميع مشاهير الفن والأدب والقضاء والسياسة والمال يتزاحمون على شرف النميمة وابتسامة النساء الجميلات.

ويتركّز حديث المدعوّين بين عصبة صغيرة تتكلَّم بصوت خافت بعض الشيء. إنَّهم يتحدّثون عن ربّ المنزل:

ـ أتعرفون أنَّه سيصبح نبيلًا: الكونت لوفيس! ـ لقد أدّى خدمات جليلة للبابا، في هذه الأيام الصعبة المضطّربة. إنَّ قداسته على أوثق صلة به.

فتقول سيّدة ساذجة في عنفوان الشباب: يبدو أنَّه يدعوه بالإيطاليَّة بكلّ بساطة «بابا».

ـ راية دوقية جديدة! الحاجة إلى ذلك ملموسة!

ـ أوّاه! ولن تكون لهذه الراية رائحة، وأما السبب!

ـ وأيُّ شعار لرايته؟ إنَّني أقترح: «من يخسر نفسه يربح» ـ وأنا: «انقذ نفسك، تنقذك السماء» ـ وقال آخر له وجه شرقيّ: وأنا: «كلّ شيء

عدم إلّا الذات». (وتقول سيِّدة من سيِّدات المجتمع، مشيرة إلى رأس المتكلّم الأخير، بصوت خافت، إلى جارها، من خلف مروحتها): إنَّه يرى القشّة التي في عين جاره، ولا يرى الخشبة التي في عينه ـ كفانا مزاحًا: أتعلمون: شيء سرّيّ: كونت المستقبل سيؤسِّس جريدة ـ لا ـ لم أكن أعرف ذلك ـ ولا أنا. إنَّه لشيء غريب أن يقال عن هذا إنَّه شيء سرّيّ ـ جريدة للأنباء، لكنَّها في الحقيقة من أجل الأعمال: الدعاوة، المشاريع، و.. ـ والهرب بعد أول عدد ـ آه! يستطيع الإنسان أن يتحدَّث بأشياء وأشياء عن صاحب المنزل، إذا كان نمَّام اللسان. وصاحبة.. صاحبة البيت؟ ـ إنَّها جديدة. إنَّها لا تتركه، تتبعه إلى كل مكان ـ إنَّها ترغب في رؤية بلجيكا ـ يؤكِّد الناس أنَّه منحرف الأخلاق؟ ـ وبشكل سطحيّ فقط، رغم غبته. إنَّه طموح، لكنَّه متعب قليلًا. إنَّه يملك رأسًا ومعدة، لكنَّ الأمر يقف عند هذا الحدّ. أتعرفون بما يلقِّبونه؟ الفاسق.. لكنَّ هذا ليس بالصحيح كلّ الصحّة ـ ألا تتشكَّى زوجته من ذلك؟ ـ أوّاه! أتعرفون، هذا عندها سواء: لقد أجرت عمليَّة صغيرة، لهذا، الآن، إنَّها.. إنَّها امرأة ذات شهوة لا تشبع ولا تكلّ ـ يبدو أنَّ مهرها كان خمسين مليونًا، لكن لا بدّ أنَّه هو الآخر كان يملك شيئًا ما.. ـ إنَّك لتفتري عليه. فقد ورث، في الحقيقة، وهو في العشرين، عشرة ملايين من.. ـ من الرجل الوحيد الذي لا نقاش في أنَّه لم يكن أباه؟.. ـ بالضبط. حسنًا، لقد طار كلّ شيء، لكنَّه يعرف كيف ينتزع الإعجاب ـ إنَّني أعرف أنَّ للميدالية وجهها الثاني، وأنَّه، على ما يبدو، قد نال عقابًا شديدًا على انتقاله من وجه إلى آخر ـ أجل.. ماذا تريد، إنَّ النساء لا يعرفن كيف يبقين على مرض من الأمراض سرًّا! ـ على كلّ، وباستثناء هذا، فإنَّه على حقّ إذ يقول للماركيز دي كانوسا: «لقد نجحت مع النساء دومًا»، سوى أنَّ الماركيز أجابه بكل بساطة: «باستثناء السيِّدة والدتك». ـ والدته، لقد كانت نموذجًا حقيقيًّا، هذه المرأة. وحين ماتت، لم يكن الموقف برّاقًا. وقد نصبوا عند دفنها

مجموعة من الطاولات مع عدد لا يحصى من دفاتر التلاميذ للتوقيعات ـ وكان هذا يخفي غياب الأثاث، المباع. على كلّ، لم تسجّل إلّا ثلاثة تواقيع ـ يا للعجوز المسكينة، لحسن الحظ أنّها لم ترَ بعينها المرحلة الأخيرة تلك! أجل، إنّني لأذكر: كان عدد الحضور قليلًا. كان ينبغي أن يكون الناس مثلي، مرغمين على الذهاب. أليس من الغريب أنّ قدمي كانت، لحسن الحظّ، تؤلمني، فأعفاني ذلك من الذهاب ـ على كلّ، فقد ماتت. إنّها في السماء. هذا خير لها: فهي، على الأقل، تسمعنا ـ لقد عمل في السياسة منذ عشرة أعوام. وبعد سلسلة من الإخفاقات التي تستحق الرثاء، قال للذين دعموه والذين كانوا يكشّرون عن نواجذهم: «ممَ تشكون. لم أستطع أن أفعل شيئًا لأفكاركم، لكنّي، على الأقل، قد أعطيتكم زعيمًا» ـ إنّه هو الذي كان يقول أيضًا (لم يستطع أحد أن يعرف أهو جهله لقيمة الكلمات أم هي معرفته المبالغ فيها لقيمته الشخصيّة): «أستطيع، شأن الكثيرين، أن أفخر بأنّني قد أسهمت في البناء الاجتماعيّ بما وضعت في طريقه من عقبات صغيرة!..» ـ ألم يتحدّث الناس عن قصّته بسبب الآنسة ليمون التي كان على أوثق صلة بها؟ ـ كنت أظنّها راهبة متزمّتة: وقد شاع القول بأنّها متقلّبة العاطفة ـ إنّما هو المتقلّب العاطفة ـ آه! أجل، العاشقة الدينيّة. والقصّة؟ ـ كانت تهزأ به: وقد فاجأها، في النهاية، مع رجل من آل رينود، وسقطت الحراشف من عينيه ـ كل ما هنالك أنّ عدد ما لديه منها قد تضاءل ـ لقد أراد أن ينسحب بانتظام، لأنّه لا يحبّ القصص. لكن القضية تعقّدت: مشادة علنيّة ورفسة. وقد انزعج أشد الانزعاج من كل تلك الشائعات التي أحاطت بتلك الرفسة الصغيرة التي كانت، في رأيه، لا تستحقّ أن تؤخذ بعين الاهتمام. وحين أُخبر بقدوم شاهديّ السيد، هتف: «لكن ما بهم إذن، جميع هؤلاء الناس، كي يأتوا ويرنقوا عليّ صفوي بصدد حذاء!» ـ لو كان الطعام في بيته طيّبًا على الأقلّ! يا له من عشاء! هل لاحظت الحمص؟

ـ تمامًا، لونها باهت. ثم ما أكبر حجم حباته! كان ينبغي أن تقدّم حبة واحدة. والقهوة! كانت نزيرة إلى حدّ لم أجد معه القوة لأحتجّ ـ ماء مقطّر ـ لكن لا، لم يكن الطعام رديئًا إلى هذا الحدّ: بل على العكس، إنَّ هذا العشاء يصالحني معه: إنَّ المرق يجعلني أتحمَّل رب البيت ـ أما أنا فقد وجدت العشاء ممتازًا، وإنِّي لعلّى استعداد لأن أعاوده! ـ إنَّه يوصي على مآكله من محلات من الدرجة الثانية، قديمة الطراز: فلدى س.. إنَّني لا أذكر الأسماء، فلو كنت أعرفها، لاعتبرت جاهلًا ـ يبدو أنَّ المقبلات، في يوم سابق، كانت وافرة، حتى إنَّ ابنه بول قال له: «آه لا، أنت تبالغ، هذه المرّة، يا بابا!» ـ إنَّه لنموذج آخر! وهو ينظم أشعارًا. شاعر! شاعر محدث، مفترس ووصوليّ: القيثارة من أجل الحياة ـ إنَّه يلقّب أيضًا، بسبب ابتكاره: فرانسوا كوبيه ـ إنَّه يساهم في مجلات نسائيّة صغيرة، قراؤها من العذارى اللائي في العشرين، أو أنصاف العذارى اللائي في الأربعين ـ يبدو أنَّه على علاقة بالنحيفة السيّدة س. ـ تلك التي تمثّل مسرحية «السيّد» مع المتشائم ز.. ـ الصفصاف الباكي، الصفصافة الباكية ـ خذ حذرك! فلديها منقار وأظافر ـ دعك! إنَّها لطيفة للغاية! إنَّها لا تؤذي أحدًا. ـ على العكس إنَّها لا تؤذي إلّا النساء ـ على كلّ، يبدو أنَّه قد سئم من علاقته بها ـ ألأنَّها امرأة دنيويّة؟ ـ على الأخصّ لأنَّها امرأة ـ آه أجل! يبدو أنَّه ذو طباع خاصة.. لا أجرؤ على الكلام عليها أمام السيّدات.. لأنَّها لا تنال منهنّ اهتمامًا ـ أتعرف أنَّه يكتب للمسرح. لقد كتب فصلًا لمسرح الإيطاليّين ـ هو، كتب فصلًا؟ فصلًا ضدّ الطبيعة، أجل! ـ لا بدّ من أن نكون عادلين، فهو لا يميل إلّا إلى مثل هذه الأشياء.. حين يجد فيها مصلحته ـ أوّاه! إنَّه لخبيث. فهو يعرف كيف يتقلّب ـ إنَّني أفهم لماذا كانت أمّه تقول في يوم سابق: «إنَّه فرفار!» ـ ماذا سيفعل في صحيفة أبيه؟ ـ رئيس قسم البيع ـ كلّا، رئيس قسم الترتيب ـ يا لك من خبيث! إنَّه لا يتفوَّه أبدًا بسوء عن الآخرين ـ كلّا، وبخاصة حين يكونون

غائبين ـ على كلّ حال، إنَّه قليل الأدب، فظّ: فقد قال عن بيتي إنَّه واطئ السقف! ـ كان يظنّ أنَّه لا يزال على مائدته ـ سقفي واطئ، أنا! ـ الحقيقة، يا سيِّدتي العزيزة، إنَّه توجد في ردهة استقبالك مصابيح عاكسة للنور ـ على كلّ حال، إنَّ أسرة مضيفنا جميعها مشهورة بفظاظتها: ومن كان مثلي صديقًا حميمًا لها لا يستطيع إلّا أن يتبيَّن ذلك منذ زمن بعيد ـ إنَّها ابنة الأخ البارعة في هذا المجال ـ ومن أي صنف هي! إنَّها تتبرَّج بألوان صارخة حتى إنَّك لا تعرف أهي نفسها أم هي صورتها ـ إنَّها تقيم عنده على حسابه، أليس كذلك؟ ـ أجل. أجل. لقد قالت في يوم سابق (كانت في لحظة من لحظات الحنوّ) لتلك الصحفيّة الصغيرة القذرة التي تشبه طبّاخة والتي تدعى فيكتوار دي شامو كراس، إنَّها تربح كلّما ذاعت شهرتها، فأجابتها الخبيثة: «ما من إنسان في باريس يشكّ في ذلك» ـ لديها أحلام طهارة، لكنَّها لا تستطيع أن تصبح من جديد عن هذا السبيل نصف عذراء ـ يبدو، وإنّي أقول لكم بذلك سرًّا كبيرًا، إنَّها على علاقة منذ بعض الزمن مع سيِّد هرم. حسنًا، إنَّنا نأمل في أن يكون أباها..

وأحدثتْ «إنَّنا نأمل» هذه همهمة خفيفة في الصالة للمرّة الأولى، لكنَّها لم تكن إلّا احتجاجًا شكليًّا، في الحقيقة، كلّه دغدغة.. أما ما تبقّى من المسرحية فقد استُقبل بفرح حادّ متعاظم كلّما انسفحت النكات الوسخة ومسّت هؤلاء الرجال المتّشحين بثياب سود وأولاء النسوة العاريات الأكتاف.

وبعد الفصل الأول الذي يتوضّح فيه حبّ جان دارسي لجان دي فلورانج الجميلة الذكيّة (وهو دور تؤدّيه ممثّلة كبيرة)، كان المرء يستطيع أن يلاحظ في الممرّات تلك الحركة المحمومة التي ترافق النجاح. كانوا يقولون مهلّلين:

ـ كلمات، كلمات! لا شيء سوى الكلمات!

الفصل الثاني، كان شبيهًا بالأول. وكان مبنيًّا بالطريقة نفسها، وإن كان متنوِّعًا يعجّ بالحركة: عقد خفيفة ومصطنعة من الأحداث الثانويَّة والحوار، تهدف لأن يكون لها وقعها. ولقد كان هذا الوقع، بالأصل، وحشيًّا أحيانًا ومقبضًا للنفس بسبب الوهم العنيف الذي يحدثه في حساسيّتنا مرأى انفعالات مخلوق شبيه بنا، ينفعل على بعد بضع خطوات منّا. لكنّ بطلان مثل هذا الأسلوب يقفز للعين عند كلّ جملة. أجل، إنَّها ليست إلّا كلمات، عبارات، تتبدّد. أجل، إنَّ هؤلاء الناس «يمثّلون» ويسيئون تقليد الحقيقة الجدِّيَّة المزعومة التي يريدون أن يصوِّروها لنا. لكنَّهم لا يخدعونني.

الفصل الثاني ينتهي. الثالث يبدأ. جان دي فرولانج تتساءل ألها الحقّ في أن تربط مصيرها بمصير الفنان الشابّ الذي يحبّها بقدر ما تحبُّه، لكن المدقع الفقر والذي سيضحّي من أجلها إذا تزوّجها ـ بسبب الضرورات الماديّة المرهقة ـ بعبقريَّته وبمجده القادم. وتقدّر المرأة السامية التي هي البطلة، بعد أن تجري في ضميرها مناقشة تزيد من خطورتها حادثة غيرة، إنَّه ليس لها مثل هذا الحقّ، وتبعد عنها إلى الأبد النحّات جان دارسي بأن تجعله يعتقد أنَّها تشاطر جاك دي لينيير المشهور نزوته. وسيحتقر جان تلك التي كان يظنّها ملاكه وملهمته، لكنَّه سيشفى. وسيتزوّج راشيل لوفيس التي هي، رغم الوسط الغنيّ الفاسد الذي نشأت فيه، فتاة مثاليّة تحبّ الفنّان، في الظلّ. وسوف ينجز آثاره الفنِّيَّة. وهكذا يكون حقّ المستقبل قد تغلّب على حقّ القلب.

إنَّه الهذيان، في الصالة. بعد الفصل الأخير الذي تناقش فيه فكرة التضحية، ثم تحلّ حلًّا إيجابيًّا، والذي تصوَّر فيه الخيانة البطوليَّة، عن طريق حركة مفاجئة مضغوطة غير متوقّعة، تصويرًا عنيفًا كضربة تسدّد إلى العاشق والجمهور، أخذ الجمهور يهتف ويصفّق بشدّة حتى دميت

أياديه، ويرفس خشب المقصورات، ويضرب الأرض بالعصيّ، ويدبدب، وينبح.

.. الجمهور ينسفح، وقار النجاح الضئيل يذوب في مجموعات السادة المتّشحين بالمعاطف والنساء المتدثّرات الذين يتّجهون ببطء، متزاحمين، نحو المخرج.

ـ إنَّها متشابهة دومًا، جميع هذه المسرحيَّات. وبعد كل حساب، لا يستقرّ منها شيء في الذاكرة.

ـ وماذا؟ هذا أفضل. إنَّني أذهب، أنا، إلى المسرح كي أتسلّى، لا لأرهق فكري.

ـ لا أدري إن كانت ستستمر حتى يومها المئة.. على كل الأحوال، قد رأيناها أكثر من مئة مرة.

إنَّني أسمع السيِّد الذي تكلَّم على هذا النحو. إنَّه السيِّد بيير كوربيير، المؤلِّف الدراماتيكيّ، الذي تحتلّ مسرحيَّته «زيغ ـ زاغ» لافتات مسرح كبير مجاور: ثلاثة فصول تعجّ بالتلميحات، كما يقال، إلى أشخاص أحياء.

ويتعرَّف الناسُ الكاتبَ: فتحيط به حركة دائريَّة من القبّعات وكأنَّها ترتفع مع ريح مروره. وتمتدّ الأيدي المحظوظة لشرف لمس يده. إنَّه يمضي، مزهوًا منتصرًا. إنَّه هو أيضًا كالآخر: لقد كسب المال والشهرة، عن طريق تملُّقه الدنيء، وبراعته السهلة، وثرثرته البذيئة التي يحبُّها أهل باريس والروّاد الأغنياء الذين يحتلّون صالات المسارح. إنَّني أحتقره وأكرهه.

الآن، أسير تحت السماء، في سهول السماء التي ألقي فيها الكثير من الكلمات الفارغة.

جميع هذه الأشياء التي رأيتها ستتعفّن بسرعة. إنّها شديدة التعلُّق بالموضة، بحيث إنّه لا بدّ أن تزول موضتها غدًا. أين هم، المؤلِّفون اللامعون في السنوات الأخيرة؟ إنَّ أسماءهم تعوم فوق لست أدري ماذا.

إنَّ التماسّ مع الحقيقة قد علَّمني في آن واحد الخطأ والظلم، ويرغمني على كره هذه الألهيّات الخفيفة التي تدوم لحظة واحدة من الزمن، لأنَّها تقلِّد العمل الفنّي. يقينًا. إنَّ نجاحها ليس جدِّيًّا. إنَّ حماسة العرض الأول الفاتن ليست، في غالب الأحيان، إلّا حدثًا لا دلالة له؛ وجميع هذه المسرحيات ـ العناوين، والمواضيع، والممثِّلين ـ تمّحي بسرعة وتدفن بعضها بعضًا. إلّا أنَّ الحياة تمتدّ بها، بانتظار ذلك، بضع ليالٍ، فتستفيد، وتتمتّع بنصر فعليّ. إنَّني أتمنّى لو تقتل ساعة ولادتها.

الغرفة ترشح بأشعّة القمر التي تخترق النافذة اختراقها الفضاء. كان هناك حشد مظلم أبيض، في الديكور العظيم: كائنان صامتان بوجهيهما الرخاميّين.

كانت النار قد انطفأت. وكانت ساعة الحائط قد خرست، بعد أن أنهكت نفسها في العمل، وراحت تصغي بقلبها.

كان وجه الرجل يسيطر على الحشد. كانت المرأة عند قدميه: كانا لا يفعلان شيئًا، بحنان. ينظران إلى القمر، وكأنَّهما نصبان.

تكلَّم. عرفت ذلك الصوت الذي أضاء لي على حين غرّة وجهه المدفون. إنَّه العاشق والشاعر الذي لا اسم له والذي رأيته مرّتين.

كان يقول لرفيقته إنَّه بينما كان راجعًا عند المساء، التقى بامرأة، متسوّلة، وطفلها بين ذراعيها.

كانت تسير، مدفوعة، محمولة بحشود العائدين، ذلك أنَّ بعض الشوارع المكتظّة تسيل كلّها في مجرى واحد، مساءً. كانت قد توقّفت، منكمشة، تحت مدخل حجريّ، قرب نصب يشبه صخرة بحريَّة. وقال:

ـ اقتربت، ورأيت أنَّها تبتسم.

«لمن كانت تبتسم؟ للحياة، بسبب طفلها. كانت تفكِّر، قابعة تحت ملجأ الباب الحصين، وجهًا لوجه مع الشمس الآفلة، بتفتُّح الطفل في الأيام القادمات. مهما تكن هذه الأيام رهيبة، فإنَّها ستكون حوله، له، فيه. إنَّها ستكون وأنفاسه وخطواته ونظراته شيئًا واحدًا..

«أجل، هذا ما كانت عليه الابتسامة العميقة لتلك الخالقة التي تحمل حملها، والتي ترفع نظرها وتحدِّق إلى النور، حتى بدون أن تخفض عينيها نحو الطفل المظلم، ودون أن تعير أذنًا للغة المجنون التي يهمهم بها.

«لقد كتبت حول هذا الموضوع..».

ولبث بلا حراك لهنيهة من الزمن، ثم قال بهدوء دون أن يتوقَّف، بذلك الصوت الآتي من العالم الآخر، الصوت الذي يأخذه الإنسان حين ينشد، حين يخضع لما يقوله، حين لا يعود سيِّد ما يقوله:

«المرأة التي يفتك بها الظلّ تبتسم للمساء، لذلك المدّ المعتم الذي ينطلق من أسمالها المضطربة الممزَّقة كشاطئ.. إنَّها تتألَّق بابتسامة، وكأنَّ الجميع يتوسّلون إليها، وهي صامتة تحت الأمواج الصامتة، كحطام جميع الشهداء. إنَّها تأتي، إلى مقربة من النصب، بدون تفكير، والطفل بين ذراعيها. لا بدّ أنَّ لها قلبًا إلهيًا كي تستطيع أن تكون متعبة إلى هذا الحدّ. إنَّها هنا، لا شيء يحميها، لكنَّها تبادر إلى الابتسام: فهي تحبّ السماء، النور الذي سيحبّه الطفل القابع في الظلام، تحت الفجر البارد، الظهيرة الثقيلة، المساء الحالم: وسوف يكبر الطفل، المنقذ المبهم، كيما يظلّ هذا كلّه على قيد الحياة. إنَّه سيعاود الحياة، الجنّة الوحيدة الموجودة، وباقة الطبيعة، هو الذي كان ابن الظلام والذي ارتجف عند

نهاية الطريق المتسلّق. إنّه سيعيد الجمال جميلًا، وسيعيد خلق الأبديّة بغنائه وهمسه. وتنظر إلى كل الشمس التي أعطتها، وهي تضمّ الطفل الوليد في المساء الذي يضفي لونًا عسجديًّا على أسماله، أرجوانيّة العينين. ذراعاها ترتعدان كجناحين، وهي تحلم بكلمات مدغدغة، وأنَّها ستبهر المارة، فيما لو وجّهوا أنظارهم نحوها. والغروب يطوّق عنقها ورأسها بهالة ورديّة: إنَّها أشبه بوردة كبيرة تتفتّح، تنحني نحو كلّ شيء..».

كان انتباهي يتلقّى القوافي كما يتلقّى الحنان في الظلام الحنان. الإيقاع! كنت أشعر شعورًا عميقًا بهيمنته وسيطرته. ولقد كان بعث فيّ الاضطراب في ذلك المساء الآخر حين كان ينتزع من ذاكرته أجزاء من قصيدته ليدعم بها جهده العزائي: الكلمات المنحوتة راحت فجأة تلمع في الظلام بأحجار ماس. لكن ما يقوله الآن بدا لي، بوحي من نذير داخليّ، أكثر أهمِّيَّة.

كان يتأرجح بعض الشيء، وقد استولت على مشاعره الموسيقى التي لا تقهر، فخضع لها خضوعًا تامًّا خضوعه لوجيب قلبه المنتظم، وكنت أشعر بخفقان كلماته العذبة يحيا فيّ. كان يبدو عليه أنَّه يبحث، يرى من جديد، ويؤمن إيمانًا لا نهاية له. كان في عالم آخر، كل ما يُرى فيه حقيقيّ، كلّ ما يقال فيه لا يمكن أن تغتاله يد النسيان.

كانت لا تزال راكعة. وكانت رافعة بصرها نحوه. ولم تكن إلّا اهتمامًا يمتلئ كما يمتلئ الإناء الثمين.

أضاف:

ــ لكن ابتسامتها لم تكن مجرّد إعجاب بالمستقبل. فقد كان فيها أيضًا شيء مأساوي تغلغل فيّ وفهمته حقّ الفهم. كانت تعبد الحياة، لكنَّها كانت تبغض البشر وتخاف منهم، بسبب الطفل أيضًا. كانت

قد انتزعته بالقتال من الأحياء الذي لم يصبح منهم تقريبًا بعد. كانت توجِّه إليهم، بابتسامتها، تحدِّيًا. كان يبدو عليها أنَّها تقول لهم: سيحيا رغمًا عنكم، وسيزهر على كره منكم، وسيستفيد منكم. إنَّه سيروِّضكم، للسيطرة عليكم أو ليصبح محبوبًا منكم، وها هو يتحدّاكم من الآن بأنفاسه الصغيرة، هو الذي أحمله بين براثني الوالدية. كانت رهيبة. كنت قد رأيتها للوهلة الأولى ملاكًا من الطيبة. والآن أجدها، دون أن تكون قد تغيَّرت، ملاكًا من القسوة والبغضاء: «إنِّي أرى نوعًا من الحقد على الذين سيكون بالنسبة لهم ملعونًا»، يتشنّج له وجهها الذي تسطع فيه الأمومة الفائقة الإنسانيَّة، وقلبها الدامي المليء بقلب واحد الذي يتوقّع الشرّ والعار، الذي يكره البشر ويعتبرهم ملاكًا يعيث فسادًا. إنِّي أرى الأم بأظافرها المرعبة، تنتصب دونما حماية في الخضم المائج العظيم، مبتسمة بفمها الممزَّق!».

كانت إيميه تنظر إلى عشيقها من خلال أشعة القمر. وكان يخيَّل إليَّ أنّ النظرات تختلط بالكلمات.. وقال:

ـ انتهيت إلى عظمة اللعنة البشريَّة، كما هو شأني في كل ما أفعله، ومضيت مردِّدًا برتابة من هم على صواب.. «أوّاه! ليس لنا، بدون اللّـه، بدون مرفأ، بدون أسمال كافية، إلّا تمرُّد الابتسامة، ونحن واقفون على أرض الأموات، ليس لنا إلّا تمرُّدنا ونحن نحتفل في المساء، مساء النزيف الكالح.. إنَّنا وحيدون وحدة إلهيَّة، والسماء قد سقطت فوق رؤوسنا».

السماء قد سقطت فوق رؤوسنا! يا لهذه العبارة التي لُفظت!

كانت هذه العبارة، التي لا يزال الصمت يهمس بها، أعظم صرخة أطلقتها الحياة، صرخة الخلاص التي كانت أذناي لا تزالان تتقرّيانها حتى الآن. كنت أشعر أنَّها تولد، كلّما رأيت نوعًا من المجد يزيد في

حجم الظلال الحيّة المسكينة، كلّما رأيت العالم يعود إلى إطار الفكر الإنسانيّ.. لكنّي كنت بحاجة إلى أن تُقال كي أجمع أخيرًا البؤس والعظمة، وأكون مفتاح قبّة السموات.

السماء، أي اللّازورد الذي يخترقه بصرنا، واللّازورد الذي لا نستطيع أن نرى ما وراءه إلّا بالفكر. السماء: النقاء والامتلاء، ولانهائيّة المتضرّعين، سماء الحقيقة والدين، كل هذا فينا، كل هذا قد سقط فوق رؤوسنا. واللّـه نفسه، الذي هو جميع هذه الأنواع من السموات في آن واحد معًا، قد سقط فوق رؤوسنا كالرعد، ولاتناهيه هو لاتناهينا.

إنَّ لنا ألوهيّة بؤسنا الكبير، ووحدتنا بما فيها من أفكار وعبرات وبسمات، هي بالضرورة إلهيَّة لامتدادها الكامل وإشعاعها. ومهما كان شرّنا ومجهودنا في الظلام، والعمل اللّامجدي لقلبنا الواجب، وجهلنا المتراكم، والجراحات التي هي الكائنات الأخرى، فإنَّ علينا أن ننظر إلى أنفسنا بنوع من الورع. وهذا الشعور الذي يضيء جباهنا، ويسمو بنفوسنا، ويزيّن كبرياءنا، هو الذي سنجد فيه العزاء، حين سيعتاد كلّ واحد منّا رغمًا عن مشاغله الحقيرة على احتلال جميع المكان الذي كان يحتلّه اللّـه. إنَّ الحقيقة نفسها تمنح المتضرّع دغدغة فعليّة، عمليّة، ودينيّة إن صحّ التعبير، منها تبزغ السماء.

.. كان يتكلّم بهدوء، بعبارات متقطّعة، عن موضوع أشعاره، لكنَّه كان يلقي على أسماع من تصغي إليه، بعبارات تتضاءل أهمّيّتها شيئًا فشيئًا، فتتضاءل معها كلماته.

كانت إيميه عند قدميه، لكنّ وجهها كان مشرئبًا. وكان هو أعلى منها، لكن منحنيًا عليها. وكان ثمة خاتم يلمع بينهما. كنت أرى بيضويّة الوجه الأنثويّ، ومنحنى جبين الرجل، وبدءًا منهما، الظلّ الذي يمتدّ بلا حدود.

وبعد أن بيَّن أنَّنا إلهيّون، راح يقول إنَّ عناصر المخلوقات العميقة هي وحدها المشتركة بينها. إنَّ الطباع والأمزجة كثيرة ومتنوّعة، تحت تأثير الظروف التي لا تحصى، كثرة وتنوّع ملامح الوجوه، لكن توجد، في الحقيقة، تشابهات كبيرة عارية، تتعادل تعادل شحوب الجماجم. وعلى هذا فإنَّ كلّ عمل فنّيّ يوحّد بين حالتين، ويقول إنَّ وجهًا من الوجوه هو صورة لوجه آخر، إنَّما هو هرطقة، اللّهمّ إلّا إذا كان قدسيّ العمق.

قال الرجل:

ـ لهذا، فإنَّ قصيدة الإنسانيَّة الحقيقيَّة، لا تُنحت لا من اللّون المحلّي، ولا من التصوير الاجتماعيّ، ولا من التسليات اللفظيّة، ولا من الحبكات الحاذقة. إنَّها تستولي على مشاعرك ببرودة دينيّة. إنَّها مؤلَّفة من سرّ الكائنات المرعب الرتابة، الأزليّ التمزُّق، الكائنات التي يمحو الظلّ والوحدة من حولها المكان الذي تحيا فيه والعصر الذي تمرّ به.

ثمّ تكلّم على الشعر ليقول إنَّ قيمة القصيدة إنَّما هي الحركة وحدها، أي الطريقة التي تنطلق منها كل رباعيّة، الطريقة التي تكشف بها كلّ بداية جملة عن الحقيقة، وإنَّ الصعوبة في القصيدة كائنة في ضرورة امتلاك انطباع شموليّ، كيما يهتدي الشاعر بهديه، قبل أن يكون قد بدأ. وقال إنَّه من الواضح الجليّ أنَّ إنشاء قصيدة، مهما كانت مقتضبة، إنَّما يقوم على خلق كلمات، الكلمات، تلك الأشياء الغامضة، الآسرة، حين تكون مصفوفة، والتي تكون خشنة وخافية لمعناها حين تفهم كما هي متداولة. وأدلى بهذا الاعتراف:

ـ إنَّني أجلّ الحقيقة الحقّة إجلالًا كبيرًا، حتى إنَّه لتمرّ بي لحظات لا أجرؤ فيها على تسمية الأشياء بأسمائها..

.. كانت تصغي إليه. كانت تقول: أجل، بصوت خافت، ثم لزمت الصمت. كان كلّ شيء يبدو وكأنّه غارق في دوّامة عذبة.

قال بصوت شبه خافت:

ـ إيميه..

لقد باتت لا تحرّك ساكنًا. كانت قد نامت، ورأسها على ركبتيّ صديقها. كان يحسب نفسه وحيدًا. ونظر إليها. وابتسم. وجال على وجهه تعبير من الشفقة والطيبة. وامتدّت يداه بتردُّد نحو النائمة، بعذوبة القوّة. ورأيت وجهًا لوجه الكبرياء المجيدة، كبرياء التنازل والإحسان، وأنا أتأمّل هذا الرجل الذي كانت تؤلّهه امرأة ساجدة عند قدميه.

- ١٧ -

لقد قرَّرت الانصراف. سأذهب من هنا غدًا، مساءً، مع ذكرياتي الهائلة. مهما تكن الأحداث، المآسي التي يخبِّئها لي المستقبل، فإنَّ فكري لن يكون أكثر أهمِّيَّة ورزانة بعد أن أكون قد عشت حياتي بكلّ ثقلها.

اليوم الأخير. أتناوأ لأنظر. لكنَّ جسمي كلّه لم يعد إلّا ألمًا ووجعًا. ما عدت أستطيع وقوفًا. إنِّي أترنَّح. أسقط من جديد على سريري، وقد دفعني الجدار. أحاول مرّة أخرى. تنطبق عيناي وتمتلئان ثقلًا وانقباضًا. لحمي يلتهب ضدّي، والألم يتضاعف، يصدم ظهري ووجهي، يفقأ عينيّ، يختطف قلبي.

أسمع كلامًا عبر حجارة الجدار. الغرفة المجاورة تتوتّر بصوت بعيد، بضباب صوت يخترق بمشقّة هذا الجدار:

لن أستطيع بعد الآن أن أسترقّ السمع. لن أستطيع أن أنظر إلى الغرفة. لن أستطيع بعد الآن أن أرى أيّ شيء بوضوح، ولا أن أسمع أيّ

شيء سماعًا حقيقيًا. وأنا الذي لم يبكِ منذ طفولته، أبكي الآن، كطفل، بسبب كلّ ما لن يكون لي. أبكي الجمال والعظمة الضائعين. أحبّ كل ما كنت سأعانقه.

سيمرّون من هنا من جديد، على مرّ الأيام والسنين، سيمرّ جميع أسرى الغرف، سيمرّون مع القليل من الأبديّة الذي فيهم. وفي الساعة التي يبهت فيها لون كلّ شيء، سيجلسون قرب النور، في المكان المليء بالهالات. وسينحنون ويشدّون أنفسهم نحو فراغ النافذة، سينتظرون بعضهم بعضًا بأفواههم. سيتبادلون نظرة أولى أو نظرة أخيرة لامجديتين. سيفتحون أذرعهم، سيهبون أنفسهم لمداعباتهم العشواء. سيحبّون الحياة وسيخافون من الاضمحلال. سيبحثون في هذه الدنيا عن اتّحاد تامّ بين قلوبهم، وسيبحثون في السماء عن إقامة بين الأسربة وعن إله بين الغيوم.

هسيس الصوت الرتيب يرتعد بلا انقطاع عبر الجدار. لا أسمع شيئًا سوى اللغط: إنّني مثل جميع من هم في غرفة.

إنّني ضائع ضياعي في المرّة الأولى التي جئت فيها إلى هنا، ضياعي مساء امتلكت هذه الغرفة التي وطأها المضمحلّون والأموات ــ قبل أن يطرأ على مصيري ذلك التغيُّر الكبير في النور.

وربّما بسبب الحمّى، ربّما بسبب ألمي الكبير، أتخيَّل أنّهم يهتفون هناك بقصيدة كبرى، يتحدّثون عن بروميثيوس. لقد سرق النور من الآلهة، وهو يشعر بالألم المتولّد أبدًا، المتجدّد أبدًا، يتراكم في أحشائه مساءً بعد مساء، حين يطير إليه العقاب طيرانه إلى عشّه ــ وإنّي لأشعر أنّنا جميعًا مثله بسبب الرغبة: لكن لا وجود لا لعقاب ولا لآلهة.

ليس ثمّة من فردوس إلّا ما نحمله إلى قبر الكنائس الكبير. وليس ثمّة من جحيم إلّا حمّى الحياة.

ليس ثمّة من نار سرِّيَّة. لقد سُرقت الحقيقة. سُرقت الحقيقة كلّها. رأيت أشياء مقدَّسة، أشياء مأساويّة، أشياء طاهرة، وكنت على حقّ. رأيت أشياء مخزية، وكنت على حقّ. ومن هنا بلغت ملكوت الحقيقة، إن كان يجوز لي أن أستعمل إزاء الحقيقة، دون أن أدنِّسها، التعبير الذي يستعمله الكذب والتجديف الدينيّان.

من سيؤلِّف توراة الرغبة الإنسانيَّة، التوراة الرهيبة والبسيطة لما يدفعنا من الحياة إلى الحياة، توراة حركتنا واتّجاهنا وسقطتنا الأصلية؟ من سيجرؤ على قول كلّ شيء، من ستكون له عبقريّة رؤية كلّ شيء؟

إنَّني أؤمن بشكل سامٍ رفيع للقصيدة، بالأثر الذي سيختلط فيه الجمال بالعقائد. وكلّما شعرت أنّي عاجز عن نظم قصيدة كهذه، ازداد إيماني بأنَّها ممكنة. إنَّ هذه العظمة القاتمة التي ترهقني بها بعض من ذكرياتي، تشير إليّ من بعيد بأنَّها ممكنة. لقد ارتفعت أحيانًا، أنا، إلى سموّ الروعة، التحفة. وأحيانًا اختلطت رؤاي بقشعريرة من الحقيقة قويَّة ومبدعة إلى أقصى الحدود، حتى إنَّ الغرفة بكاملها قد اهتزّت كغابة، وحتى كانت هناك في الحقيقة لحظات كان الصمت يصيح فيها.

لكن هذا كلّه، قد سرقته. لم استولِ عليه، بل استفدت منه، بفضل عدم حياء الحقيقة التي تجلَّت. لم يكن عليّ، في الزمان والمكان اللذين وُجدت فيهما من قبيل الصدفة، إلّا أن أفتح عينيَّ، وإلّا أن أحد يديَّ المتوسّلتين، كي أحقِّق ما هو أكثر من الحلم، كي أصنع أثرًا تقريبًا.

إنَّ ما رأيته سيختفي، ما دمت لن أفعل منه شيئًا. إنَّني أشبه بأم ستذبل ثمرة بطنها بعد أن كانت.

تبًا لذلك! فقد حلّت عليّ بشارة ما سيكون أجمل وأروع. لقد مرّت، من خلالي، ودون أن توقفني، الكلمة، الكلمة التي لا تكذب، والتي تكشف وتروي الغليل.

لكنَّني انتهيت. إنّني ممدَّد، وما دمت قد كففت عن النظر، فإنَّ عينيّ المسكينتين تنطبقان كجرح في سبيله إلى الشفاء، عينيَّ المسكينتين تندملان.

وأفتِّش لنفسي عن مهدِّئ. أنا! إنَّها الصيحة الأخيرة كما هي الصيحة الأولى.

أنا، ليس لي إلّا ملجأ واحد: أن أتذكَّر وأن أؤمن. أن أحتفظ بكلّ قواي في ذاكرتي بمأساة هذه الغرفة، بسبب العزاء الرحب الصعب الذي رنّ به أحيانًا قاع الهوّة.

إنّني أؤمن بأنَّه لا وجود تجاه القلب الإنسانيّ والعقل الإنسانيّ، المخلوقين من نداءات لا تفنى، إلّا لسراب ما يناديان. إنَّني أؤمن بأنّه لا توجد حولنا، في جميع الجهات، إلّا كلمة واحدة، تلك الكلمة اللّامحدودة التي تبرز وحدتنا وتعرّي إشعاعنا: لا شيء. إنَّني أؤمن بأنَّ هذه الكلمة لا تعني عدمنا ولا تعاستنا، بل تعني، على العكس، تحقُّقنا وتألُّهنا، ما دام كلّ شيء فينا.

انتهت

يلجأ بطلُ هذه الرواية إلى غرفته في الفندق ليراقب الآخرين من ثقب الباب. وتنتقل أفكارُه من حبٍّ قديم، إلى الموت، الذي هو «أهمّ الأفكار إطلاقًا»، فيرى أكثر وأعمق ممّا يجب...

يَعتبر كولن ولسون بطلَ هذه الرواية مثلًا على اللامنتمي النموذجيّ في الأدب الحديث، لأنّ اللامنتمي لا يرى العالمَ معقولاً ولا منظّمًا، بل يُحسّ بالكآبة العميقة والفوضى الكاملة.

هنري باربوس: روائيّ فرنسيّ. حائز جائزة **Gongourt**، أرقى الجوائز الأدبيّة الفرنسيّة.

دار الآداب
هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

تصميم الغلاف: ريم الجندي


ISBN: 978-9953-89-070-8